الوقدات

عبدالله القويري



الدار العربية للكتاب

حسن ابو يوسف الدويشي

الــوفــدات

الوقدات

عبدالله القويري

الدار العربية للكتاب

ليبيا - تونس

1984

I

"ستظل هناك في نفوسنا
أشياء غائرة لا ترى،
ونأخذ النزر اليسير منها
ونستدل به على الغير، نقدمه
إليهم وعندنا شعور بأننا
نمنحهم البركة."

عيسى يوسف اللومي

. . . وبزغت عنده شهوة القراءة . . وأن تتأصل هذه الشهوة حتى تفوق العادة ـ اذ تتأصل في نفسه تأصلاً يجعلها في قوة الغريزة ، تلك كانت البداية . ومعنى « الشهوة » هنا ليس معنى غريزياً حسياً ، بل يتخذ معنى الشوق الجارف الذي يمتلك الانسان تجاه عملية الاكتشاف الدائم التي تمارسها النفس ، منطلقة من القدرة العقلية والمكتسبات المتوارثة في الذهن . كانت القراءة بالنسبة اليّ ركيزة وجودية . ليس الوجود هنا بالمعنى الفلسفي ، بل معناه التواجد في مرحلة العصر ، أو الفترة الزمنية التي يعيشها الانسان . لا أذكر متى بدأت هذه الشهوة في البروز والوضوح عندي ، ولكن الذي ما زلت أذكره . . هو أنني عندما كنت طالباً في السنة الثالثة أو الرابعة الابتدائية ، وكان عمري لا يتجاوز الحادية عشرة وقدم لنا مدرس اللغة العربية اعدادا من مجلة صدرت في ذلك الوقت للتلاميذ ، وكان أسمها على ما أذكر « الطالب » ـ اندفعت لكي أحصل على نسخة منها في حرارة ليست معهودة في غيري ممن كانوا في الصف . . وبعدما تمكنت من الحصول على نسخة استولي على ما فيها من الطرائف والقصص . . منذ تلك اللحظة وانا لم أنقطع عن القراءة . ان عادة القراءة لا تتكون مبكرة في المجتمع الريفي الذي ولدت فيه ، فما هو السبب الذي جعلني في شوق دائم لممارسة هذه العادة ؟ أرجعه الآن الى حالة مارستها عائلتي علي ، وكان من نتيجتها العزلة ، أو الاعتزال . هذه الحالة هي الابتعاد عن الوسط المحيط وعن عاداته

وسلوكه ، ومواضعاته الاجتماعية ، كنت أنفر من كل ما يأتيه الصغار ممن هم في مثل سني في ذلك الوقت . لم يغرس أهلي فيّ شيئا من عاداتهم وسلوكهم . لم يكونوا يمتلكون شيئا يبذرونه في نفسي غير ذكرياتهم عن وطنهم ، وهجرتهم الطويلة عبر الصحراء ، ووصولهم واستقرارهم في « وطن الهجرة » . لم يكن عندهم لصغير مثلي في ذلك الوقت شيء غير الحكايات يملأون به وجداني . ولم يكونوا يستطيعون تحقيق ملاعب صبا لمثل من هم في سني من عائلاتنا . كنا قلة نعيش فيما يشبه القلعة الصغيرة محاطين بالعيون ، عيون الأهل . . والمتابعة المستمرة لحركاتنا وسكناتنا . لم يكن يسمح لنا بالتعبير عن حيوياتنا ، وممارسة العاب الصغار . لقد جعلنا الأهل شيوخا وقد كانوا مسنين جميعا ، في أجسام صغيرة تحترس وتحذر وتتردد وتتأمل ولا يصدر الفعل الا بعد عناء نفسي شديد . لقد كان هذا الأمر بالنسبة لي ، ولا أريد تعميمه على قرنائي في السن في العائلة ، اذ تفتح وجداني فلم أجد حولي غير رائحة الكهولة ، ولم تبصر عيناي غير المرضى من العجائز رجالا ونساء ، ولم تنقطع الرحلات الى القبور ، ودائما نحمل معنا من ندفنه . . فلم تكن رحلات زيارة كما جرت العادة في الريف وذلك كله مما زادني انطواء وملأني بالحزن الدائم مما شل كل اندفاعات الصغار عندي . لقد كنت احمل مأساة وجودهم بعيدا عن وطنهم ، بالاضافة الى مأساتي بينهم ، وهم يموتون بعيدا عن وطنهم .

* * *

كان أهلي تجارا ، والتاجر همه الكسب . لم يكن كسبهم

مرتبطا بالثراء، أي بالطموح الطبقي، بل كان الكسب الذي يدفع عن الانسان الحاجة . ومثلما كان كسبهم مشمولا بقانون الربح والخسارة . . فقد كان مشمولا في نفس الوقت بروح الدين والجسارة . . اذ كل سنة أراهم يبحثون عن مجالات كسب جديدة تكون قريبة مما يربطهم بوطنهم . . فكل معاملاتهم كانت مع أبناء الصحراء الغربية أو ممن وفد اليها أيضا من أبناء وطنهم في فترات قريبة واستقروا فيها . لم يكن أبي وأعمامي معزولين عن أبنا ء الوادي . . عن الفلاحين . أقصد العزلة هنا . . عزلة التعامل . بل كانوا على صلة طيبة بهم . . غير انهم ابتعدوا عن التشبه بكل عاداتهم - واحتفظوا بجميع العادات التي ورثوها في وطنهم مما جعل الناس المحيطين بنا ينسجون الأساطير عن حياتنا وكم آلمني ما كان يطرق أذني من بعض التهويلات التي كانت تنسج عن حياتنا الأسرية .

طبعا كانت لنا عادات قد تكون غريبة فعلا بالنسبة للفلاح المصري ، مثل أن تذبح الذبائح عند الوفاة ويأتي المعزون من الصحراء الغربية ، فيتغذون ويتعشون وهذا أمر رهيب اذ أن الموت في مصر يسود كل شيء ، فلا شرب ولا أكل ولا ما يدل على الحياة بالنسبة لأهل الميت . كما أننا لا نلبس السواد ولا نعرفه في موت ولا غيره ، والسواد دلالة الموت الرهيبة التي تسود المجتمع المصري . والمرأة عندنا اذا « ربطت » لبست البياض وكان هذا مدعاة للاستغراب والدهشة ، خاصة من النسوة المصريات . . امرأة يموت زوجها فتلبس لباسا أبيض بدلا من السواد والنيلة تضعها فوق رأسها . كانوا يستحقون أن تنسج حولهم الأساطير فعلا . . .

هـذا التنـاقض الواضـح في الأشياء الصغـيرة ، وفي الأمـور الكبيرة . . كان يحدث شرخا في نفسي يزداد عمقا كلما ازددت نموا . كان علي لكي احدث توازنا نفسيا ، لا يجعلني اشتط وانهـدم . . ان أبحث ، ولم تكن وسيلتي في البحث المتيسرة امامي . . غير القراءة .

حالة أخرى . . عشتها لفترة وأنا صغير . فقدت البصر لفترة زمنية ليست بالقصيرة . لم أكن في ذلك الوقت قد تجاوزت السادسة من عمري ، ورغم ذلك فانني أذكرها . . كأنما حدثـت بالأمس . العجيب أن أبي كان يأخذني من يدي . . ولفافة هي منـديل أبيض حول عيني ، ليتركني وحالتي هذه ألعب حوله في الدكان ، واذا سئل علي أجاب « توايصح » « توايصح » الى أن قيض الله لي شيخا كان صديقه . . وما أن أزال الرباط عن عيني حتى صاح في والدي « أتريد الولـد أن يصبـح أعمـى ؟ » وجـاءت إجابـة والـدي تدل على عدم الاكتراث ، فاحتد الشيخ وأصر على أن يتولاني بنفسه وكان أن أخذني في اليوم التالي الى مستشفى الرمد . . حيث اجريت لي عملية كحت للجفون ، فما كان عندي سوى رمد حبيبي استفحل أمره ، وكاد يأتي على بصري . ما زلت أذكر اللحظة التي رأيت فيها النور حتى الآن . لقد كاد الظلام يظلل كل حياتي . قد تكون هذه الحادثة أيضـا . . زادت في تعميق الشرخ ، وجعلتني أبحـث أكثـر فأكثـر عن الضـوء الحقيقي . . أعني ضوء الاكتشاف والبحث . . اكتشاف الضمـير ، والبحث عن معنى الحياة .

* * *

لقد اثقل ضميري منذ صغري وكان عليَّ الا أعيش معذبـا .

كنت أبحث عن لحظات البهجة والسعادة التي فقدتها . فلم أكن مثل الصغار صاحب لعب ولهو . . اذ انني أحسست بالعجز والعمى ، كما أحسست بالبعد عما يحيط بي ، وأين هي البهجة في ذلك المحيط . . « مركز » هو الى القرية أقرب منه الى المدينة . التخلف يسود كل شيء . الانسان لا قيمة له . العمل رتيب رتابة الزرع ونموه . السلطة حاكمة جبارة ، متمثلة في الاقطاع وما يروى عن حكايات أسره المتجبرة تساندها أجهزة الشرطة . أطباق من الكآبة وأكداس من الحزن وقطرات من الأمل . تلك هي ملامح نفسي . فلم يكن أمامها وفي مواجهتها غير الكتاب ، والحرف الذي ساعدت الظروف على أن أستطيع فك طلاسمه ، ولم يكن ذلك بالشيء اليسير في تلك الفترة .

إن ابي عندما أودعني المدرسة لم تكن غايته غير أن استطيع الكتابة والقراءة لأساعده في اعمال التجارة . كيف أفلت من هذا الأسار ؟ الفضل ولا شك كان يرجع الى حالة التشوف أو التشوق الدائم لاكتشاف الأسرار التي تربت عندي ، وكان وسيلتها الكتاب . ووضعت بذرة الحوار في نفسي منذ ذلك الوقت البعيد . كنت دائم السؤال لنفسي ، التي ترد على السؤال بسؤال آخر . كان القلق يمضني . كان حواري مع نفسي وسيلتي لمحاولة التغلب على القلق . عندما بدأت الكتابة . . كان سردي حوارا ، ولم يكن استرسالا ، اذ الجملة عندي ناقصة . . اعني في معناها ، والجملة التي تليها لا تفسرها . . بل تضع معنى آخر يتطلب تفسيرا . . وهكذا . والعجب . . ان محاولاتي الأولى لم تكن شعرا . . كما هي عند

الآخرين ، فالروح الرومانسية عندي مفتقدة . . افتقدها داخل نفسي ، وان بدت في اعمالي الآن . . وهذا ما جعلني أكتب فيما بعد ما أطلق اسم « المسرح الذهني » عليه . لم يكن الذهن هو مسرح الحوار . . ولكن الحوار كان مركزا ، لدرجة أن التوضيح يجعلني أخرج عن الجملة الحوارية التي اريدها ، والتي أراني مدفوعا اليها عند الكتابة . . الى الجملة الاسترسالية .

* * *

المسرح ربيب الأسطورة الأغريقية في الغرب . . وعندنا لم يكن هناك مسرح ، وانما كانت الجملة الحوارية هي أداتنا لأن يكون المسرح متمثلا في أضيق الحدود . يبدأ هذا الحيز الضيق بمجال النفس المتفردة أولا ثم في محيط أوسع قليلا ، وهو الحوار الاستنباطي . . حوار الاستكشاف الفكري الذي قد يستعمل شخصين او ثلاثة . . ثم ينتقل بعد ذلك لتصبح هذه الجملة الحوارية أداة المعرفة البشرية كلها . فليست هناك شخصيات ارتبطت كما ارتبطت في الغرب بآلهة الاغريق المعروفين بمميزاتهم الخاصة في صراعهم ضد الأقدار أو معها ضد أشياء أخرى .

لكن الارتباط عندنا كان بنضال النفس البشرية . . المتحققة فعلا في واقع اجتماعي نتيجة لظروف معينة بعيدا عن الايحاءات الأسطورية . . فكان عليها ـ والأمر كذلك ـ الا تغرق في التفاصيل ، اذ أن التفاصيل شيء معتاد . . والاعتياد ينقل الجملة الحوارية الوامضة بعيدا عن اشعاعاتها ليجعلها جملة سردية ، لا تملك

القدرة على الايحاء ، واذا فقدت الجملة الحوارية ايحاءاتها فقدت في رأيي أهم مميزاتها . . وهي ان تكون دالة على تطور الفكرة بالموقف في عدم التحدد به . . بل بالانطلاق منه . والانطلاق هو الحركة التي لا تعرف التوقف عند ما هو مرسوم محدد بل تظل في مسيرتها الاستكشافية التي لا تعرف الحدود . وليس غير الايحاء الناتج عن وميض الجملة الحوارية من شيء أقدر على مثل هذا الفعل . فالمسرح « فعل » وليس هو « الفعل » المعتاد . . بل هو الفعل في حالة الاستقطاب التي يترتب عليها التغير الكيفي ، المنبلج دائما في لمحات سريعة لا تملكها الكلمات المسترسلة المعتادة . بل تعطيها الكلمات المشحونة المركزة في علاقات داخلية دقيقة ، لتظل عملية التطهير دائمة ومستمرة وقادرة على الفعل .

وكلمة التطهير هنا هي تلك الكلمة التي عادة يطلقونها على الحالة التي تنتهي بها المسرحية مثلما انتهى الأمر بأوديب في مسرح سفوكليس بحالة تجاوزه أخطاءه ووصوله الى حالة الصفاء والتواؤم مع القدرات العليا . . فترتاح فيها لنفس . . وتحس انها بعد معاناتها وصراعاتها مع الأقدار قد ارتاحت ، هي حالة الطهارة المثلى في المسرح الاغريقي .

اما عندي فالتطهير دائم في العمل المسرحي . . اذ أن كل تركيز وايحاء دل على شيء فأعطت الجملة الحوارية التي تلته زيادة في الاستقطاب ثم تحدث الراحة التي أعني بها التطهير . . ويقوم بعدها استقطاب جديد . . وهكذا . . . هو حالة دائبة من التوبة المتوالية . . نتيجة مغالبة الانسان لقوى كثيرة حوله ، وفي نفسه

لتعطيه بعد ذلك إشراقة الصوفي . أريد الآن أن أنتقل من ذلك الى حديث عن الصوفية يربطني بذكريات أخرى في الصغر .

* * *

عندما كنت في الصغر كانت أمي تمسح رأسي بزيت الزيتون ، وتطلق دعواتها مستنجدة بسيدي « عبد السلام الأسمر » فارس سعيدة ولم يكن لديها من حول غير ذلك . . وتتركني أصارع الحمى بدعواتها . . . موقف آخر . . . حادثة أخرى ما زالت في أعماقي . . وهي أنني عندما كنت مريضاً في إحدى المرات وجاءت تزورنا سيدة كبيرة في السن طويلة القامة ، أجشة الصوت تحمل « قتباً » على رقبتها ، في لحيتها بعض الشعرات الطوال . . . أذكر إسمها الآن خالتي «الشعالية» طلبوا منها أن ترقيني. تلت دعواتها على رأسي، ثم طلبت مني أن أفتح فمي ، وما أن فتحته حتى تفلت فيه . .

* * *

الصوفية عندي هي ذلك التواجد الروحي الذي يحققه الإنسان بالعمل ، فكل ما اكتسبت من تجارب ومعرفة دلني على أن الإنسان لا يجد جوهره إلا في العمل . فالصوفية ليست تلك الشطحات ، وما يتبعها أو يسبقها من ألفاظ غامضة وما يترتب عليها من حركات وتشنجات وإغراق في الإنسباه أو الدخول في الخلوات او الإبتعاد عن الناس ، إبتعاداً يدينهم ويدين تصرفاتهم . ولكن الصوفية في نظري هي حالة من الوعي الراقي ، وأعني بالرقي هنا « درجة الوعي » فهي « تفرد في الإجتماع » أو « تفرد بالإجتماع » . . وليست هي « انفرادا

بالذات » ذلك أن كبار الصوفيين كانوا على قدر كبير من فهم ووعي بمجتمعاتهم التي كانوا يعيشون فيها في الوقت الذي كانوا فيه مؤمنين إيماناً لا يرقى اليه شك بالله ورسولـه صلى الله عليه وسلـم ، ولـكن سبلهم اختلفت في محاولاتهم من أجل نشـدان السعـادة لبنـي البشر وأشواقهم الى الله ليست بعيدة عن مشاعر أي إنسـان آخـر ، عادي بسيط . . . يحس بشوق الى ربه تعالى . وما اتخذه بعض الصـوفيين أمثال الحلاج الذي قال بالحلول وأُدين به ، وأعدم من أجـل فكرتـه هذه . . . الا شطط يغتفر في حالات الإنشـداه الـكلي التـي كان لا يقصد من ورائها كفراً أو إلحاداً بل إغراقاً في الإقتراب والعبادة . .

* * *

تمردت عندما تفلت العجوز في فمي في ذلك الوقت ، ورفضت أن يكون سبيلهم الى صحتي . . هو إيمانهم بريق امرأة عجوز أخنى عليها الدهر . ولا أذكر الآن إن كان قد إنتابني قرف من ذلك ، أو إن كان قد شملني غثيان . . أو إن كانت الحمى قد أنهكتني فلـم أكن أدري ما يدور حولي . . . ولكن الذي أدركه الآن ان تلك العجـوز كانت صوفيتها في بدائيتها . .

كانت إنسانة عاملة رغم سنها وكانت تحرس قطيعاً من الغنم في الصحراء أمام خيمتها ، والبركة تأتيها من عملها البسيط واستمرارها فيه رغم سنها ، فلم تعرف عن الصوفيين شيئاً ولم تسمع بهـم . . اللهم إلا بعض ألفاظ مأثورة لسيدي عبد السلام الأسمر .الجو حوله في البيت . . لم يكن بأجواء صوفيين . . والتجـارب الصغـيرة التـي - ينده - فيها على أقطاب الصوفية وكراماتهم ، كانت أزمات لا تلبث أن

تمر في سهولة . لم أعرف حتى الآن السبب الذي جعلني أقترب من عالم التصوف . . كلما اقتربت في درجات الوعي من عالم الاحاطة ، بالاستكناه والتبصر .

إن الصوفية هي جوهر التواجد الاجتماعي حقيقة . . . في تحققه أو في تكامله بالعمل ، وصولاً الى جوهر الإنسان . وبقدر ما تكسر المشاعر الصوفية حدة الاعتياد بقدر ما تريح النفس في عالـم حدوده مضبوطة رغم أنها غير مرئية وغير معروفة،فحالات الإشراق لا تجعـل الشخص داخلاً تحت أي اعتبار أو مقاييس ، تلك الحالة التي ينجذب اليها الصوفية . . لكنهـا رغـم مقاييسهـا البعيدة عن مدركات البشر العادية إلا أنها تملك من الحدود والمقاييس التي تعطيها لصاحب هذه التجربة ، تطلعاً الى انتقاله اليها بممكنات تربطه بما سبق من حضور اجتماعي الى ما يمكن ان يتحقق من حضور انساني أشمل وأعم وأدق تفصيلاً .



كانـت تلك البـدايات في بيتنـا إيمـاءات نفسية بالنسبـة الي ، أستعيدها الآن مثلما أستعيد دقات دف خفيف ، صغير ما زالت ترن بعض خبطاته في وجداني . الشيء الذي وعيته بعد ذلك هو ألا أخلط هذه المشاعر والأحاسيس بواقع الحياة ولكن أجعلها تضيء أمامـي . كان جميع أفراد عائلتي يستنكرون أفعال الدراويش أو أتباع الطـرق الصوفية . . وإن كنت وأنا صغير قد ملت نفسياً الى أحد أقربائي ، الذي كان يجول البراري كإبن أو مريد لاحدى الطرق الصوفية ومعه ـ بنديره ـ ورفاقه . . يقيمون أمسياتهـم الصـوفية بطقوسهـا المعروفـة

كضرب البندير والمناداة وابتلاع النار . . الى غير ذلك من أفاعيل ، ولكنهم كانوا إذا جاءوا الى بيتنا في المواسم وليس غير ، يخفون بناديرهم ، ولا يقيمون شيئاً من طقوسهم . وتحت الحاحي كان كبيرهم ينادي ويمدح في خفوت ، ودون ضرب على البندير حتى لا يسمعه أحد من أعمامي . ففي الوقت الذي أحسست فيه بالشوق الروحي الى التواجد الصوفي . . في الوقت الذي نفرت فيه من تلك الطقوس .

* * *

كان الإدراك عندي لا يخضع للنزوة بل هو حالة مستمرة تتولد من سؤال الى سؤال آخر ولا تجد الاستقرار والاطمئنان مطلقاً عكس صاحب النزوة الذي يجد راحته عند تحقيقها . لذلك وعندما اكتشفت بعض أفعال الطرق الصوفية في مصر ، ومنهم من كان على قدر من الطيبة . . . لم تساعدني نفسي على الاقتراب منه أو الموافقة على أعماله ، أو حتى ان أجعل نفسي كفرد مميز في وسطهم له بعض الاتباع والمريدون . هذا شيء يوجد في مصر وسط الفلاحين والناس البسطاء ، فما أن يروا منك شيئاً يدل على البصيرة والسلوك المهذب والنفس الرضية . . حتى تجد حولك التابعين ، « والسائرين خلفك نياما » وبمثل هذه الحالة . وبكيفيات تختلف صدقاً ودجلاً ، كان سيطرة أصحاب الطرق الصوفية على الفلاحين والمزارعين في مصر .

* * *

أذكر الآن شخصية الشيخ ـ سليمان ـ كان طويلاً ، عريض

المنكبين ، ممتلىء البطن يسير حافياً ، ويحمل في يديه مجموعة من العصي ، ويلف على رأسه عمامة من خرق مختلفة الألوان ، ويغطي جسده بأنواع مختلفة من القماش ، وينادي مرة أو مرتين بأدعيات وكلمات مبهمة . كان يمد يده كشحاذ وهذه هي البداية التي تمثل بالنسبة لهؤلاء المرحلة الاعلامية اذ لا بد من توفر معرفة الناس بهم أولاً ، ثم بعد ذلك يدعي معجزة ، ويتبعه مريدون ، ويستقر في مكان ولا يظهر الا في المناسبات وعند الملمات . . وبالطلب وما يقدم له من مقابل . كانت هذه هي حالة الشيخ سليمان عرفته وأنا صغير شحاذا ، ثم عندما كبرت وذهبت الى الجامعة وعدت في إحدى الإجازات ، وسألت عنه عرفت انه اصبح قطباً كبيراً .



أريد أن أخرج من ذلك الى أن الوجد الصوفي الحقيقي لا يكتمل ويتبلور ويبرز إلا بالعمل من أجل فكرة سامية ، وعندي تبلور هذا الوجد في حبي لوطني . ولم يتخذ وطني صفة غادة أناجيها نشواناً أو ملمحاً رومانسياً بل كان وطني في وجداني بحقيقته هذه التي كانت والتي نراها الآن . . بمساحته الشاسعة ، بصحرائه ، بأبناء هذه الصحراء ، بأبناء المدن بالسماء الممتدة الى مالا نهاية ، بالندرة في الخضرة ، بالقلة في الماء . كنت أعرفه وأنا في مصر . هناك توجد هذه الأشياء متوفرة ، ماء يسيل دائماً ، وخضرة دائمة ، وكثافة بشرية . . ومع ذلك فقد كنت في شوق دائم الى وطني . العجيب ان ذلك لم يكن قصيدة ولم أحسه إحساساً غائماً بل كان محدداً في ذاته . كنت أبتعد في أحيان كثيرة ، وفي أحداث عن ذكر هذا الوطن أو التمسح

بذكره إذ كنت اكتفي بأنه يملأ وجداني ، وأحاول قدر جهدي البسيط أن أقترب منه . . ومعنى الاقتراب هنا معنى صوفي ، إذ أريده متحققاً بالعمل حقيقة مثلما أحقق وجودي بالعمل من أجله . فما كان أشد ظلمة لحظات الضياع التي عشتها بعيداً عنه أعني الا يكون وطني ممتلكاً وجداني . ولكم رددت كثيراً هذا فيما كتبت . .



لا أريد أن تكون هذه السطور تكراراً . . بل حواراً ، لذلك كان الحوار هو ما بدأت به . كان أستاذي في ذلك توفيق الحكيم ولا شك ، ثم تمردت عليه . ولكن قربه من نفسي كإنسان جعلني ذلك التلميذ المقر بالفضل ، وليس التلميذ العاق ، فقد أحب توفيق الحكيم مصر ولا شك . . وكان عناؤه من أجلها عناء كبيراً ، رغم أن أمه من أصل شركسي أو تركي . . إلا أن والده كان فلاحاً وصل الى رتبة الأفندية ، ومن الشرخ الذي أحدثه التنافر بين أمه التي تمثل في أعماقه جبروت الأتراك ، ووالده الذي يمثل الفلاح المستعبد ، من هذا الشرخ تولد أسلوبه في التفكير . . ولم يكن غير الحوار أسلوبه . فأنا مثله . . عانيت طبيعتين مختلفتين . . أقترب من إحداهما متعاطفاً ، وأنفر من الأخرى متعاطفاً ايضاً . . كذلك كان توفيق الحكيم ينفر من أمه تعاطفاً ويقترب من أبيه تعاطفاً أو العكس . . . ولقد نقل لنا ذلك في كتابه الرائع « سجن العمر » الذي كان سيرة ذاتية لوجدانه ولم يكن سيرة ذاتية لحياته رغم امتلائه بالتفاصيل التي توحي في القراءة المستعجلة بأنه لا يقصد غير سردها . ولكن القارىء المستكنه يتبين أن التفاصيل ليست سوى حافة البئر ، ومن أراد أن

يعرف ما يحويه البئر فعليه أن يدقق النظر في الأعماق .

* * *

أردت من اصطحابك معي في بعض التجاويف النفسية التي تخصني أن أجعل الأمور أو الأشياء البسيطة . . ذات دلالة على حقائق ليست بسيطة . . فلقد تعودنا أن نتسرع في الأحكام مثلما تعودنا أن نستهين بأشياء كثيرة . والإستهانة هنا طبع وليست طبيعة النفس ، هي طبع وجد في المدن الليبية . كانت منذ القدم محط القوافل ونعلم أن « العريان في القافلة مطمان » كما يقول المثل ، لذا كان طبع أبناء القوافل الا يعجبهم شيء أو يركنوا الى شيء أو يساوي عندهم معنى أي شيء ، وبقي هذا الطبع متسرباً في النفوس . . يلطمك به الفرد ليدل به على تميزه وتفرده ، وعدم تواجده وجدانياً ، فهو في رحلة لا يراها ولا يدركها وإن كان يحس بها ، رحلة تدفعه الى أن يكون عرياناً من المشاركة الوجدانية الحقيقية . والارتباط النفسي العميق ، هو في رحلته هذه طامع دائماً في تحقيق المكاسب المادية السريعة ، فهو إبن قافلة جاءت لتربح وتسير ، لتربح في مكان آخر . . وليس يهمها في ذلك غير الربح المادي . أنا لا أتصور أن التحقق الوطني الذي يحدث الآن لا يشكل ملمحاً أصيلاً في نفوسنا . . إنه تواجد حقيقي للوطن . . وشعور بالمواطنة ـ وأول شعور يجب أن ندركه هو حالة العطاء الدائم . . واستمرارية الوجود والمشاركة الوجدانية ، والفعالية الخلاقة والتشوق الى السمو . هي معانٍ مجردة ولا شك ولكن اللحم والعظم الذي يكسبها تجسدها هو في تحركنا الدائم بالعمل لأن تحقيق المواطنة جوهر يرفع الانسان الى تلك الحالة الدائمة الى التشوق

الصوفي الذي يبلوره فعلاً العمل الإجتماعي . أقول دائماً . . بأن دور الذين يكتبون ويعبرون يجب أن يتركز في محاولة إخراج الفرد الليبي من حالة الإنسباه والتلقي ، ومفهوم الإنسباه عندي هو تلك الحالة التي يكون فيها الشخص حياً يمارس أعماله ، ويؤدي كل نشاطاته ولكن في حالة من عدم المبالاة وبلا عناء . . وأعني بالعناء المعاناة . هو حي بيولوجياً واجتماعياً ، ولكنه ميت في فعالياته . انه في هذه الحالة . . فاقد للرؤية لا يمتلك الحدس ، ولا يعاني أشواقه السامية .

من المعروف أن المدرسة البرجماتية لا تقيم اعتباراً لغير العمل في حدوده الفردية وما يترتب على هذا العمل في المجالات الاجتماعية محدداً ذلك بحركة الأفراد الآخرين ليس غير . . فهي تنكر ما يترتب على العمل الإجتماعي من جوهر يتحقق به الإنسان ليجد وجوده الحقيقي في المعاني والاستشراف ، والتشوق . بكلمة صغيرة هي تنكر انعكاسات العمل غير المرئية ، والتي تأخذ بيد الإنسان . . لا لتقف به عند علاقات ميكانيكية ، بل تأخذه الى علاقات أخرى ذات كيف يبهر ويستحوذ ليدفع فيتحقق الجوهر . إن سيطرة مثل هذه الأفكار على حياتنا جعلت الفرد بعيداً عن تلمس المعطيات الجديدة في تحققنا الإجتماعي ، إن دراساتنا اتجهت الى أشياء إحصائية كمية ، تسيطر عليها عمليات المقارنة ، وما يتبعها من قياسات . . لذلك قلت بأن الصوفية عندي لم تكن هي الابتعاد بقدر ما كانت تحقيقاً لجوهر الإنسان بالعمل والتواجد الاجتماعي المستمر .

إن قراءاتي في الصوفية ليست كثيرة ، وتجاربي فيها لا تتعدى حالات من الإستشراف والتشوق الدائم الذي يملأ وجداني . لست

مغرقاً في ذلك الى حد أن أزعم لنفسي بأنني صاحب مدرسة أو فكرة جديدة . كل ما أقول به هو أنني آخذ حياتي بمعنى أشمل . . أعطيها شمولية التواجد ، ولا آخذها منفرداً بها كذات متفردة لأعطيها امتداداً بيولوجياً . كانت قراءاتي في الصوفية قراءات المستشف ، وليست قراءات المريد . لم أحاول أن أنسخ على منوال أي من فلاسفتها أو أجعل قطباً لي من بين من كتبوا فيها . لست ذلك المسبوه صوفياً . . ولكنني الواعي بحالات الاستشراف والتشوق والاشراق . . المدرك لمنطلقاتها والمقدر لما في شحناتها من دلالة على محاولات الإنسان الدائبة من أجل أن يحقق تطوره وصولاً الى حالة البهجة الكبرى .

* * *

ليست سيرة ذاتية ، وانْ اتخذت من ذكريات حياتي منطلقاً لها ، إذ أننا لم نتعود الصراحة في رواية ما يتصل بأشخاصنا . . وإذا كان هناك من عنده الشجاعة في أن يفعل ، فليس هناك من يقبل منه ذلك . ستظل هناك في نفوسنا أشياء غائرة لا ترى ، ونأخذ النذر اليسير منها ونتدلل به على الغير ، نقدمه اليهم وعندنا شعور بأننا نمنحهم البركة .

لم أفعل غير ذكر ما ارتبط من الأحداث في ذهني بما أفكر فيه لحظة الكتابة . فهي رحلة ذاهبة آيبة بين الوجدان والعقل . هي الوجود في لحظات مركزة ، لا يدعي صاحبه الكمال ، ولكنه يدرك أنه يحاول دائماً أن يقول شيئاً ، قد يستطيع أن يفعل فيصل بعضه الى بعض الناس ، وقد لا تمكنه قدراته التعبيرية من الفعل ، فيكتفي في

نفسه بالمحاولة ويدعو الله ان يهبه القدرة ، انه على ما يشاء قدير .

* * *

لم تفارقني روح التلمذة ابداً ، فكل صاحب خبرة أو تجربة هو استاذ لي . ليس معنى ذلك هو أنـي ذلك المتلقـي الدائـم لتجـارب وخبرات الغير ، ولكن معناه أنني لا أستصغر أي حركة فاعلة يمكنها أن تعطيني إشارة على مخبوء النفس البشرية .

كانت العلاقة بيني وبين المدرس هي علاقة التلميذ الذي يريد أن يستـكشف وأن يعـــرف ، والمدرس هو دليلي . لم يكن المدرس بالنسبة لي هو الآمر الناهي المتسلـط ، بل كان هو القـادر على المنـح والعطاء ، ولم تستطع عصا « غبريال أفندي » مدرس الحسـاب أن تجعلني أتصور المدرس في غير هذه الصورة .

ما أن يدخل « غبريال افندي » الفصل ، ونحييه تحية الصباح ويجيبنا بكلمة « جلوس » الآمرة ، يخرجها من بين شفتيه المزمومتين ، حتى ينظر الينا متحديا كارهاً ، ثم مرددا :

ـ يا حزنة ، يا أولاد الكلب . الواجب .

كل فرد منا كان يرتعد ، رغم أنـه قد أدى الواجـب ، وحـل المسائل التي كلف بها ، إلا أنه كان يتوقع لطمة ، أو « لهبة عصا » ، أو تعبيراً هازئاً ، أو سخرية ، أو هزة رأس غير راضية . لم يبتسم « غبريال افنـدي » مرة واحـدة ، كما انـه لم يعجـب بنشـاط تلميذ واحد ، كنا بالنسبة اليه سواسية في تلقي الاهانة واحتمال العصا ، مهما

بلغ نشاط الفرد منا ، ونجابته فقد استطاع غبريال أفنـدي أن يخلـع قلوبنا ، ويضع مكانها مضغـاً أخـرى وظيفتهـا الإرتعـاد من كلماتـه ووجهه ، ونبراته وايماءاته ، كنا نتمنـى على السماء أشياء صغـيرة ، كأن يتعثر وهو قادم الى المدرسة ، فيسقط على وجهه ، ويعود الى بيته فلا يحضر درسه ذلك اليوم . كنا نتمنى أن يمرض أن يصاب في يده . أن يتشاجر مع امرأته فتنكسر نظارته . . أن يحدث أي شيء يمنعه من الحضور . حدث ذلك مرات ، وكانت تلك المرات تشبه الأعياد ، كل منا يسر فرحته في قلبه ولا يعلنها ، وما أشد الفرحة المغلولة على القلب . ورغم ما فعله « حسين » فان سطـوة « غبـريال أفنـدي » استمرت .

كان ـ حسين ـ شابـاً يكبرنـا بأعـوام ، بلـغ حافـة الإعتـداد بالنفس ، فلـم يرض للعصا وقد رفعها « غبريال أفنـدي » أن تمس جسده ، وصاح :

ـ لا تضربني .

إلا أن المدرس أصر على ضربه ، فتماسكا بالخنـاق . وعـادت الأصوات وقدر أن يلوي يد « غبريال أفندي » الذي تراجع منادياً على الفراش محتداً ، ثم مغادرا الفصل الى غرفة الناظر . لم يحدث ذلك أمام عيوننا ، ولكن أجسامنا تحولت جميعها الى آذان تسمع لمن يروي الحادثة ، اذ كيف استطاع « حسين » ان يقف في وجه المدرس ، بل أن يحاول ضربه . . ؟ ومن هو المدرس ؟ « غبريال أفندي » الذي لم يستطع الناظر أن يوقفه عند حده .

* * *

كنت بالنسبة للمدرس كالمريد بالنسبة لشيخه ، ولعل هذا الشعور قد تولد في نفسي نتيجة للجو الذي يسود حياتي العائلية ، إذ أن المدرس لم يكن يحظى بالاحترام والتقدير من المحيط خارج بيتنا. كل ما كان يفضل به المدرس غيره أنه استطاع القراءة والكتابة . وهو أمر لا يدعو الى احترام كبير ولا ينقل الإنسان في نظر العائلات من وضعه الطبقي . ولا يعطيه شرفاً اذا لم يكن الانسان مستحقاً هذا الشرف بأصوله ومنبته . .

ليس عند المدرس ما يضيفه الى نفس التلميذ . ودائماً عند الشيخ ما يضيفه الى نفس المريد . فهناك حالة مشاركة بل تواجد واتصال روحي بين الشيخ والمريد ، ليس من شيء بين المدرس والتلميذ غير السماع والتقليد . الشيخ لا يحمل عصا اللهم إلا إذا كان مسناً ليتوكأ عليها ، فسلطانه لا يقهر . أما المدرس في مصر فهو بحاجة الى العصا ، فليس عنده من سلطان غير سلطانها . لا يفصل الشيخ عن المريد حدود الطبقات الاجتماعية ، ولكنها تفصل بين المدرس والتلميذ ، فمهما ارتفع المدرس في علمه ، فهو لا يستطيع ان يرتفع اجتماعيا فالحدود الطبقية شديدة قوية في المجتمع الاقطاعي .

النضوج الطبقي في مصر جعل معالم الطبقة حادة واضحة في كل شيء ، غائرة في النفوس بل إنها ذات ملامح روحية يركن اليها الفلاح والأجير ، قبل ان يتسلط بها الإقطاعي والأمير . لقد أعطت الحدود الطبقية اطمئناناً روحياً للفلاح المصري ، واستند اليه فلم يتحرك ولم يبحث ولم يحاول الاستكشاف النفسي ، فهو ليس في حاجة الى التنقل والبحث فالوادي والنهر يقدمان لبطنه حاجتها ، فلم

تبحث روحه الا في حدودها . أما الصحراء فانها لا تقدم للبطن حاجتها الا بعد عناء وبحث وحركة ، لذلك كانت الروح في إشراق دائم وحالة الاستكشاف هي حالة النفس البدوية التي لا تخنع ، فليس عندها الا الحركة الدائمة ظاهرياً وداخلياً . فاذا جاء الاطمئنان فهو إطمئنان فكر وعقيدة . وليس اطمئنان طبقة ووتيرة .

فما أن يتلفت العقل حتى تسبقه البصيرة ، تدفعه لأن يكتسب المعرفة فهو مريد . وليس ذلك الراضخ تلقى اليه الأوامر قهراً ، تنزل على رأسه ولا تدخله الا بالعصا .

* *.*

كانت دعوة « طه حسين » نقلة كبرى . التعليم كالماء والهواء حق لكل مصري - نادى بها قبل الوزارة وحاول أن يطبقها وزيراً . فالوفد الذي ضم « طه حسين » اليه لم يكن غافلاً عن مثل تلك الدعوة ، فهي ركيزة له وتوسيع لقاعدته ، وفي نفس الوقت هي قطع للطريق أمام دعوات أخرى أكثر شططاً .

كان « الوفد » يسعى الى قيام توافق طبقي ، يجمع بواسطته التناقضات ويجعلها لا تخرج الى حدود الصراع الواضح ، ولكن الشيء الذي لم يكن « الوفد » قد أدركه هو أنه وقع تحت سيطرة الاقطاع ، فقد استنار الاقطاع وتآلف مع الرأسمالية فكان على « الوفد » أن يحقق تآلفاً أكبر مع الطبقة المتوسطة باعطائها بعض المكاسب التي لا تهز الحدود الطبقية وان كانت ستغير ملامحها .

لم يكن إتساع التعليم في مصر نتيجة تحول في المجتمع ، بقدر

ما كان طلاء لجدران البناء الطبقي ، وإعطاء المجتمع المصري وجهاً عصرياً . فالتعليم لا يأخذ محتواه ، ولا يؤدي فعاليته ما لم يكن مرتبطاً برؤية اجتماعية . ليس « فك الخط » بالشيء العسير ، ولكن فك الجمود الإجتماعي هو الشيء العسير ، ولذلك كان لا بد ان يتساوق فك الجمود الاجتماعي مع « فك الخط » .

كل ما فعله « طه حسين » انه عمل على أن يفك المصري الخط ، وتركه « مربوطا » داخل حدود اجتماعية . لم يكن « طه حسين » ثورياً بل كان اصلاحياً ، فلم يستطع ان يربط دعوته بالحركة الإجتماعية حتى ولو وعى ذلك ، فقد كان هو نفسه أداة سياسية ، ولم يكن بصاحب الرأي السياسي . لقد هز « طه حسين » بدعوته العقلية المصرية ، ولكنه لم يستطع ان يهز المجتمع المصري ، ولم يسمح له بذلك لو استطاع ، ولم يكن هو بمستطيع لو فعل .

بقي التعليم عند حدوده النظرية ، ولم يرتبط بحركة المجتمع ، حتى الجامعة فقد ظلت امتداداً لفكرة الملك فؤاد ترعاها من بعده عناية الملك فاروق صاحب مصر كما سماها « طه حسين » تقدم الكتبة والموظفين وسدنة النظام . ولا يتعدى دورها ذلك الا في فترات الأزمات الاجتماعية و اهتزازات الحدود الطبقية ومنذ ذلك الوقت أصبح التعليم في مصر كالماء النقي .

* * *

ـ حافظوا على ترتيب حجراتكم ، سيأتي اليوم زائر كبير .

قالها مدير المدينة الجامعية لمساعده الذي أبلغ المنطوق لغيره ،

ومنه الى آخر ، حتى انتشر الخبر بيننا . جلست في الغرفة أفكر في معنى أن يصبح الفرد منا كساكن القفص الزجاجي . استحييت أن تأتي غرفتي من نصيب أحد الزوار ، فخرجت استنشق الهواء عبر ممرات الملاعب الرياضية .

كان عددنا لا يزيد عن ثلاثمائة طالب ، مختلفي المنابت والمشارب . لا تجمع بيننا إلا « الروح الجامعية » . كل منا اتخذ وسيلة تختلف عن الآخر في الحصول على مكانه في هذا المبنى الجديد الجميل ، ذي الحافات الرخامية والمداخل الزجاجية . كان الملك فاروق قد افتتحه قبل مجيئنا بشهور ، فكان علينا أن نتوقع الزيارات الدائمة ، فهم بهذا المبنى قد صنعوا شيئاً كبيراً .

حافظت على عزلتي أول الأمر ، ثم تعرفت على الكثيرين وتعرف عليَّ الكثيرون . أدركت أن المبنى تضج بما نضج به مصر من تيارات وأحزاب وتجمعات . كان كل طالب كأنه حبة على النار تقلى ، تحركه أيد كثيرة . فقد خرجت مصر من حرب ٤٨ جريحة . والصراع الطبقي تنضج معالمه ، والأحزاب القديمة تتآكل ، والتجمعات الجديدة تتوالد ، وفي الضمير كلمات . وعلى الشفاه همهمات ، وفي العيون أمور ، قد تكون صغيرة صغيرة فهي الرغبات ، وقد تكبر حتى تصير كالتمنيات محصورة في الجبين مقرونة بين الحواجب . كنت ألمح ذلك وأنا عنه كالغائب ، فلا نفسي تقرني على المشاركة ولا أنا راض عن موقفي .

* * *

الإحتدام في النفس يزداد مع الأيام ، وهمومي ورؤيتي لما

يحدث تتكثف كأنها الأحلام . الإختيار والبصيرة هما اللذان يعذبان النفس . ولكم تمنيت أن أكون مثلهم فلم أستطع . هل أختار الانضمام الى مجموعة منهم ؟ أن بصيرتي تقول بالإبتعاد . . ما هذا التردد ؟ أهو طابع حياتي الذي سيظل في مستقبل الأيام يمنعني عن المشاركة في الحركة والتفاعل ، أم أنني ولدت غريباً ، وسأظل غريباً حتى أعود الى وطني ؟ في إحدى الأمسيات ما إن نزلت الى القاعة حتى رأيت على الوجوه ترصدا ، والهمهمات تملأ الجو ، والكلمات لها دوي يختلف عن كل دوي . سألت واحداً منهم :

ـ ماذا هناك ؟

ـ سندمر الملاهي .

ـ ما السبب ؟

ـ الناس تمرح وتلهو ، والشباب الوطني يموت على القناة ، والانجليز يقتلون الشرطة الذين رفضوا الإنصياع لأوامرهم .

ـ ولكن ما علاقة ذلك بالمقاهي ؟

ـ على البلد أن تعيش المأساة .

ولم يتسع الوقت للنقاش ، فهو يخطط ويدبر مع زملائه يتفقون على نقطة اللقاء ، والملهى الذي وقع عليه اختيارهم لتدميره ، ووجهوا الدعوة اليّ للمشاركة فرفضت إذ أنني لم أقتنع بما اقتنعوا به ، فلا شك أن في داخلهم ما يربطهم بهذه الأمور أكثر مني ، أو لعلني أستشعر حدثاً لا يستشعرونه ، إذ أن تدمير المقاهي والملاهي استمر عدة ليال ، ليصبح يوماً تدميراً كبيراً ، حريقاً هائلاً ، لقد أمست

القاهرة حريقاً ، كان حريق القاهرة .

* * *

ترى هل كان هنـاك من دفـع بهـذه المشاعـر لتخـرج وتحـرق القاهرة ؟! لا شك أن « تعليم طه حسين » لـم يؤت ثمـاره بعد ؟ ولا شك أن أولئك الذين كانوا يخرجون كل ليلة ليحرقوا ملهى أو مقهى لم يقرأوا « طـه حسـين » . . . لعلهـم سمعـوا بدعوتـه ، أو قرأوا له سطوراً ، وأكاد أجزم ان أيا منهـم لم يقـرأ له كتابـاً . . كل واحـد يستطيع أن يواجهك بكلمة واحدة « أنا طالب جامعي » أما ما يدور فلا يستطيع ان يواجهك برأي فيه ، وإن قال كلمات فهي متلقاة من غيره وهو بها مدفوع ومندفع .

لـم أكن أتصور أن يندفع طلبة الجامعة في التدمير دون تفكير . كان عليهم أن يطرحوا الأمر للنقاش ، ولكن في مثل تلك الليالي هل كان يقبل رأي مخالف أو يناقش ؟ صاحب أي رأي آخر كان سيوسم بسمة واحدة : « غير وطني » وشاءت لي الظروف العائلية أن أسافر الى المنيا .

* * *

قال « عم ابراهيم » :

ـ ألم تشتر لي قاموسا ؟

وما أن أجبت بالنفي حتى سأل :

ـ بغل يعني ايه بالانجليزي ؟

ولم ينتظر اجابتي ، بل قال .

ـ ميول .

وهز رأسه يتهجى حروف الكلمة . والعم « ابراهيم » فلاح يعرف الانجليزية ، واحتفظ في رأسه بكلمات منها رغم أنه جاوز الستين . وكل من يراه بجلبابه ولبدته يستغرب أن يعرف مثل هذا الفلاح اللغة الانجليزية ، واذا ما سئل أجاب بأنه ذهب الى المدرسة كرفيق لأبن الباشا . وعاد ابن الباشا من المدرسة فلم يتم تعليمه ، وعاد معه « ابراهيم » ليحتفظ في ذاكرته ببعض الكلمات الانجليزية يسألك عنها ، كأنما يمتحن نفسه ، أو يريد أن يمتحنك . ولا بد أن يسألك عن معنى كلمة بغل بالانجليزية . ورغم أنه سألني عن ذلك أكثر من مرة وأجاب على ما سأل ، فان معنى الكلمة بالانجليزية لم يعلق في ذهني مطلقا .

* * *

لم اتخذ لها أسلوبا أو أداء فنيا معينا . ولكنني تركتها تخرج دفقات لا يحدها تخطيط او تصميم ، تأخذ من اندفاقها ما يعينها على الوصول الى النفوس ، فتبدو كأن ليس وراءها عناء . . ترى هل يستطيع الانسان أن يعبر دون عناء ؟ فهي رغم بساطتها ليست معزولة ، ولكنها الآن وبعد مرور هذا الزمن تحمل دلالة وتوحي ، فقد كانت قبل ذلك بلا دلالة ولا ايحاء . أساسها الذكريات ، ولكن هل يبقى في عقولنا الا البقايا علامات الذاكرة . حاولت جهدي أن أجعل من حصيلة التجارب رقيبا عليها ، فلم أقدر ، فحدود القدرة

خارج النفس أكثر اتساعا منها داخلها ، حيث تختلط في اللحظة الصغيرة أمور متشعبة واسعة ، هي المحيط في قطرة ماء .

تركتها ، فلم تتركني أبدا لأوقاتي ، شغلت من جديد وجداني ، فكان عناؤها عناء الحساب ، اتخذت ما يكفيها من حدود الأداء ، وجعلت من التركيز والاستقطاب لحظة الكتابة ما يغنيها عن التبسيط والسرد .

فليس في امتداد الأفق ما يغني ، ولكن في لحظات الصدق على قصرها ما ينبىء .

كلما استقطبت في ذهني شيئا ، ونويت قوله ، جاء على لسان قلمي غيره ، فإرادتي محدودة بهذه اللحظة التي أود أن اعترف فيها فيأخذني التيار لأعيها .

* * *

لم يغادر ذهني ذلك الكابوس . ضربتني الحمى يوما فجثم على صدري حتى كاد يقتلني . قفزت مذعورا من فراشي أصرخ وأهذي . الكلمات تخرج من فمي غير مفهومة ، وأبي وأمي كانا جالسين ينظران . اندفعت تجاه الباب يشدني وهج نار هي بقايا جمر في تنور أمام الغرفة ، فحرارة الحمى في جسدي أقوى من حرارة الجمر . الكابوس صور لي أن صدري قد أصبح قفصا مملوءاً بالأرانب تجري فيه وتبحث عن طعام ، وأمام القفص يقف شخص يحمل تحت إبطه حزمة من برسيم . رائحة الأرانب تكاد تكتم ألفاسي . تلقفتني أمي لتأخذني بعيدا عن النار ، وأبي جالس ينظر مستغربا حديثي عن

الأرانب التي تملأ صدري .

أعادوني الى مرقدي ، ومسحت أمي جبهتي وصدري بزيت الزيتون ، ولا أذكر كيف أخذني النوم مرة أخرى وحالة الرعب تهزني . في الصباح راق وجهي ، وهدأت أنفاسي ، وبللني العرق ، وسمعتهم يرددون : الحمد لله ، فرددت مثلهم غير مدرك ما كنت فيه من لظى ، وحافة الموت وقد اقتربت منها ، واستكانتهم وانتظارهم لانتفاضة النهاية كل لحظة . فماذا بمقدورهم أن يفعلوا غير انتظار العناية الالهية ؟

لا أذكر عدد المرات التي ضربتني فيها الحمى . فكثيرا ما مرضت ، وأكثر المرات ترتفع عندي درجة الحرارة مع العصر ، رلا يأتي المغرب حتى تكون بداية اللظى ، وما أن يقترب الظلام حتى ينزل على صدري وأنا في الفراش منهد الحيل ، مضطرب الأنفاس . فالشمس في الصعيد لها ضربات ، ورائحة الجو في بعض الأيام تقتلك واقفا . . كنت يوما واقفا أمام دكان عمي ، غير مقدر للهيب الشمس ، ولا عابىء بالأتربة والذباب ، والجو يخنقني بعفونة قاتلة ، وتساءلت :

ـ ماذا هناك ؟

وأجابني « عم أحمد » ، وهو صديق لعمي :

ـ اخرجوا جثتين من « الابراهيمية » .

وأشار « عم أحمد » الى مكانهما القريب على حافة الترعة ، واحنقني أن لا يكون هناك مكان لجسدي غريقين غير حافة الترعة ،

يلقيان عليها ، ويغطيان بكمية من قش القصب . استجمعت شجاعتي وذهبت المحهما من بعيد ، وعدت مسرعا وجسدي ينتفض والحنق والغيظ والعفونة تدك جوانبي : يا لله . هكذا الانسان وهكذا مصيره ؟

قال عمي :

ـ ابتعد لا تذهب الى هناك .

قلت :

ـ هذه العفونة . . .

كان الوقت عصر . قال عمي :

ـ عما قريب سنعود الى البيت .

تماسكت ، فلم يعد أمامي غير السكوت والانتظار حتى بدأ المغرب في الاقتراب ، فأغلق عمي دكانه ، وسرت اتبعه والخفير وراءنا ، وما أن رآنا الدكتور وهو مشمر عن يديه وبيده مشرط يغوص به تشريحا في احدى الجثتين ، حتى حاول أن يدفعني ـ تحببا ـ قرب الجثة ، فصرخت وعدوت ، فضحك .

كان « التمرجي » يساعد الطبيب في تقليب الجسد ، ويضع دقيقا أصفر فوق كل موضع شرطه الطبيب منذ حين .

الناس من بعيد يتفرجون ، فليس عندهم من شيء يفعلونه غير الحملقة الذاهلة . الساعات ثقيلة على قلبي ، والغثيان مثل كتل الصوف الأسود يملأ جوفي وحلقي وفمي ، ورأسي لم استطع أن أقعده

على كتفي . وضربتني الحمى .

* * *

قال « علي بن محمد ابو علي » :

ـ أعطاه الله ما يعوضه عن البصر .

اهتزت الرؤوس مؤمنة على كلامه ، فهو يقرأ الجريدة ، ويسمع الأخبار ، ويجالس ابن العمدة ، فمثله يعرف أكثر مما يعرفون .

واستمر « علي » يروي ما يعرف .

ـ وضعت امرأته صحيفة تحت الفراش ونسيتها وجاء وقت الرقاد ، وذهب « طه حسين » الى فراشه ، وما أن صعد اليه وتمدد فوقه حتى قال لامرأته :

ـ إما ان الفراش ارتفع أو أن السقف قد هبط ؟

وعجبت زوجته من الكلام ، ولكنها ما أن رفعت الفراش حتى وجدت الصحيفة التي نسيتها .

ويصدر عن الجالسين أمام « علي بن محمد ابوعلي» مصمصات اعجاب ، وكلمات « شوف . عطية ربنا . . يا سلام » ويلتفتون اليّ فلا أقول كلمة . فلا شك أن اعجابي « بطه حسين » في ذلك الوقت يجعلني أغفر للناس هذه الأشياء ، فقد أصدقها مثلهم ، وربما اعتبرته نوعا من الحدس الذي لا أنكره . فأنا لم أنكر الحدس بالنسبة

للمبصر ، فما بالك بالأعمى وحدسه أقوى وينمو مع الأيام ليعوضه عاهته ، ولكن زوجته تلك السيدة الفرنسية لا تعوزها الذاكرة حتى تنسى صحيفة تحت الفراش كما أن تربيتها لا تسمح لها بأن تضع صحيفة تحت الفراش ، فالنظام عندها هام ، ومكان القراءة ليس السرير حتى ولو كان القارىء « طه حسين » ولكن ماذا سيروي « علي » ان لم تكن مثل هذه الأشياء الصغيرة هي ما يروي ، والتي لا شك أن وفديا متحمسا قد اخترعها لينشرها وسط الناس البسطاء ، والذين يكونون محيط الوفد ينتظرون منه المعجزات ، فحياتهم قد خلت من كل وميض ، حتى وزير التعليم جاءهم أعمى ، فكان عليهم أن يجعلوا من اتوا به أشد ابصارا من المبصر ، وليس من شيء أشد فعلا من هذه الأكاذيب الصغيرة ، التي توافق عقول الناس وتشبع عندهم الخيال والانتظار وتوقع المعجزة .

ولكم ثار جدل أمامي حول درجة الدكتوراه التي يحملها « طه حسين » اهي في الطب أم في أي شيء ؟ وماذا تعني . انهم يسمعون لأول مرة بأعمى يحمل مثل هذه الدرجة . لم يكن يعنيهم من الدرجة الا مقارنتها بلقب « حكيم المركز » ، فهم ينادونه بهذا اللقب ، وان كانوا فيما بينهم يطلقون عليه لقب « حكيم » . لقد كنت أعيش في المنطقة التي خرج منها « طه حسين » ، ولم أسمع فردا عاديا يذكره ، ولم يطرق اذني أسمه يتردد على لسان رجل من الطبقة الوسطى ، كل من يذكرونه هم خريجو الجامعة . أو قراء الرسالة . أو من تابعوا ما أثاره كتابه « في الشعر الجاهلي » من صخب ، فانهم وقتها رموه بالالحاد وحاول نفر من الأزهر تجريده من العالمية ودرجاته

الجامعية . ومرت الأيام بعد ذلك الصخب ، ونسى الناس « طه حسين » ، ونسوا إلحاده ، ولم يعودوا يذكرونه حتى طلع عليهم « وزيرا » .

* * *

المصري لا يذكر العاهة أمام صاحبها . ونادرا ما يذكرها في غياب صاحبها . اما اذا عير بها صاحبها فمعنى ذلك أن أمراً ادّا قد وقع .

وقف « طه حسين » خطيبا في الطلبة ، ولكنهم لم تعجبهم خطبته ، فصاحوا في صوت واحد :

- انزل يا اعمى .

وقالوا بأنه اجابهم :

- الحمد لله الذي خلقني أعمى حتى لا أرى وجوهكم الكالحة .

لا أذكر السبب الذي من أجله خطب « طه » ، ولم يعد في ذاكرتي الدافع الذي جعل الطلبة يتجمهرون في حرم الجامعة ، فكثيراً ما كان الطلبة يتجمعون من أجل شيء تافه ، وكثيرا ما كانوا يتجمعون حول فكرة حزب أو تحريض مجموعة . . تلك الأشياء لم يبق منها في نفسي ما أحرص على تذكره . ترى أيرجع ذلك الى انـي منطوٍ لاحساسي بغربتي ، أم أن ادراكي لما يدفع الطلبة الى مثل هذه الأمور هو ما أبعدني عنهم ؟

ما أن وصلت يوما حوش المدرسة الثانوية في المنيا ، حتى تجمعنا والطلبة يستعدون للخروج ، وسألت عن السبب ، فقالوا : اضراب . وسألت عن المناسبة ، قالوا : المدرسة كسبت الدرع في كرة القدم ، شملني العجب وسكت متخذاً جانبا اتفرج ، وما هي الا دقائق حتى جاء « الزعيم » يحمل الدرع وحوله التلاميذ يهتفون : « يا محني ديل العصفورة ، المنيا هي المنصورة » وتبعت جموع التلاميذ ، ومثلهم أخذت طريقي عائدا الى المؤخرة ملتفتا الى المدرسة وقد اقفرت ، فلم يجرؤ تلميذ على البقاء بها .

لم تمض أسابيع على « مظاهرة الكرة » حتى كان التجمع من أجل مظاهرة جديدة ، كانت مظاهرة سياسية لا اتذكر مناسبتها ، وخرجنا نهتف : عبد الهادي كلب الوادي ، قال التلميذ السائر بجانبي :

ـ حاول الناظر منعنا من الخروج .

ـ لم أجب ولم أسأل فقال :

ـ ولكنه عاد وسمح لنا ، بعد أن أعطيناه وعدا بأن تكون مظاهرة سلمية . لم أفه بكلمة ، رغم أن الإرتياح قد شملني ، ذلك أني لمحت قوة قمع المظاهرات في طريقي وانا قادم للمدرسة ، قال من بجواري :

ـ ان الناظر اتصل بمدير المديرية فأعطاه وعدا بأن لا يعترضنا احد . ما هي الا لحظات حتى كانت جموع الطلبة تجري عائدة في ذعر ، وكان الزعيم أول من جرى ، وتمالكت نفسي واقفا .

كادت جموعهم تدفعني تحت الأقدام ، كنت أسـير في مؤخـرة جموعهم غير هاتف ، فوجدت آخر من يجري عائدا وعصا الشرطـي تقرع الأرض بجانبي ، ومرة نزلت على ظهري . ووصلت لاهثا الى باب المدرسة . قدماي يهتزان أعياء ، وجسدي يسح عرقا ، والغيظ يكاد يقتلني ، ولومي لنفسي يزيدني تهالكا ، وولجت باب المدرسـة وسط الوجوه المصفـرة المبهوتـة . كنـت كمـن يدخلونـه قبـرا . كان الاحتدام يقلى التلاميذ ، الكلمات متناثرة . العيون مفتوحة . ذبول الأجساد تحول الى اتقاد . كلمة هامسة مست طبلـة أذنـي ، دقائـق وسمعتها عالية ، دقائق وأصبحـت تحريضـا ، ثوان وكانـت نداء ، ثوان وكانت هي حافز الحياة والوجود ، كانت قوة قمع المظاهرة تحيط بالمدرسة ، فتحولت جموعهم الى كلمة واحدة :

ـ حرق المدرسة .

أخذت ركنا قصيا ، فلم أترك وحدي ، ودفعنـي تلميذان الى داخل مبنى المدرسة ، احدهم يقول :

ـ تحرك .

ويرد الثاني :

ـ الى معمل الكيمياء .

ومعهم كنت ادور بلا أهداف ، وما أن وصلنا الى باب المعمل حتى وجدناه مغلقا ، فحاولا كسره فلم يفلحا . دخلا فصـلا خاليا وحملا قمطرا ، والقياه من النافـذة ، ثم تنـاول كل منهما قطعـة من الخشب وانهالا تكسيرا لزجاج النوافذ ، والسؤال الذي يتردد :

ـ كيف يخدعنا الناظر ؟ !

كنت كالمحمول الى حتفه . أتحرك من مكان الى مكان ، أقف بين الحين استمع لما يدور ، ثم ادور فلا اسمع غير الهمهمات . لم أكن مثلهم ، فقد جلست داخل ذاتي منذ زمن ، وهآنذا الآن مثلهم شبه محبوس في مدرسة . بدأ الهدوء يشمل المدرسة رويدا رويدا ، فقد جاءهم الفرج بأن الخروج سيكون مسموحا به ، ولكن كل فرد وحده ، لا يسير اثنان رفقة بعضهم البعض ، وبدأنا نخرج ، كل منا وقد نكس رأسه ، وهدأت نفسه ، وأغلقت المدرسة مدة أسبوعين . ولن يدخلها تلميذ إلا بعد أن يأتي بولي أمره ويدفع ما قدرته ادارة المدرسة كتعويض عما خرب منها .

ومضى عام وكان صباح :

ـ تعظيم سلام .

ولم يرفع أي منا يده .

ـ الى اليمين والى اليسار در .

لم يتحرك فرد

وعرف الناظر « محمود محمود » أن التلاميذ محتجون ، وقد يتحول احتجاجهم الى مظاهرة ، لقد بلغه أن التلاميذ علموا بما كتبه عنهم في مجلة الثقافة ، فقال موضحا :

ـ ما كتبته لا يمسكم ، وليس تجريحا لكم ، ولكنها خواطر أدبية ، يمكنكم أن تدركوا معناها من عنوانها وهو : « يوميات ناظر مدرسة » .

لم يعجب كلامه التلاميذ ، فهمهموا وصاحوا :

ـ نريد اعتذارا .

قال :

ـ ما قلته هو ما أعنيه ، ولا يهمني أفهمتم أو لم تفهموا .

والتفت الناظر غاضبا ، ودخل متجها الى مكتبه .

ازداد هياج التلاميذ ، وعادت صيحاتهم ، ولكنهم لم يتحركوا من مكانهم ، فتقدم « البدري افندي » مدرس اللغة العربية ، بصوته العريض وقال :

ـ ما قاله حضرة الناظر يعتبر بمثابة اعتذار لكم .

فرح التلاميذ مرددين « هيه » ودخلوا فصولهم .

وبحثت عمن اكتشف هذا المقال في المدرسة إلى أن عثرت عليه ، وألقيت نظرة على المجلة . مجموعة من الأوراق بسيطة ، بلا زخرفة ، كتب على غلافها « الثقافة » ، ذهبت الى موزع الصحف في بلدتنا أرجو الحصول على نسخة ، وخاب أملي اذ قال ، كل ما يأتينا هو خمس نسخ من الثقافة والرسالة ، وغالبا « ما يكون مرتجعات » .

منذ ذلك التاريخ بدأت معرفتي بالثقافة والرسالة ، وكان لذلك التلميذ ، وما أحدثه من شوشرة فضل كبير علي . أحسست بالفخر بالناظر « محمود محمود » وتابعت مقالاته فهي قليلة ، ثم عرفت أن نشاطه كان منصبا على الترجمة . وعرفت غيره : زكي نجيب محمود ، محمد مندور ، أحمد أمين ، أحمد حسن الزيات ، عبد الوهاب عزام ، أنور المعداوي ، لم أترك أحدا لم أقرأ له .

أخذتني حمى القراءة . وكان بائع الصحف اذا أتى امام منزلنا لا يتحرك قبل أن اشترى من جميع ما يحمل . تفتحت الآفاق ، الوجدان ينتفض لكل كلمة جميلة ، لكل معنى أحسه وأدركه . جوانب الانسان عريضة واسعة . الحياة فيها غير هذه الوجوه الساكنة حولي ما يبهر ويتحرك . المعارك السياسية تدور طاحنة . صفحة « المصري » الأخيرة . جريدة « أنصار السلام » . « الجمهور المصري » . « الجماهير » . « الاشتراكي » .

اندفعت خطوة أخرى ، أحسست بالتردد في أول الأمر ولكني تجرأت واشتريت « الكاتب المصري » ، و « الكتاب و « الهلال » ، و « إقرأ . . » . . .

ها . . . خطوات . . . اشتريت أول كتاب . عرفت المازني والعقاد ، وطه حسين ، وأحمد أمين . وبدأت أرصد التيارات الثقافية . وما يدور في الأجواء . كانت مصر حبلى .

* * *

ذكر « طه حسين » عاهته ، ذكرها في مقدمة الأيام ، أهداه لابنته ، عندما تذكر بكاءها بعد ما سمعته يحكي لها قصة « أوديب » ، ذاهبا فاقد البصر ، ليرتاح ضميره ويطهر ، وتعفو عنه الأقدار ، بعد ما امتحنته . وذكرها في « ذكرى أبي العلاء » ، فهو مثله رهينها ، وان اكتفى هو بمحبس واحد . ترى ألم تؤثر هذه العاهة على قدرة « طه حسين » الابداعية ، ومشاركاته الاجتماعية . ألم تكن عائقا في طريق الرؤية الفكرية ، بعد ما كانت عائقا في سبيل الرؤية

الحسية ، فهو مبصر بغيره كما يقول ؟

لا شك أن بصيرته قد ابتعدت عن منبعه ، عن الفلاح ، عن حقيقة مصر ، وذهب يلتمس لها المخرج الثقافي في « اللاتينية » و« الاغريقية القديمة » ، وإن كان قد عاد الى « المعذبين في الأرض » ، إلا أنها عودة التطهير للنفس ، حتى ينتمي مرتاحا الى الطبقة الجديدة .

* * *

يحمل الصعيدي الثأر في صدره دون أن يسأل احداً عن سببه . فهو إما مطلوب لثأر أو طالب له . الأمر سيان ، وهما متداخلان ، فكل فرد منهم طالب ومطلوب ، ومن علامات الرجولة أن يحتملهما ، فلا ترى على وجهه علامات التبرم بهما . يستوي في ذلك المتعلم والجاهل ، القادر والعاجز ، الكبير والصغير ، هي حياتهم تتآكل كقطع الصخور ، فلا تتناثر الى شظايا . ولكنها مسحوقة الى ذرات في وجدان لا يدرك عمق المأساة .

لا يدرك « الفرد » ما يربطه بعائلته من عوامل اجتماعية . ولا يستند في سلوكه على الوشائج الموروثة . إلا أنه يدرك أن وجوده يعتمد على العلاقات الثأرية . ويستند فيما يصدر عنه من فعل على فعاليتها النفسية ، وقدرتها الاجتماعية على بناء شخصيته .

لا يمتلك هذا « الفرد الصعيدي » شخصية دموية عدوانية ، بل أنه على العكس من ذلك يتسم بملامح هادئة ودودة غير انفعالية ، خيرة في حدود المتوارث من عادات ، قريب الى النفس . لا يمنع عنك ما يستطيع أن يقدمه اليك فهو بسيط شهم في غير ادعاء .

ما أن تحل لحظة الثأر حتى تحس وكأن جبروتا اسطوريا قد تملكه ، فيندفع ليسلب غريمه الحياة . ليستريح بعد ذلك ، مثل الذي شرب كوبا من الماء الرائق البارد في يوم قائظ بعد عطش قاتل .

لم يكن ما فعله هو نتيجة عطش الى الدماء ، بل كان بحثا عن ارتواء معنوي ، لا تعطيه حياته الشاظفة غيره من مثل ، وليس من أفق أو طريق الا ابتغاء الموت ثأرا .

***

قال من هو في « مرتبة عمي » :

ـ أخذت طريقي حذراً . كان الوقت مغربا . تركت الحافلة ورائي ، وتحركت لتأخذ طريقها ، وتعرج بي الطريق . القرية تبدو في الأفق كابية البيوت . سرت مسافة ليست بالقصيرة . لم أنتبه كيف نبت أمامي رجل ، وطلب مني أن اشعل له سيجارة ، وسألني عمن أريد ، وعندما ذكرت له اسم الرجل الذي أقصده اشار الى القرية وحدد لي موقع البيت منها . لم تنفرج ملاحه . لم يزد كلمة . سايرني قليلا ثم القى السلام ، وافترق عني .

كنت أنصت وقد سيطر علي جو قابض . خفت على من هو في « مرتبة عمي » . رغم أنه جالس أمامي ، وكأنما أحس الرجل بما في نفسي ، فأراد أن يهون علي ، قال :

ـ لا تخف . « الصعايدة » لا يقتلون الغريب ، انهم طيبون كرماء . لعل الرجل كان ينتظر احداً يطلبه لثأر بين عائلتيهما .

سألت ، وكنت اتكشف الدنيا حولي من الكلمات :

ـ هل يقتلك لو كنت أنت من يطلبه ؟.

قال :

ـ وهل كان سيلعب معي . . طبعا سيقتلني . إنهم لا يعرفون اللعب.ليس مهما أن يكون من يطلبه هو الشخص عينه ، بل يكفي أن يكون من العائلة التي يطلب منها الثار . لقد ذكرت له اسمي ولقبي وبلدتي ، بل وأوضحت له اني ليبي ، وأن ما يربطني بمن أقصدهم هو رباط نسب لا أكثر وبحثت في جيبي عن ورقة ادلل بها على نفسي ، ولكنه يبدو أنه تبين لهجتي ، وأن ما أقصدهم ليسوا من يريدهم . . كم من فجائع حدثت ، وثارات نشأت نتيجة خطأ ارتكبه مترصد أرعن ، فلم يتأكد من اختيار ضحيته . . لم أخف من شيء ، ولكن خفت من الخطأ ، فما أن يهبط الليل ، بل ما أن تغيب الشمس ، حتى تسيطر قوانين جديدة ، هي قوانين الثأر . فالثأر يطلبه الرجل ، ويترقبه الطفل ، وتقتل المرأة نفسها حزنا اذا لم تجد رجلا يأخذ لها الثأر ، أو ابنا تنتظره حتى يكبر ليؤدي هذا العمل الذي بغيره لا تكون حياة . . . نكست رأسي . خفت أن يبدو في عيني رعب . كنت اتساءل في نفسي « حياة في الموت » . وانتقلت الكلمات الى شفتي من هو « في مرتبة عمي » .

فسمعته يقول :

ـ نعم . . . حياة في الموت . يكون الفرد منهم بعيدا عن بلده ، يسعى في رزقه ، حتى يأتيه رسول أو رسالة ، يبلغه أو تبلغه بواجبه ، وواجبه أن يرجع الى بلده ، فالدور دوره ليأخذ بالثأر ، ولا يملك الا الطاعة . فهو قرار لا يقبل نقضا . وقد يكون الفرد منهم

بعيدا غافلا ، فتأتيه رصاصة ، أو يلقى على الأرض ويذبح ذبح الشاة . . فقد أتى دوره ، فهو المطلوب ولا يعلم ، ومن اين له أن يعلم بما يقدره افراد عائلة تطلب عائلته في ثأر .

ابتسم من هو في « مرتبة عمي » ساخرا وقال :

ـ الطربوش يقابله طربوش . واللبدة تقابلها لبدة . . التعادل في الثأر قانون ، فحفظ المقامات في الثأر ضروري . ودلالة اللباس هنا دلالة على مركز الشخص في العائلة . . قد تشتط عائلة فتأخذ مقابل فلاح بسيط رقبة طربوش ، فترد العائلة المقابلة بأن تأخذ رأسا أكبر ، ويشتد الشطط ، وتتدحرج الرؤوس الكبيرة ، وتقع المعارك ويطيش الرصاص ، وتتدخل قوى الأمن ، ويحبس الكثيرون ويحقق ويسأل ، ولكن لا يقول احد شيئا ، ولا يدل فرد على قاتل . . .

بقيت هذه الكلمات في نفسي رغم السنين ، وكم من مرة تساءلت وسألت غيري عن هذه المآسي الأسطورية التي تشبه مآسي كتاب الأغريق القدماء ، بل تزيد عنها فظاعة ، فعند الاغريق ارتبطت الدماء بأساطيرهم التي كانوا فيها يعتقدون ، أما عند هؤلاء . . فبأي شيء ارتبطت ؟

أحاول أن أبحث ، وكم تمنيت لو قرأت عملا يتناول جوانب النفس الصعيدية ، ويقدم لنا منطلقاتها الثأرية ،ليجعلنا نناقش ونقلق ونبحث . . أبدا لم يكتب اديب مصري شيئا جديرا بالقراء والتأمل ، اللهم الا مسلسلات اذاعية ، وأشرطة خالية من الفن ، وتقليد سمج لرعاة البقر ، لتستغل مشاعر المستمع أو المشاهد ، ثم لا تقدم له معنى

ولا تفتح له أفقا ، ولا تحرضه ليستكشف ويعي .

من كان سيفعل ذلك ؟ « طه حسين » ؟! عنده عذره .

المازني ؟ ابن القاهرة ومشارفها ، لا يستطيع أن يتجاوزها . العقاد ؟ ابن اسوان ، وحولها وقريبا منها تدور رحى الثأر ، ولكنه كان أسوانيا بالتواجد وليس بالانتماء ، كما كان مصريا بالتواجد ، فلم يعرف من مصر غير طبقة عاشرها في القاهرة .

نجيب محفوظ ؟ ابن العباسية وبين القصرين . . فعالمه القاهرة والطبقة المتوسطة . .

وجودة السحار مثله . .

باكثير ؟ ابن حضر موت ، وساكن القاهرة فمن أدراه بالفلاح والصعيدي ؟

توفيق الحكيم ؟ بارك الله فيه .

كتب من وحي الثأر مسرحية من فصل واحد هي : أغنية الموت . وقبلها كان يتلمس هذه المناحي في يوميات نائب في الأرياف .

وكان على الجيل الذي خلفهم أن يسير خطوات .

هيه . . هيـ . . . . ـه .

* * *

تحشم ـ حشم ـ شم ـ حدتو ـ ت ث ـ حروف مجموعة تشبه حروف الأحجبة كنت أسمعها تتناثر بجانب أذني ، لم أسأل عن معناها خوفا من الظهور بمظهر الجاهل أمام طلبة الجامعة الواعين .

كنت بينهم مثل « الصعيدي » الذي ضحك عليه نصاب وأخذ محفظته . فالاعتداد بالنفس يدفعه الى عدم البوح ، وجزعه على نقوده يدفعه الى السؤال ، والالحاح والمتابعة . كانوا يدعون أمامي . وكنت أرى في عيونهم ذلك الاعتداد الذي يدل على أنهم يملكون ما لا يملكه الغير . . قال لي « وليم » يوما :

ـ ألم تقرأ الفلسفة الميتافيزيقية ؟ .

قلت :

ـ ميتا ايه ؟

قال :

ـ الميتافيزيقية . يعني الفلسفة اليونانية القديمة ـ لكي تستطيع أن تفهم الماركسية وتعيها لا بد من أن تعرف الفلسفة المثالية .

وكمن أمسك بعصا ونزل بها على رأسي ، كذلك فعل « وليم » بدماغي . . . احسست أنني ما زلت صغيرا على أشياء كثيرة . . ورغم أنني طالب جامعي كما يقولون وفتحت أمامي مجالات المعرفة كلها ، وحق لي أن أذهب لحضور محاضرة دون أن أحمل كتبا أو كراريس معي ، ولا أقف في طابور ، ولا اسمع مدرسا يوبخني من أجل نسيان كلمة أو قطعة محفوظات ، استيقظ متى أريد ، وأذهب الى الجامعة في أي وقت ، وأخرج متى خطر لي . جعلتني كلمات « وليم » أسأل :

ـ ما هي الماركسية ؟

ـ وأجابني « وليم » وقد اتخذ سمت الأستاذ المتواضع :

ـ هي المادية الجدلية .

اهتززت للكلمة . احسست بالاستكانة . اكتفيت بما أعرف من كتب الجغرافيا والتاريخ . فما قاله « وليم » لم يخلق لأمثالي . فهو ولا شك أعلم مني . وزاد الأمر بالنسبة لي غموضا ما قاله :

ـ ليس من السهل الحصول على كتبها . . ثم لا بد لك من أن تقرأ في الاقتصاد . أنت في حاجة الى قراءة سنوات لتفهم كتاب « رأس المال لكارل ماركس » . . وهو لا يوجد في السوق ، ترجمة راشد البراوي ترجمة لا بأس بها ، ولكنه لم يتمه . ترجم الجزء الأول فقط . نفد من السوق . وكذلك ترجم « الاقتصاد السياسي » « لليونيتيف » . إنه كتاب مبسط يمكنك أن تستفيد منه ، ولكن لا توجد نسخة منه . عندي نسخة ولكني اعرتها لرفيق .

وما أن رأى في عيني تطلعا حتى قال :

ـ سأعيرك اياها ، ولكن حاذر فهي من الممنوعات .

كدت أن أقول له :

ـ لا . . لا أريدها . . ما حاجتي بشيء ممنوع ؟ . . كنت قبل ذلك اسمع عن المطبوعات التي « يتداولها الشيوعيون عادة » . . هكذا كان يطلق عليها في منطوق الأحكام التي كانت تصدر ضدهم . ولكن ألست طالبا جامعيا ؟؟ . . أليس من حقي المعرفة . . ألم يقولوا بأن هذا المذهب يدرسونه في كلية الاقتصاد ضمن « التاريخ الاقتصادي » . اذن . . . فهو شيء موجود . ولكن ما هذه الهالة التي تعطى له . ولماذا يتحدث عنه « وليم » كما يتحدث الساحر عن سحره ؟

كنت متوحدا دائما . فالكلمات قليلة التي اسمعها . تجمعات الطلبة اشعر بأنها لم توجد لمثلي . هذا عالمهم ، وليس عالمي ، هي دنياهم ، أما دنياي فليست هنا .

قال احد الطلبة ، وكان قد رآني واقفا اتحدث الى « وليم » :
ـ خذ حذرك ، إنه من حدتو .

وما أن رأى علامات العجب على وجهي ، حتى قال :
ـ انه تنظيم بوليسي .

رأيت السخرية على وجه الطالب وهو يردد :

ـ أجذب بالجنس وأربط بالنظرية . . قد يغرونك فهذه طريقتهم ، ولكن سريعا ما يعرف البوليس بيتك ، وستبيت بين وقت وآخر في أقسام البوليس ، كلما كان هناك ما يستدعي من أمر ، كزيارة أمريكي ، أو مشروع معاهدة ، جمعوهم في ساعات حتى يتم الأمر ثم يطلقونهم ، التنظيم أساسه بوليسي . . انشأه ـ هنري كورييل ـ بالاتفاق مع المخابرات البريطانية ، يريدون به امتصاص غضب الشباب . . .

* * *

سألت الطالب :
ـ ما معنى حدتو ؟
صدم من سؤالي وبانت خيبة الأمل على وجهه ، فقال :
ـ الا تعرف معناها ؟ . . معناها الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني .

وغادرني وبه احساس بأن مثلي كان لا يستحق أن يخبره بشيء .

أردت أن أسأله عن معنى رموز أخرى سمعتها ، ولكني خجلت من جهلي ، وبمرور الأيام توطدت معرفتي « بوليم » ، ووجدت عندي من الشجاعة ما يمكنني من سؤاله :

ـ ما معنى حشم ؟

اجابني :

ـ « الحزب الشيوعي المصري » هو تنظيم حديدي . منغلق وليس له تأثير جماهيري ، لا يعرف احد أعضائه ، لا يتصلون بالجماهير . مجموعة من المثقفين . . .

وقاطعته سائلا :

ـ ودال شين ؟

أجاب :

ـ الديمقراطية الشعبية .

أناس يفسرون الماركسية على مزاجهم . . عددهم قليل .

سألت مسرعا خوفا من استرساله :

ـ وت ث ؟

بان الامتعاض على وجه « وليم » وهو يقول :

ـ مجموعة شباب اعتقدوا انهم من الوعي لكي يكونوا تنظيما بمفردهم . يدعون انهم انشقوا عن « حدتو » ويتهمون « حدتو » باتهامات كثيرة ، يقولون بأنها تنظيم بوليسي ، وعندما نناقشهم في ذلك . . .

هه . ارتج عليه ، فطن انه كشف عن نفسه ، ولكنه تابع

قائلا :

- ولماذا اخفي عليك ؟ أنا من « حدتو » أنت عاطف الآن ولا يخشى منك . . . عندما نناقشهم في هذه النقطة ولا يجدون الدليل عليها . يقولون بأن تنظيمنا طلابي ، وليس له صلة بالعمال . ولكن عناصرنا في التجمعات العمالية كثيرة . واذا عرفوا ذلك وأدركوه عادوا يتهموننا بأشياء يروجها عنا الآخرون . . ألم تسمع عن شيء منها ؟

اجبت مدعيا المعرفة :

- سمعت . . سمعت .

- قال :

- هل هذا كلام . أتصدق مثله ؟ إنها عقليات المثقفين المعزولين .

إن مجموعتهم قارئة . تقرأ كثيرا ، وإدراكهم واسع ، ولكن القراءة ليست كل شيء .

توقف « وليم » فجأة ، وسألني بغتة :

- هل جندوك ؟

أجبت بالنفي ، فعادل يتساءل محاورا :

- في أي تنظيم أنت ؟

اجبت وقد احسست بأهميتي :

- لست منظما ، انني اهيىء نفسي للكتابة .

سأل :

- تكتب الشعر ؟

قلت :

ـ لا . . لم أكتب شيئا بعد .

علق كأستاذ :

ـ المرحلة الرومانسية لا بد من المرور فيها . . كل واحد منا بدأ رومانسيا ، ولكنك ستعود الى الواقع . قد تأخذ طريقا انحلاليا ، وقد تصبح فوضويا . الالتزام امر ضروري .

ولما لم يجد استجابة مني قال :

ـ انت تتخابث علي .

وهز « وليم » كتفيه وتركني .

* * *

كانت جامعة « فؤاد الأول » سنة ١٩٥١م مملوءة بالتحركات والتيارات والتجمعات . كنت لا أعي ما يدور حولي . ما زلت مثل ذلك الفلاح الساذج يحاول أن يعرف . ولم تأخذني اندفاعة ولم يسيطر علي انغلاق . كنت أريد أن أجعل نفسي مفتوحة لكل مجالات المعرفة . لم أرد أن يمسكني احد من يدي ويدخلني في مكان ثم يغلق علي . ويبقى بعد ذلك هو المسيطر علي . وجدت من الشجاعة أن أكون متفردا . لم أحس بأني في حاجة الى حماية ، أومعونة ، لم يمثل لي مقصف كلية الآداب ساحة نضال ، كان المقصف مشهورا في كل الجامعة ، يترك كل طالب مقصف كليته ويأتي اليه ، فالبنات كثيرات فيه . يعتقد في نفسه انه فتى الأحلام لكل فتاة . التجمعات مختلطة ، ثم الخلوات في كل مكان . الجلسات تحت الأشجار ، التمشي عبر الممرات . الزميلة والزميل . قطع من الألوان . الكلمات والضحكات . الألفاظ المختارة . أحيانا والشعر . الألفاظ السوقية

والقهقهات في أغلب الأحيان والصياح . العراك قد ينشب . ساعة الجامعة تدق . أصوات الحافلات والسيّارات تملأ شارع الجيزة . مكتبة الجامعة يدخلون ويخرجون منها . الحرم الجامعي . الحرس الجامعي . . الأستاذ الجامعي . يدورون ويعتقدون انهم جلسوا فوق رؤوس الناس . الكتب المجلدة والتظاهر بها . البدلة الوحيدة وياقة القميص المحددة . المرأة لم تعد حرمة . اسم الفتاة يذكر الى جانب اسم الفتى . السؤال في كل شيء . عن أي شيء تسأل . الكلام عن الأحزاب ، عن التجمعات . عن الخطب . عن المفكرين . تأييد أو إتهام ، إعتزاز ، حركة .

* * *

قال « علي بن محمد أبو علي » :

- يقتل الواحد منهم غريمه ويلقيه في الترعة . البني آدم يغطس ، ولا يرتفع إلا بعد ما ينتفخ . والترعة الابراهيمية تحمل ، وتأتي بالجثث الى هنا . . . وسألت :

- الا تمر على بوابات قبل هذه البوابة .

اجاب :

- كل ريس يفتح البوابة الا هنا ، فإنه يغلقها من أجل الجثث . . .

استغربت ما قال ، فأتم :

- دكتور الصحة أوصى الريس ، لأنه يأخذ على تشريح كل جثة جنيها .

انتفضت في داخلي ، الدكتور صاحب البدلة البيضاء

الحريرية ، والوجه المحمر حيوية ، واليدين الناعمتين . يغوص في العفونة والأجساد الغريقة المنتفخة من اجل جنيه واحد ؟!

* * *

لا يقترب الفرد من ذكرياته الا مضطرا ، فالنسيان أولى بكل ما مضى ، والزمن كفيل بأن يمحو كل ما كتب على صفحة النفس . ولا يستمع اليك من أردت ان تروي له شيئا مما حدث لك إلا كارها ، ثم معقبا مبديا ضيقه ، ثم ساخطا فحانقا ، فأنت قد خدشت جروحا قديمة التأمت ، وقروحا لم تعد العين تراها ، فهي تحت الجلد غائرة . . وجرح الجسد لا يؤلم اذا التأم ، حتى وان انطبق على ذرات من قذارة ، فحركة الدم وما فيه من كريات بيضاء كفيلة به ، تلتهمها متوازنة معها ، متكسرة مدمرة لها ، فتأخذها لتفرزها بكيفية جديدة .

وهذا لا يحدث في النفس ، فالجروح باقية وان التأمت ، آلامها تغور ثم تصعد ، لا تريح صاحبها ، ولا تتركه يأخذ مساره مطمئنا ، فقدرة النسيان محدودة ، والزمن لا يمحو الا خطوط السطح ، أما ما غار بعيدا ، فلا يملك الزمن له مبضعا . . . واذا تكونت في النفس القروح فلا الزمن ، ولا المبضع بقادرين على الفعل ، فالقروح اقوى فعلا ، وحاجة صاحبها الى شيء آخر غيرالزمن والمبضع أشد قوة . . . حاجته الى من يفهمه فيكشف قروحه للشمس ، ويخرج ما التأمت عليه من صديد ، ويطهر القرح غير عابىء بصرخات صاحبها أو تشنجاته ، فبدونها لن يتم له الشفاء ، ولكن ما أن يهدأ وقد زايله الألم ، حتى يشعر بالراحة ، وتأتيه النسمات فتدخل قلبه ، وينطلق وجهه الكشر ، وجبهته المقرونة ، وتشمله بهجة يعي اثناءها

الكلمات ، ويدرك معانيها ، ويستطيع أن يفرق بين رائحة القروح التي كانت تملأ نفسه ، وبين الرائحة الطيبة التي تعطيها الكلمات الهادئة منطلقة في الشمس ، ودونما توجس وارتياب .

من استطاع أن يفعل ذلك لصاحب القروح ، فهو ولا شك صاحب كلمة ، أما صاحب القروح فهو صاحب أزمة ، وصاحب الكلمة لا يعرف الا البوح والصدق والعمل الواضح من أجل وطنه ، أما صاحب الأزمة فلا يستطيع أن يفعل شيئا ، فرائحة القروح تصيبه بالدوار والهذيان . .

ترى هل في استطاعة صاحب الكلمة شفاء صاحب الأزمة ؟ . . . .

* * *

سألني الأستاذ الممتحن :

ـ وماذا حدث في بلدك أثناء الثورة ؟

كنت قد اتممت قراء صفحة من كتاب ـ ثورة **١٩١٩** ـ لعبد الرحمن الرافعي . وكان الكتاب قد حدد لنا للامتحان الشفهي للمسابقة . وكانت المسابقة لطلبة التوجيهية للحصول على المجانية في الجامعة . أجبت والحيرة تتملكني :

ـ لم أعاصر الثورة .

ضحك الأستاذ ، والتفت الى زميله وهو يقول :

أعرف . . . والا كنت في مثل عمري ، ولكن الم تسمع من أحد ، ألم يخبرك أحد . . والدك مثلا . . . احد أقربائك .

اسقط في يدي ، فلم أعرف ماذا أقول ، فاستمر الأستاذ محدثا على مهل :

ـ ألم يحدثوك عن قطع أسلاك الهاتف ، أو قطع السكة الحديدية . . ألم تسمع روايات وأحاديث عن أفراد خربوا الطرق ؟

ولما لم يجد جوابا مني سأل :

ـ من أين أنت ؟

قلت :

ـ من المنيا .

قال :

ـ الم تعلن جمهورية في المنيا كجمهورية زفتي ؟ حدثنا عن جمهورية زفتي . لا شك أنك قرأت عنها في كتاب ـ الرافعي ـ هذا .

حاولت التحدث ، ولكني تلجلجت ، فليس في ذهني معلومة واحدة ، والأحداث يذكرها ـ الرافعي ـ وقد قرأتها أحداثا ميتة ، فهو لم يفعل اكثر من تسجيل أسماء من قبض عليهم وأودعواالسجن ، وذكر المحاضر التي سجلت التدمير والتخريب ، ويسرد الأحداث سردا محايدا غير منفعل أو مشارك ، كان الرافعي ذلك المؤرخ الذي يكتفي بحديث الوثائق او الصحف أو محاضر الشرطة أو أجزاء من خطب ، أو أسماء الموقوفين والموتى والجرحى ، ولا يدع لقلمه أن يكون مشاركا أو معقبا ، فهو يتناول التاريخ بروح المحقق أو المحامي . . لذلك لم يستطع أن يدخل الأحداث وجداني ، كما لم يقدر كتابه أن يعقب شيئا في نفسي ، بل إنني توقعت من الأستاذ أن يدين اختيار هذا الكتاب . . أو يتناول ـ الرافعي ـ بالنقد والاتهام ،

ولكنه لم يفعل واكتفى بأن صرفني ليدخل غيري .

* * *

الكآبة وحش مخيف ، كثيرا ما تمثلته رابضا في ركن غرفتي . لم تغادرني طيلة أيامي الدراسية هذه الصورة الرمزية لهذا الاحساس القابض . لم أكن متطيرا بطبعي ، ولكن الأحداث حولي تجعلني أبحث عن قوقعة ادخل نفسي فيها . كانت الأغنيات نواحا .

أبا الفاروق أدركها جراحا   أبتْ إلا على يدك التئاما
فأين الفوز لامصر استقرّت   على حال ولا السودان داما

وهكذا يختم عبد الوهاب غناءه لقصيدة شوقي مستنجدا بأبي الفاروق ، وهو الملك فؤاد ، بأن يدرك مصر ، ولا أعرف كيف كان الملك فؤاد الذي مات منذ زمن، سيقدر على تلبيةطلبه، ولكن ما الذي كان سيفعله المطرب ، والشاعر احمد شوقي لم يكن أمامه غير الملك فؤاد يناجيه ويستلهمه ويرجوه ويطلب منه . . ليس على « عبد الوهاب » من حرج اذا غناها ، فسيعرف الناس أن المقصود هو الملك فاروق . . وهل غير الفاروق موئل وركن يؤم ؟

من كان غير الفاروق يستطيع أن ينقذ مصر المثخنة ، وقد هزم جيشها في فلسطين ، وبقيت جماعات منه محاصرة في بعض المواقع حتى اخرجت بمحاولات صعبة ، وخرج مع من خرج « الضبع الأسود » وكان مقيما في « الفالوجة » ، فتنادت النوادي والأقلام من أجل اقامة حفل له ، واستطاعوا أن يقيموه في دار الأوبرا الملكية ـ وتليت العصماوات ، ولم يتوان العقاد عن تلاوة واحدته ، وكان صوته

الجهوري هو ما بقي في اذني ، أما ـ ذات العصمة ـ التي تلاها فلم أعد اذكر منها غير :

« أقام فيها الضبع الأسود » . الهم على قلبي كثيف ، والقطار يعود بي الى بلدتنا . الحزن يقطر من عيني . رائحة دخان القطار تدخل أنفي أحيانا ، وظلال الدخان تسقط على كتفي وصدري أكثر الأحيان . لم يجلس احد بجواري يحدثني . لم أسبح في تأملات . أحسست العقم . الوجوه خابية . بعض النفوس قلقة كنفسي . وقف القطار على محطة « بني سويف » فسمعت « عبد الوهاب » يغني :

فلسطين يحمي حماك الشباب
وجل الفدائي والمفتدى
فلسطين تحميك منا القلوب
فاما الحياة واما الردى

ووصلت الى بيتنا ، وطرقت الباب . كنت عائدا بلا شيء في يدي ، وليس من معنى في قلبي ، احساس بالفشل في الامتحان اخفيه عن غيري ، وأتصنع الابتسام ، وألوك كلمات حول الأسئلة وثورة ١٩١٩ ساخرا من الأستاذ ، ومحاولا تبرئة نفسي .

تذكرت الناظر « محمود محمود » وهو يودعنا في غرفته فخور بنا ، وكنا اثنين ، نجحنا في المسابقة التحريرية من مدرسته ، متمنيا لنا التوفيق في الشفهي . . لا شك انه سيهز رأسه اذا جاءت النتيجة تعلمه بسقوطي . عندما التقيت بمن نجح معي في التحريري عقب امتحان الشفهي قال :

ـ ألم تبحث عمن تكلمه في الوزارة ؟

قلت متسائلا :

ـ من أجل أي شيء ؟

قال :

ـ من أجل الشفهي .

استغربت ، وبان الاستفسار في عيني ، فقال :

ـ هناك عدد محدد يمنح المجانية في الجامعة ، وأنت تعلم أن هذه الأمور لا بد لها من اتصالات .

لم أعر ما قاله زميلي أهمية ، فلا تهمني أمور وزارة المعارف ، أما أمري فأنا أعلم به ، فلست راضيا عن نفسي وعن اجابتي ، فاذا جاء السقوط ، فأنا به جدير ، ولا داعي للتبرير .

لبست الجلباب وخرجت ، وكان الوقت مغربـاً ، مررت على دكان الزكايبي ، كان جالساً كليل العينين فلم يرنـي ، وألقيت عليه التحية فردها ساهماً . قلت :

ـ وعادت طائراتنا الى قواعدها سالمة يا زكايبي .

فعلق متبرماً :

ـ عادت وإلا معادتش هنعمل ايه ؟

كنت كلما مررت على الزكايبي منذ شهور ، وجدتـه وصدغـه ملتصقاً بجهاز الـراديو ، وفي عينيه ومضـات ، ويداه بهما قسـوة . والفرحة لا يخفيها . وها هو اليوم بلا فرحة ، ولا ومضة ولا ذكرى ،

حتى الحزن لا يبدو في صوته .

* * *

ـ النحاس حبيب الأمة .

ويرددون وراءه ما قال .

ويهتف غيره :

ـ يحيا النحاس باشا .

في كل مكان أسمع الهتافات تخرق أذني ، فحزب الوفد يستعد للحكم . أصحاب الطرابيش تلمع في عيونهم الرغبة . ولابسوا لبد يتبعونهم . ويهز « عصمت افندي » عصا الخيزران في يده ، ثم يضرب بها جلبابه قائلاً :

ـ مفيش غير الوفد .

ويقول « ثروت أفندي » مجادلاً :

ـ انتهى دوره . . . الآن دور الشباب الواعي .

ويحتد ـ عصمت أفندي ـ معلقاً :

ـ الوفد لا ينتهي دوره أبداً . الوفد حزب الأمة كلها . الوفد لا يخون مصر .

ويغمز ثروت « أفندي » خافت الصوت :

ـ ومعاهدة ٣٦ .

ويكاد « عصمت أفندي » ان يخطب وهو يقول :

- من أجل مصر عقدنا معاهدة ٣٦ ، ومن أجل مصر سيلغي الوفد المعاهدة ، الوفد نظيف . الزعيم لا يقول أحد فيه كلمة . النحاس ضمير مصر . النحاس خليفة سعد . هل صمد أحد ممن خرجوا عن الوفد . هل يستطيع احد أن ينكر دور النحاس . القصر يحقد على الزعيم . كل ما صنعه الزعيم كان من أجل مصر ، وكل ما صنعه فاروق خيانة لمصر .

لن يتركوا النحاس حتى يؤدي دوره ، ولكننا هذه المرة سنؤدي دورنا .

قال « ثروت أفندي » هادىء النبرات :

- الدور للوعي . لم تعد الهتافات تجدي . التحدي لا يكون للقصر . التحدي يجب أن يوجه لمن هم خلف القصر ، لمن هم على ضفة القناة ، انهم يفرحون بهتافاتك ، ولكن اذا رأوا حركتك وعملك لا يسكتون . . الوقت وقت عمل ، وقد يصحب العمل الهتافات . قل لي ماذا ستعملون - ستجدني معك . المرحلة تتطلب الوضوح . لا تكذب علي ولكن أصدقني حتى ولو صدمتني . الصدمة تصك الوجدان ، ولكنها توقظ الوعي .

لم تعجب الكلمات « عصمت أفندي » فنهض تاركاً المكان ، ونادى تابعه :

- يا واد يا عبد الحكيم فين الحمار ؟

أجاب تابعه مهرولاً :

ـ قدام دكان ـ « أبو نور » .

* * *

التأم الوادي على قرح . جاءوا بدهان للقرح ولكنه لم يشف . سرى القيح في الجسد . . الأعضاء ترفض ما يتشرب اليها . . النوم لا يفيد الجسد . لم يستطع إمتصاص الذرات المتعفنة . وقفوا أمام الرأس وصرخوا والجسد ممدد منهوك . عضلات الجسد لم يعتورها الخوار بعد ، فهي نشطة . والدماغ يرسل الكريات البيضاء تتجمع حول القرح . الدماء الزرقاء حول العينين . الطنين في الأذنين . القدمان تحملان العبء . اليدان لا تهدآن . النخاع سليم . لا حاجة للطبيب . لا رغبة في الدواء . قال « على بن محمد أبو علي » :

ـ يقولون لنا عن الوفد ما يقولون . مفيش غيره .

كان يهمس الي بضميره . وسألني :

ـ من تحب ؟

قلت :

ـ ما زلت أبحث يا « علي »

يستطيع « علي » أن يقرأ الصحيفة ويفهم كلماتها . خطه جميل رغم أن تعلمه لم يتعد الكتاب . اقتدر على شراء راديو ، فتحلق حول دكانه الفلاحون كل مغرب وعشاء . وازداد فخراً عندما جلس عنده ناظر المدرسة الإلزامية ، وهو وفدي حتى النخاع ، وكلما رأيتهم تذكرت كلمات « ثروت » :

ـ هؤلاء هم جماهير الوفد . يفكون الخط ولا يعون ، يخاطبهم النحاس متمثلاً فيهم مصر فهم الذين يأتون به الى الحكم وما إن يجلس على الكرسي حتى يرفع رواتب معلمي الالزامي مكافأة لهم .

فتح ثروت عيني على هذه الفئة ، فهي عريضة . وتذكرت أحد خطبائها . كان معلماً الزامياً ، اشتهر بخطبه في ذكرى سعد ، وما زلت أذكر له ما كان يردده عن سعد ومنفاه وجهاده ، وختام خطبته الدائم :

وقال قولته المشهورة :

ـ انا انتهيت انا انتهيت .

ما زلت لم أدرك السر في ترديد كلمتين قالهما سعد على فراش الموت . أهو غرام بالحزن حتى في المناسبات الخطابية ؟ أم هو اليأس الدائم ؟ رووا عن سعد انه قال :

ـ مفيش فايدة .

وكنت أسمعهم يقولونها سخرية . أو يريدون من ورائها معنى ، فيقول الفرد منهم :

ـ سعد باشا قال إيه ؟

ويرد الآخر :

ـ مفيش فايدة . .

ويهزان رأسيهما ، أو يضحكان .

* * *

أخذني الدوار حتى خشيت أن تعاودني الحمى . لم أعد اقترب من حاجز الترعة عند البوابة ، خشية ان يصك ناظري مرأى جثة ممددة فوقها أعشاب ، وحولها غمامة من ذباب ، ورائحة زرقاء تكاد تقتلني .

مرأى الجثث فوق مياه ترعة الإبراهيمية ليس غريباً . . فكثيراً ما تمر أمامك الجثة وأنت لا تدري عنها شيئاً ، فمعالمها غير واضحة ، وما يلفها من أعشاب وأوساخ تحجب عنك سماتها . قد تلفحك رائحتها ، وقد تحمل هبة ريح العفونة بعيداً فلا تصادف أنفك ، ولكنها تصادف انف غيرك .

قال « ثروت » :

ـ لا يرجع السبب كله الى الثأر ، فهناك الشرف .

أعلم أن الشرف مقدس في الصعيد . فلم تزدني كلمات ثروت شيئاً ، ولكنها جعلتني أضيف الى أسباب الجثث الطافية سبباً آخر . قال :

ـ ما أسهل ان يقتلوا الفتاة في الليل ، ثم يحملون جثتها الى الترعة ، ويقذفونها فتهبط ، ثم تنتفخ فتطفو ، فيحملها التيار هادئاً الى الشمال . . وكل مسئول عن بوابة على الترعة يفتح لها لتمر حتى تصل الى هنا .

تساءلت :

ـ ما الداعي لأن يجمعوا المشاكل ؟

أجاب :

ـ مشاكل . . أية مشاكل . الجثة ليست مشكلة . تصوير وتشريح ، وإثبات أوصاف ، ومحضر ضد مجهول ، وتدفن بعد ما يكفنها أهل الخير .

سألت والحزن يكمدني :

ـ وأهله أو أهلها ؟

أجاب :

ـ يدركون بعد مرور الوقت مصيره أو مصيرها ، فاذا كانت فتاة فالكل يفهم ما ارتكبت ، فلا بد أن يخمن مصيرها إن لم يكن يدركه أو يعرفه ، فيصمت ، وإن كان رجلاً فهو مطلوب وعرف طالبه الذي سيصبح مطلوباً .

قلت :

ـ أنت تعرف مثل هذه الأمور ؟

هز رأسه ثم سكت ، فلم أر داعياً لأن أعيد السؤال .

* * *

قلت « لمحمود » ونحن نتمشى بعيداً عن حافة الترعة :

ـ ماذا قرأت اليوم ؟

ـ قرأت « مصر الفتاة » .

قلت كالمستنكر :

ـ وماذا غيرها ؟

ـ لم أقرأ غيرها ، يكفيني مقالة الزعيم اليوم .

علقت ساخراً :

ـ طبعاً . . . طبعاً . . . فيها الكفاية .

أدرك ما أعنيه فاستدرك .

ـ انت لست حزبياً ، ولا تقنع بكلمات ، ولكن صدقني فهو نظيف صادق طاهر . ليس كغيره من الزعماء . فيه الصفاء .

قلت :

ـ أعلم . . فهو أول أو ثاني أو ثالث أقانيمك الثلاثة .

لم يقبل « محمود » مني هذا التعريض ، وأشاح بوجهه عني صامتاً .

كان يحب حتى العبادة ثلاثة أشخاص . أحمد حسين وأم كلثوم والعقاد . . لا يقبل نقاشاً في أي منهم ، يحتار إذا قلت له اختر واحداً منهم ، أو فضل واحداً منهم عن الآخر . إذا تكلم عن أي منهم لا يسكت ، أمنيته أن يجمعهم في شيء واحد ، سعادته لا يتصورها احد اذا رأى إنساناً يجمعه بهم جامع . كم كان يتمنى ان يراني مثله أحب ولو واحداً منهم .

* * *

هل يستطيع الانسان تذكر كل شيء ؟

في أوقات تكون النفس صافية رقراقة ، وتبدو على وجه صاحبها

غمامة ثم ينكمد ، حفرة عميقة حفرت وخرج منها شيء كان مدفونا .

لم يحاول أحد حفر هذه الحفرة ، ولم يدرك صاحبها في حفرها ، ويحاول أن يعرف السر فيما تم ، فلو خرج كل ما كان مدفوناً لهلك . . . نحن ندفن أفعالاً وحوافز أفعال ورغبات مثلما ندفن الموتى ، فلكثير من الأفعال والرغبات رائحة الجيف وجودها منشورة على سطح النفس قد يهلك صاحبها ، وقد يهلك غيره . هي وباء لم ينتشر .

ما أتعسنا اذا لم يكن في مقدورنا طمر الرغبات . وما أفظع الحياة اذا كان كل فعل تم أو لم يتم معلقاً على أكتافنا ، يراه الناس . وفي المقابل سيعترينا الهوس اذا ما حدقنا في أعماقنا فلم نر غير صفحة بيضاء ، أو فراغاً لا نهاية له . فالأفعال والرغبات اذا تحولت وتلاصقت وتكومت أهون علينا من أن نعيش بدونها .

الأفعال والرغبات هي الذكريات ، ما أن تمر دقائق أو ثوان على إرتباطها بالزمن حتى تتشابه ، سواء فعلت أم ظلت محصورة . هي عند النفس السوية وعي دائم بأن الحركة هي الوجود ، وبدونها ليس غير الجمود والموت .

الوعي لا يترك مجالات للنفس تخبطها الرغبة دون نزاع . بل لا بد من الوازع الديني والخلقي . . لا بد من الضمير االذي هو حصيلة تجمع كل ما وزع الرغبة فحدد من شراستها ، أو وقف دون استشراسها . ليست الشراسة فيما نعرفه من عدوانية الحيوان أو الإنسان . ولكن الشراسة قد تكون في النفس معبراً عنها بنظرة ، أو

روح سوداء ، أو تقول أو حقد . . قد تأتي الشراسة من بعوضة فهي حقيرة عندما تدس خرطومها اللامرئي تحت جلدك تمتص دمك فتقتلها بمرسة من إصبعك ، كانت شرسة وكنت عن دمك مدافعاً . فالحشرة التي دفعها ما كون فيها عبر أحقاب الى السقوط على قدمك أو يدك لتلعق ذرة من دمك ، هذه الحشرة تشبه نفوساً كثيرة ، تراها ساقطة على يديك أو قدميك رغبة ، فنهمها للعق الدماء لا يحد ، يبدو في سقوطها كما يبدو في كلمات تختلقها وتشيعها . قد يكون ما تفعله منطقياً ، وغير محدود بدين أو خلق أو ضمير ، إذا كان بينك وبينها ثأر أو ميراث أو تجارة ، أو ربح أو خسارة . . ولكن اذا لم يكن بينك وبينها غير السلام والتحية تلقيها في ود فقد جمعك بها وطن أو مكان ، فلا يكون الجواب غير السقوط على جسدك وامتصاص قطرة أو قطرات من وجدانك أو دمك . . . فذلك يوم فقدان المنطق وانعدام الخلق .

ترى ما هو المصير ؟ . . .

تساءلت بيني وبين نفسي :

ـ هل سأذكر كل ما أتذكر . وهل سأجد الشجاعة على ذلك ؟

والجواب :

ـ بلى . . . سأذكر كل ما أتذكر . . مراعياً مشاعر من يقرأ لا مشاعري . . عندي قدر ضئيل من الشجاعة يساعدني على القول . . . سأقطر أقوالي قطرات ، وسأخرج مشاعري دفقات ، غير خائف على نفسي ، فلم أعمل ما أخاف منه ، وليس عندي ما أخاف منه ، وليس عندي ما أخاف عليه . . ولكن خوفي على من

يقرأ ، فلعله قد صنع مني وهما أو هما ، فيرى حقيقتي فتأخذه صدمة لا أريد ان أتحمل جريرتها ، ما أكثر النفوس التـي تعذبـت بنياتهـا الحسنة . . ونيتي حسنة ، وما عندي من خبرات قليلة تجعلني اتحدث على مهـل مشفقـاً حانياً رغـم لسعـات البعـوض . ما أقتـل الرغبـة للبعوضة ، وأكون كاذباً لو قلت بأنني أحرص على حياة البعوض ، والا لكنت مغرقاً في الهندية أكثر من « الهندي » . . ولكنني أحاول ان ابتعد عن البعوض . . ويكفيني حذراً أن أبتعد عن الأماكن العفنـة حيث تجمع القاذورات .

* * *

نواحها يقطعني قطعاً صغيرة ، أجمعها على مهل لأعود حياً من جديد ، يقتلني نواح « ام كعبور » ، نهاراً وليلاً . . ما إن أقترب من بيتها حتى يخرق قلبي صوتها :

- يا عيني يا ضنايا .

صوتها كقطعة من حجـر منحـوت . . رتيب لا نغمـة فيه ولا ترديد . كاب مثلهـا فهـي دائماً كابية على عتبـة البـاب ، متشحـة بالسواد . لا أحد بجانبها قد تلقي عليها امرأة عابرة التحية ، فتقطع النواح لترد عليها ثم تعود الى نواحها من جديد . أمر أمام بابها دون حديث معها ، فترسل إليّ نظرة حادة تلتفت بعدها ، تفعل ذلك مرة كل أسبوع أو كل شهر .

فعادتها ألا تلتفت الى عبوري . لم يدر بيننا حديث رغم أنها جارتنا . لا أذكر أنها زارت بيتنا مرة واحدة ، حتـى أيام أحزاننـا لا

تشاركنا فيها ، ومناسبات عند المصرية مثلها عيد ، ليأخذ صوتها مداه صياحاً ، ولتفتح مجالات النواح .

حائط سميك يفصل بين عالمها وعالمنا . أكوام هائلة من الغربة لم يستطع أحد أن يخترقها . لا أعرف اسم بلدها الذي أتت منه ، ولكنه على ما يبدو هي مثلنا غريبة .

لم تقترب من نفسي ، في الوقت الذي لم أجد فيه الشجاعة من الاقتراب حتى من رصيف بيتها . كنت دائما أسير وسط الشارع أمام بيتها ، أذكر ذلك يافعا ، أما صغيرا فقد سرت مرة على الرصيف ، وألقيت بنظرة عبر نافذة بيتها ، فطعنتني بصوت زاجر حارق جعلني لا أعود بعدها الى فعلتي ، وتماديت حتى كدت الا أمر من شارعها ، ولولا انني كنت أصحب ابي الى الدكان فأسير الى جانبه لما اتخذت شارعها طريقا لي أبدا .

لم يكن صوتها مرتفعا ، ولكنه كان غليظا عريضا ، لا أذكر من ملامحها شيئا ، فرنات صوتها في أذني تكفيني حتى أحس بها وكأنها أمامي .

ـ يا خوة ، يا نضري .

كدت مرة حنوا وتعاطفا أن أسألها :

ـ ألم يعد ابنك « كعبور » ؟

خفت أن تلتهمني بنظراتها . وخفت أن تهزأ بسؤالي وعطفي . . فماذا يجدي عطف بالنسبة لامرأة لم تحقق ثأرها . خرج ابنها الى السوق يشتري عجلا أو اثنين كعادته كل اسبوع . . فهو

« جزار » إفتتح دكانه منذ سنة . كبر « كعبور » بعد ما كان طفلا يلعب بالطوق في الشارع ، لم ألعب معه ، فعين أمه تتبعه . تراه أمامها ينمو على مهل ، ولعلها كانت تستعجل السنين . لم ير « كعبور » والده فقد قتل عندما كان صغيرا ، قتله جزار مثله عندما تعاركا في السوق ، استل الرجل سكينا وانزل بطن « أبو كعبور » . فمات بعد يوم ، وقبض على القاتل وحوكم ، وقضى عقوبته وخرج لأعرف ان بيته أمام دكاننا . أبي لم يحدثني عن هذه الأمور ، التقطت الكلمات من أفواه الناس دون سؤال . كان بيت قاتل « أبو كعبور » شونة ذات باب كبير ، تجلس عند فرجته عجوز لا تدع زوجة ابنها المسجون ان تبدو من الباب ابدا . من أراهم يدخلون ويخرجون هم العيال . . حتى خرج رجل البيت من سجنه ، فلم تعد العجوز لتبدو في فرجة الباب ، ولم يعد احد ليجرؤ فينظر تجاه الباب ، وافتتح الرجل دكانه قريبا من دكان « كعبور » . . ابن القتيل والقاتل جزاران متجاوران . . البيع والشراء والسوق ، واللحم والدماء والعروق ، والثأر في الأعماق . كان « كعبور » غرا فتحدث عن ثأره ، وكان القاتل ذكيا فأرسل له من يستبطن أعماقه . ولم تطل المدة ، ليختفي « كعبور » ولتنوح أمه نواحها الدائم .

وانتشرت الكلمات والتخمينات والتحقيقات ، ولكن أين الدليل ؟ قالوا بأنه أرسل اليه من يأخذه لشراء عجل ، ثم اختفى . قالوا بأنهم ذبحوه وألقوه في النيل . قالوا بأنهم أغرقوه دون ذبح . أو دفنوه حيا شرق النيل . تناثرت الأقوال ولم يعد « كعبور » وأمه تنوح ، فعلى قلبها يجثم اليقين ، وفي عينيها انتظار ، لعلها كانت

تنتظر طفلا آخر يكبر هو ابـن بنتهـا ليزيح عن قلبهـا قطعـة الحجـر المنحوت .

* * *

قال « وليم » :

ـ انت مثالي ، وفردي .

قلت :

ـ وما له .

سأل :

ـ ألا تريد أن تشارك في النضال ؟

اجبت :

ـ لا يكلف الله نفسا الا وسعها .

قال محتدا :

ـ انت سلبي .

قلت :

ـ بارك الله فيك

لم تعجبه كلماتي ، فاستشاط غاضبا :

ـ أنت من عائلة برجوازية . أهلك تجار .

فلا تدرك عناء العامل والفلاح . لا بد من تغيير النظام ، هذا الواقع سيأكلنا ، ويمحق اجيالا قادمة ، دورنا أن نقاوم وأن نناضل ، واذا لم نناضل نحن فمن سيفعل ذلك ؟ هل ننتظر حتى يأتينا أحد من الخارج يناضل من أجلنا . اذا أخذت بنظرة كنظرتك لسكت حتى

أتخرج ثم أشغل وظيفة واتزوج فحالتنا متيسرة كما تعلم . . ولكن ما فائدة الوعي ؟ الوعي يا زميل هو الذي يكون الطليعة ، والتي تأخذ دورها في نشر الوعي والعمل في نفس الوقت . القراءة لا تكفي . الكتابة لا تكفي . . متى سيقرأ الفلاح ، ولن يستطيع أن يعمل . . متى سيعي العامل . . إن الطبقة العاملة هي القائدة ، ولكنها بلا طليعة لا تعي دورها ، أمثالك فئران الكتب ما دورهم . . لا أراك الا ومعك كتاب . . تقرأ كل شيء . . هناك كتب لا تستحق حتى حملها . . . تقرأ للعقاد . . هه . . اقرأ الرد على العقاد . . اسمع . . اسمع . . .

قلت :

- تفضل . . قل .

قال :

- يمكنك أن تنضم الى حلقات المثقفين كخطوة أولى ، وبعدها حلقات الكتاب والفنانين . . سنساعدك على النشر ستكون منتميا ، ومنضبطا .

وهززت رأسي بالنفي وكان نفيا قاطعا .

كنت قبل ذلك لا أقطع ، بل استعمل العبارات اللينة ، أدخل الجد في الهزل ، وأحيانا أترك الرأي القاطع الى ما بعد التفكير ، ثم اذا ما سئلت أجلت موعد ابداء الرأي . . كنت أريد أن احتفظ بصداقة من عرفت . . كنت مثاليا كما قال « وليم » عن حق ، ولكن لم أكن فرديا . كنت أريد الا أتسرع فأندم . . كنت اسمعهم يسمون

بعضهم البعض بنعوت كثيرة ، ويحكم كل منهم على الآخر أحكاما قاطعة ، وتتشعب الأحكام حتى تصل الى أمه وأبيه وعائلته . كم كان الألم كسكين قاطعة ، يحزني في وجداني أياما كلما سمعت شيئا . . أنا مثالي كما قال « وليم » عن حق ، ولكنني لم أكن فرديا . كنت ذلك الحزين الدائم . قليل الأمل كثير الألم . . لم أرد لنفسي ادعاء . لا أحاول التصدي لشيء لا أقدر عليه . هل استعجل النكد لعمي أو لأسرتي . الأم الكابية في عناء . العم الذي لا يملك القدرة على الصراع ، القليل الخبرة والمعرفة حتى بشئون تجارته. الحيرة في نفسي بين مساعدته ، أو استمرار تعلمي . هل أنا « برجوازي » كما قال «وليم» ؟ ما معنى هذه الكلمة ؟ . . قرأت كثيرا لأعرف معناها . وقارنت نفسي بما تعنيه ، فضحكت منه ساخرا . لقد توهم « وليم » غنانا ، ولو عرف الحقيقة لأدرك أن أمورنا « مستورة » لا أكثر ، ولو طلب مني أن أقسم لأقسمت . ثم هذا الذي أحسه بين جوانحي ويكاد يدميها . . هذا الذي يعذبني ويشقيني . . هذا الحنين الجائح المؤرق الى وطني . . ماذا اصنع به . . هذا وطنهم ، وشاءت الظروف والأقدار أن أكون بينهم ، ولكنني لست منهم ، فهذا وطنهم . مصر وطنهم وليست وطني حتى وان كنت قد ولدت فيه . الفلاح يرعاك ويحبك . ولكنه يبعدك عنه . قد يرفعك ويقدسك ولكن ليجعلك تحس بغربتك . . هل انغرست قدماك في الطين . . هل تنوح على الميت سنوات ؟ هل تزور المقابر ؟ هل انت مطالب بثأر . . أو مطلوب بالثأر ؟ هل حملت عبء سنين القهر والحرمان ؟ هل اسود وجهك من الشمس المحرقة ؟ هل تنام أنت والبهائم في كوخ

طيني واحد ؟ هل يكفيك رأس بصل ورغيف يابس ؟ هل يموت الناس حولك وكأنهم الخيالات الباهتة المصفرة فقراء في الدم ؟

لا . . هذا وطنهم . هذا تاريخهم يحملونه في عروقهم . العناء الأزلي السرمدي الذي لا يعرفون له من نهاية ، ويتحملونه ويعيشون به ويتزوجون ، وينجبون أطفالا . النظرات بلا وميض . الألم ولا أمل .

هل أدرك أي « طليعي » ما أعانيه حتى يحكم علي هذا الحكم السريع ؟ قطعا هو لم يدرك ، ولن يستطيع غيره أن يفعل .

* * *

الفرد منا يجد عناء إذا اضطرته الظروف الى ذكر اسم امرأة ، خاصة اذا كانت زوجته أو أخته أو أمه . . والعناء عندي أشد عندما تأتي الأسماء في ذهني مرتبطة بالأحداث ، فهل من حقي أن اسميهم بأسمائهم كاملة ، وهل يسمح لي ضميري أن اذكر شيئا قد نسوه ، فالنسيان بالنسبة للانسان عادة ، والعادة هي الحياة والمألوف ، وما أصنعه الآن يخرق المألوف .

أغير الأسماء . . هكذا قلت لنفسي ظنا أني وجدت الحل . ولكن هل ينفصل الاسم عن صاحبه ، عن الأحداث ، عن التاريخ ؟ لقد شكل ذلك في ذاكرتي ترابطا لا يمكن ان ينفصل ، ولكن عندما تأتي الأشياء مرتبطة في ذهنه بما يسيء ، لا بد من بحث عن طريقة ، فأنا مضطر لأصطنع بعض الحيل الفنية ، فأبدل الأسماء ، وأومىء الى بعضها ، وقد اذكر حادثة ولا أشير الى

صاحبها ، فليس همي ان اروي تاريخ أحد ، ولكن همي ان اقدم هذه الفترة الزمنية . كان بودي ان يعرف حي شيئا من حياته منسيا ، ولم يكن ليذكر لولا تشابكه بهذه الحياة القلقة التي هي حياتي . . ولكن اصولا ونزولا عند الخلق يجب علي أن أستشير أصحابها . . وهذا امر عسير فكان ما اخترته هو السليم .

* * *

لم يستطع أبي أن يقنع عمي بشراء أرض زراعية . قال عمي في صلابة وغضب :

ـ لا نمتلك في ارض الفلاحين .

لم أكن حاضرا عندما رفض عمي رغبة أبي ، وأمر الكبير مطاع ، وعمي أكبر الأخوة ، وأبي أصغرهم . . فلم يكن أمامه الا الطاعة ، وترديد كلمة الكبير والايمان بها حتى ولو كانت خاطئة .

استعاد أبي في حديثه كلمات عمي . ولم نشتر ارضا . قال عمي عندما سأله الشيخ « عبد المتعال » شيخ الجامع الغربي :

ـ يا سيدنا الشيخ . . هادي مش بلادنا . الانسان يملك في بلاده . إحنا عندنا ملكنا . لازم يوم نرجعوا له . . ملكنا هنا بعد هكه نسيبوه ؟ ما يصيرش . .

لم يقتنع الشيخ عبد المتعال فتمتم :

ـ طيب ما هي دي بلادكم برضه يا عم الحاج .

قال عمي :

ـ لا يا سيدنا الشيخ . هادي بلادكم أنتم . . اما بلادنا أحنا ان شاء الله نرجعوا لها يوم . . .

كان عمي الحاج عمر عنيدا ، لا يقبل نقضا لرأي . حريصا على لباسه . لم يغير من جرده ، وطاقيته . كل ما فعله هو أن لف قماشا أبيض على الطاقية الحمراء . احتفظ باستقامة عوده حتى وفاته . كان عطوفا في غير تظاهر . يصحبني معه الى الجامع ويصر على أن أجلس بجواره ونحن متحلقون حول الشيخ « عبد المتعال » نسمع الدرس قبل صلاة العشاء . . . وأتململ وأحاول القيام اذا تعرض الشيخ لأمور تتصل بالغسل والطهارة ، فيكون صريحا ، وأكون انا صريعا . . تصدعني كلماته فهي جافة . ومرة لمحني الشيخ عبد المتعال وقد احتقن وجهي فقال :

ـ لا حياء في الدين .

لم اقتنع ، فتحركت مغادرا ، فأمسكني عمي قائلا :

ـ اقعد .

وجلست ساكنا ساهما ، لا أسمع شيئا مما يقوله الشيخ .

* * *

نورت شجرة ـ ذقن الباشا ـ أمام منزلنا . بداية الصيف . شواظ من نار . فتحت باب منزلنا واخرجت كرسيا ، وجلست فوق الرصيف امد بصري الى أفق كئيب حالك خلف عزبة ـ الفوريقا ـ انحدرت فيه شمس قائظة منذ ساعتين . كان البعوض طفافات تملأ الجو .

* * *

لم يتحرك الفلاح طيلة قرون ، تراه سائرا متحركا فتحسبه

نائما ، ولكنه يعمل في هدوء . جعله الشقاء راضيا . كسرة خبز ورأس بصل هما غذاؤه الدائم ، لا يفتقد انواع الأطعمة الأخرى ، فهي زائدة عن حاجته لا يسأل عندما يتزوج عن اتقان الفتاة لطبخ الطعام ، فليس هناك ما تطبخه ، واذا وجد فكيفما كان طبخه فهو مأكول . ليس عنده من رغبة أو شهية ، إذ فقدها على مدى القرون . ذوقه لايستطعم الا كل شيء مملح. قطعةالجبن لا تستطيع أن تذوقها لشدة ملوحتها . كثيرا ما استعاض بالملح عن أي شيء آخر يغمس فيه لقمته . الخبز والملح . أوكما يقول هو « العيش والملح » هما الطعام وهما القسم وهما الحياة .

الفلاح في مصر يختلف عن الصعيدي . الفلاح منبسط النفس هادىء والصعيدي مغلول متحفز . لا يطلب الفلاح ثأرا ، وإن كان قد أحس به زمنا فقد نسيه . والصعيدي ابن الثأر ويعيش له . ترتخي عضلات الفلاح الجافة ويعمل ساكنا مذعنا ، وتنفر عروق الصعيدي وتتوتر عضلاته ويعمل متذمرا مكظوما . نظرة الفلاح سائحة باهتة غير محددة ، ونظرة الصعيدي مركزة حادة ضيقة . غضب الفلاح - إن غضب - خفي لا يبدو للعين، وغضب الصعيدي واضح على جبهته . كل منهما يحتمل الشظف ، ولكن شظف الفلاح أخضر . أما شظف الصعيدي فهو رمادي . يعيشان على ضفتي نهر واحد ، أولهما مغروس في الطين يتسرب الماء بين قدميه ، وثانيهما ملتصق بحافات التلال الصخرية ، ناظرا إلى الوادي المحدود من بعيد ، فلم تلامس قدماه غير قطع الصخر والتراب الجاف الحارق . يختلطان في الوسط فتمتزج الملامح ، وتتشابك النفوس ، فترى صعيديا مغروسا في

الطين مثلما ترى فلاحا ملتصقا بالتلال ، وإذا ما جاوزت القاهرة شمالا فانك ترى الفلاح مبيض البشرة فهو من بقايا الهجرات أو الغزوات أو هو نتاجهما . . هناك يقولون عن كل فرد جاء من جنوب القاهرة صعيديا .

كم ضحكت مدينة القاهرة من سذاجة الصعيدي ، ولكنها في نهاية الأمر خضعت له ، فأصبح هو التاجر المشهور ، وهو المجرم الأشد شهرة ، وهو العامل المنتج ، وهو الأفاق القادر على الحركة . . على أكتافه قامت أكبر البنايات الحديثة ، وقديما قامت على أجساده الأهرامات ، لا تستعصي القاهرة الحديثة عليه ، وقديما قديما استعصى هو على الغزوات ، ولم تذبه الهجرات . على حافة الوادي في الجنوب عاش الجفاف واكتفى بحبّات الذرة . فكان صاحب الجسد اليابس المعروق ، وعندما جاء الى الشمال كانت عروقه هي التي اقامت المصانع فحملت الملايين من أطنان الحجر والتراب ، ثم حملت ملايين الأطنان مما انتجت الأرض والمصانع الى الموانىء .

هو في الاسكندرية عامل الميناء الأوحد ، المتجمع حوله الخاضع لسطوة مقاول من بلده مرهوب الجانب . هو فرد من جالية غريبة عن هذه المدينة ، مثلها مثل الجالية اليونانية أو الايطالية أو الفرنسية أو الشامية أو المغربية .

الاسكندرية مدينة ارتبطت بالبحر وليست لها علاقة بالنهر .

جاءها مثلما جاؤوا اليها . وتحرك ناسها بتحرك التجارة فيها ، فكان الصعيدي تابعا يحمل الصناديق والأكياس . . فهذه حرفته فهو

من قبل قد حمل الصخور .

* * *

قال من هو في « مرتبة عمي » :

ـ لكل انسان مهما قل شأنه رأي .

كان يجيبني عن سؤالي حول الكيفية التي جلس بها أمام حمال يسأله ويأخذ رأيه . قال « من هو مثل عمي » :

ـ دائما أسأل ، واسمع الاجابة ، استمعها جيدا . كل إنسان عنده ما يقول . كل إنسان أدرى بما يعمل . اسأل الحمال عن كيفية تحميله ، وعن المقدار الذي تستطيع العربة أن تحمله ، وعن مدى مقدرة البغل . . وعن أساس البناية ، وعن مقدار الاسمنت المطلوب . . .

قلت :

ـ وما أدرى هذا الحمال بالبناية والأسمنت . . أن تسأله عن العربة والبغل فهذا معقول ، أما أن تسأله عن مدى احتمال الاسمنت . وعدد الغرف الواجب توفرها في كل شقة ، فهذا ما استغربت له . . أهو مهندس ؟!

قال من هو « في مرتبة عمي » :

ـ قد يعرف الحمال اكثر من المهندس ، قد يكون عنده تجربة لا يعرفها المهندس . قد يكون سمع من أبيه أو جده عن مدى احتمال التربة في هذه المنطقة ، أو سمع عن بناية سقطت . المهندس عنده تخطيطات وعينات ومقاسات . أما هذا فعنده الحياة كما هي ، بما فيها

من غرائب وعجائب . المهندس يعرف ، ولكن معرفته محدودة بعلمه . لقد فات على المهندس مدى احتمال التربة هنا ، ولم يعرف أن الى جانب الأرض التي نبني عليها صخرة . . . بالطبع سيكون لها تأثيرها على الأساس . لقد دلنا عليها أمثال هذا الحمّال .

إبتسم الرجل ، وهو يملك دائماً ابتسامة يفرشها على شفتيه في أي وقت يشاء . أسرني بابتسامته . وهو يصحبني معه ندور على المصارف . كان مشهوراً في المدينة . ما إن يصل الى أي مكان حتى يقابل بالترحاب . ذهبنا الى الجمرك . القى نظرة على صناديق « الشاهي » . هناك صندوق مكسور ولكن الخيش يحفظ ما به . والحمالون يشيرون الى المخازن حيث وضع « الشاهي » . والرجل يلقي التحية ويتحدث ويتكلم مع كل إنسان . صباح الخير . أزيك يا عمي فلان . ويسمع الرد الله يسلمك يا حاج . عملت إيه في الشيء الفلاني ، طيب أعمل كذا في الشيء الآخر . حركة دائبة لا تتوقف لحظة . انتظرني دقيقة حتى أرى المدير الفلاني . طيب تعال معي حتى تتفرج على هذا المخزن . تعال اقعد بجانب الأستاذ المحاسب . وأنا أدور معه مذهولاً . هنا « البورصة » بناء قديم كأنه أحد أبنية الرومان . هنا التجارة ومضاربة الأسعار .

هنا تجارة القطن ، وارتباطها ببورصة بريطانيا . طيب نذهب الى أحد المصارف في شارع فؤاد . أقول لك تعال نذهب أولاً الى المكتب . ذهبنا الى المكتب ، فوجد « مسيو ميشيل » ووجد عنده آخر أسعار « الشاهي » في « بورصة امستردام » طيب برقية لشراء مزرعة « جاكرتا » نوع « الشاهي » فننج .

ـ يا مسيو ميشيل إرسل البرقية قبل أسعار القفل . لا يهم لا يهم النوع . أنا أعرفه وأعرف كيف أعالج تدني جودته . ومسيو ميشيل يجلس طائعاً ليضرب على الآلة الكاتبة . طيب أقعد انت في المكتب سأعود بعد نصف ساعة ونذهب الى البيت فقد آن ميعاد الغذاء .

شملني الإرهاق فلم أعد مستطيعاً حتى الرد بالإيجاب ، إذ جلست مبتسماً ، ودون أن أشعر رددت :

ـ العين لا تملؤها الا كمشة تراب .

لم يغضب من هو « في مرتبة عمي » ، بل فرش ابتسامته على وجهه ، وهو يردد بعدي المثل . . . وخرج .

* * *

الشمس تغوص هناك في مياه البحر ، وأنا أسير على الكورنيش ، متجهاً الى محطة الرمل . وما إن اقتربت منها حتى زاد إحساسي بالغربة . القبعات تملأ المقاهي . الكلمات المتداولة من لغات مختلفة . صيحات النادل بلغة غير عربية ، وبلهجة غير مصرية . الصعايدة يبيعون المنجة يطوفون بها على المقاهي وعلى الرصيف الملاصق للسور الصخري الذي تضربه الأمواج ، يسمع لها ضجيجاً وهديراً ، يقف بائعو الترمس والذرة المشوية . . انتفض قلبي إذ كنت أتنقل بين الرصيف ، وبين وسط الميدان حيث يقف الترام . كنت خائفاً رغم أنني لم أبتعد كثيراً عن سوق المغاربة ، وبين آونة وأخرى أرى طاقية مغربية بزرها يلبسها شخص فوق رأسه ، فأحس بأن آصرة خفيفة قد نمت بيني وبينه للحظات ، كأننا مددنا

أيدينا يسلم كل منا على الآخر . وتذوب الطاقية في الزحام ، وأترك نفسي مشدوهاً لأضيع من جديد ، وما ان اقترب الظلام حتى أخذت طريقي عائداً ، آخذاً الترام حتى ألحق بعمي في محرم بك .

هذه المدينة العجيبة . الاسكندرية . هل للمصريين فيها دور ؟ هذه التجارة . البورصة . القطن . الشاي . الميناء . مصانع النسيج والغزل . هذا العالم المتحرك على شاطىء البحر المتوسط . . هل يدل على شيء مصري ؟ هذه الحكومة التي تصطاف هنا . هؤلاء الباشوات والبكوات . وقصر رأس التين أهي نفوس وأشياء مصرية . إنهم يتحدثون عن مصر ، عبد الوهاب يغني الكرنك ، وعلي محمود طه يكتب قصيدة في عدد خاص من الأهرام عن الصيف ، وتعلق مجلة الرسالة عندما سمعت بأن الأهرام قد دفع مبلغ مائة وخمسين جنيهاً للشاعر عن قصيدته بأن توفيق الحكيم يفكر في نظم إحدى العصماوات . هذه الروائح والنماذج أهي أشياء مصرية ؟ . . . كنت قادماً من الصعيد مع عمي لأول مرة . ألبس جلباباً من التيل وفوق رأسي طربوش . كان منظري يدعو للضحك . ولكن من سيضحك عليّ ، فغيري كثيرون يلبسون نفس اللباس . هذا الخليط من الأزياء الغريبة المتنافرة . تلمح فيه آخر لمسة من لمسات الموضة في باريس تلبسها فتاة ذات بشرة كالحليب الى جانب الجلباب البلدي الباهت يلبسه صعيدي شيخ . العمامة والقبعة والطربوش ، وأغطية الرأس الأخرى ، يقولون أن مثله يكون كرنفالا . هؤلاء الباعة يبيعون كل شيء . هؤلاء الأقارب وقد استقر بهم المقام في الاسكندرية لا يشعرون بما أشعر به ، ويتحدثون عن طرابلس ومصراته ،

والصحراء الغربية ، وما أبقت الحرب فيها .

وعن تكوين الجمعية الطرابلسية . وعن أسماء كثيرة أسمعها لأول مرة ، ويعلق « عم أحمد » وهو شخص آخر في مرتبة عمي بعبارات جارحة أسمعها من رجل كبير في السن لأول مرة ، ويقول « عمي » معلقاً ، وقد أدرك خجلي من سماعها ، فيتكلم « العم أحمد » بالايماء ويشير الى عمي إشارات لها معناها ، ويجلس ساكناً محملقاً بعينين واسعتين حتى خلت أن وجهه قد تحول الى عينين كبيرتين . . . ويرد عمي بكلمات تدل على فهمه ويدخل أناس كثيرون ، منهم من يسلم علي ويسأل عني ، ومنهم من لم يسلم ، ولكن لا بد من السؤال .

ما أن نزلنا من القطار ورجعنا الى بيتنا حتى أحسست كأنني رجعت من مكان بعيد ، فصلتني عنه بحار وطرق وسماوات . كان الطين هو ماغرست فيه نفسي ، وكانت الإسكندرية عالماً كأنه حلم صاف . مرات عندما أتذكر بعض حارات « محرم بك » . . ورائحة « أم الخلول » ينتابني ما يشبه الكابوس . . إلا أن نظافة محطة الرمل وميدان المنشية تجعل الحلم يعود صافياً . وأرجع الى منظر الجلابيب ، والوجوه الكالحة والترعة الإبراهيمية ، ورائحة التراب وقد رش بالماء في القيظ ، والعربة وهي ترش الماء والأولاد يتبعونها عرايا والبغل يجر الصهريج الكبير في مشقة ، وما أن تمضي نصف ساعة حتى يعود التراب يملأ الجو من جديد . وعمي الحاج عمر يجلس أمام الدكان لا ينظر ولا يتكلم إلا اذا رد السلام على أحد . وأنا أجلس على حافة الرصيف ، كأننا نزعنا من لوحة رسمت منذ زمن لتوضع في لوحة

اخـرى جديدة وغريبـة ، لا تمضي لحظـات حتـى أحس القلــق في داخلي . جدران الوجدان من الداخل جديدة ولكن الجير الذي طليت به يتساقط . أحس تماسك الجدران ولكن الجير المتساقط يملأ حلقي . لا يملك عمي لنفسي شيئاً . وعمي « الحاج أحمد » لا يملك هو الآخر لنفسي شيئاً . أخذني الى الإسكندرية اعتقاداً منه أنه قد فتح لي آفاقاً كبيرة واطلعني على ما سأحكيه طيلة عمري ، ولم يعلم أنه أطلعني على غربتي ، إذ ازددت شعوراً بالغربة . الطين يجذبني اليه أكثر مما جذبتني الاسكندرية . الترعة الابراهيمية بمياهها الطينية أشد عمقاً في نظري من البحر المتوسط . النيل هو البحر الحقيقي يقولون حولي هذا الكلام . وأنا في داخلي أرى الترعة هي البحر ، رغم أنها تفرغ وتجف في بعض المواقع لمدة شهر . « عم إبـراهيم » يأتـي الينـا من عزبـة « بديني » حامـلاً فاكهـة الصيف . كان يجلس معـي أمـام بيتنـا في الصيف يحدثني عن القطن ، والزرع وعن عمي الذي توفى في الحجاز وكيف أنهما ذهبـا الى بلـدة في الجنـوب لشراء « اللبـن » وهـو طوب مصنوع من الطين ، لبناء هذه المساحة التي نجلس أمامها ، وكيف أنهما حملا مركباً بالطوب ، وكيف أن المركب قد غرق في النيل ونجيا ، وجلس عمي يجفف ما معه من نقود ورقية على نار أوقدها ، وكيف أن المراكبية بدأوا يتوددون فأشار اليه (عم إبراهيم) أن ضع نقودك في جيبك ، وأمسك سلاحك في يدك .

ـ لماذا يا عم إبراهيم ؟

هكذا سألته ، وأنا أعرف جوابه ، فلم تكن المرة الأولى التي يحكي فيها حكايته هذه ، أجاب :

ـ كانوا يريدون قتلنا عندما رأوا النقود .

وأقول متسائلاً في استغراب :

ـ هكذا .

ويقول مجيباً :

ـ كناعلى الشط الشرقي . وليس من أحد قريب ، لم يرنا أحد الا الخفير وهو على استعداد لأن يشاركهم . والمركب غرقت وكان من السهل عليهم أن يقولوا بأننا قد غرقنا .

وأسأل :

ـ أكان من الضروري أن تأتوا بالطوب في مركب من الجنوب ؟

ويجيب :

ـ كان سعره أرخص . كل ألف يقل ثمنه خمسين قرشاً .

وأعقب هازئاً :

وأخرجتم الطوب من النيل ؟!

ويرد ضاحكاً ، فقد أدرك معنى كلماتي :

ـ نخرج طيناً من طين ؟ ذهب الى المكان الذي جاء منه ولكن الحمد لله الذي عدنا سالمين .

يسكت « عم ابراهيم » قليلاً ثم يقول :

ـ انتم يا مغاربة « واعرين » .

ـ كيف ؟

ـ ما إن رآنا والدك الله يرحمه حتى استشاط غاضباً . كان من رأيه أن نشتري الطوب من هنا ، ولكن لم نسمع كلامه . الوعورة في طبعكم فانتم لا تقبلون ما تأتي به الأقدار .

* * *

كأنما فتح « عم إبراهيم » بكلماته نافذة أطل منها على داخلي ، وداخل أسرتي . إننا نختلف عنه وعن المصريين كثيراً . . إننا أصحاب حدة في الطبع . القلق والبحث دائماً هما ما يدفعاننا للتحرك ، والتجارة . المسافات لا ترهبنا ، وما تضرب به الأيام لا يجعلنا نستقر ونقبل كل المصائب ، بل نحتج واحتجاجنا قد يكون بالغضب ، أو الكلام ، أو العمل ، أو الحركة . ولكن السكون والرضى والاحتمال الطويل ، أمور لم نتعودها . أما « العم ابراهيم » فما أطول باله اذا أرسله أبي الى أمر يتطلب ساعة غاب يوماً . فاذا عاد وصاح أبي في وجهه تقبل الأمر وكأن شيئاً لم يحدث . . أذكرها حادثة بسيطة ولكنها مرسومة في محيطها ووقتها . فهي حية متحركة تدل على الصبر ، وطول البال . اذهب يا أبو عبده وأحضر خبزاً من السوق اذ لم يكن في البيت خبز ، وكان الطبيخ معداً . . وذهب « أبو عبده » وهو إسم التقدير « لعم إبراهيم » فابنه اسمه عبده . . ولم يأت إلا بعد ساعة ونصف رغم ان المشوار الى حيث يوجد الخبز لا يأخذ أكثر من ربع ساعة . وسأله أبي وعيناه محتقنتان تحت نظارته ، ألم تجد خبزاً حتى تأخرت يابو عبده ؟! فأجاب « عم ابراهيم » بأنه وجد

خبزاً بارداً فلم يعجبه ، فانتظر حتى يأتي بالخبز الساخن . لا تسأل عن حالتنا فقد كنا جياعاً ، كذلك لا تسأل عن حالة « عم ابراهيم » فقد كان مطمئناً وفعل الصواب . ماذا يهم لو انتظر ساعة ونصف الساعة . يعني هل ستطير الدنيا بمن فيها ؟! والجوع ! وماذا يجري لو تأخر الأكل عن بطوننا ساعة ونصفا ؟

الوعورة في طبعنا نحن المغاربة ، والهدوء والاستسلام في طبع الفلاحين . كان شقاؤنا في الصراع والتحدي والحركة ، وشقاء الفلاحين في الهدوء والاستسلام والاستقرار . ندور مع الزمن غلياناً . والصحاري نقطعها وحركة التاريخ غزواً وهجرة . وفتحا ، فالفعل والعمل والحركة جوهرنا . أما ذلك المستقر على الطين . فالهدوء والعمل الرتيب البطيء والسكون جوهره . الزمن يدور حوله فلا يدور معه ولا يصارعه بل يحاول ان يغلبه باستمراريته وتوالده وتكاثره ؟ أم ترى هل استطاع ان يوجد الخلود بعمل مستمر هادىء دائب بلا ثورة ولا صراع ، بأن وضع أحجاراً فوق بعضها فكانت أهراما .

توفيق الحكيم يريد أن يقول بأن المصري قد صارع الزمن بالأهرام فغلب المصري الزمن ، وشارف حافة الخلود ، بل استطاع أن يقهر الزمن . لقد استطاع المصري أن يقهر الزمن بالقلب ، وعمله وفعله كان بالوجدان . فبالوجدان صنع الأهرام .

هكذا أراد لنا توفيق الحكيم ان نفهم استمرارية الحياة وسط الوادي . . استمرارية هادئة ساكنة . أما الصراع بالوجدان والعقل ،

بالفعل والحركة فهذه أمور غائبة عن الحالـم الأول في مصر . توفيق الحكيم يخالف الحركة . والحركة هي الثورة المستمـرة ، والخلـود في الحركة لا في السكون ، الخلود فيما يحمل القلـب من معانـاة ، ومـا يترتب على ذلك من وعي وإدراك ، فاكتشاف . وليس الخلود في رتابة الحب حتى وان استمر عشرات الآلاف من السنين. الحب حركة القلب المستمرة المكتشفة المصارعة ، وليس الحـب في الإستقـرار والإنتظـار والسكون . . اذ في ذلك ليس غير الموت .

* * *

ـ أنتم يا مغاربة واعرين .

لا يمل عم « ابراهيم » من ترديدها واعتدت سماعها ، فالقلق في نفسي ، والاحتجاج على عدم رجوعنا في نفس عمي « الحاج عمر » يبدو واضحا على وجهه ، ويبدو منه في كلمات أكثرها مرتبط بحنـين عودته الى وطنه . بلادنا ، يقولها الرجل وليس لديه غير الأمنيات . العجز واضح والزمن اقوى منه ، فعمره فوق الثمانـين ، وانتظـاره للآخرة لا يحد انتظار عودته الى وطنه ، الى أن جاء يوم حملنا فيه عمي « الحاج عمر » على أكتافنا لندفنه بمقبرتنا في (قلوصنـا) على حافـة النهر في حفرة طينية حولها الحلفاء ، وبعد زمـن ستختـرق الحلفـاء الطين فوق جسده ، وستمتص جذورها الجسد . . بعد زمن لن تبقى حتى العظام .

كم امتصت جذور الحلفاء من أجساد !

* * *

تتركز السلطة في المدينة . لم تكن المدينة في أول أمرها غير تجمع سكانـي خليط ، ترتـب على سوق أو التقـاء طرق ، جاء اليهـا الصعيدي والبحيري والمغربي والشامي واليوناني فمارسـوا التجـارة ، اتخذ البحيري شونة لشراء الغـلال وبنـى الصـعيدي خصـاً لصناعـة الأقفاص ، واكترى المغربي دكاناً للبقالة ، ومثله استأجـر الشامـي محلاً لبيع الأقمشـة وقبلهما أو بعـدهما كان السودانـي يبيع العـرديب والتمر الهنـدي والـكركديه . . . كانـوا لا يجتمعـون الا يوم السـوق وبمرور الأيام استقر بهم المقام وداوموا على البيع .

جاءوا فرادى ودفعتهم الليالي الى الإتيان بعائلاتهم أو اتخذوا لهم زوجات من الـريف حولهـم ، فبقـايا الشراكسـة والأتـراك والمماليك يبحثون عمن يناسبهم غـير الفـلاح المغـروس في الطـين ، فوجـدوا ضالتهم في هذا الخليط الملتف حول السوق . . لقد جاءوا مثلهم من كل مكان ، ولم ينبتوا في الطين كحافي القدمين . كانوا يمثلون طبقة جديدة نشيطة ، باستطاعة كل فرد فيها أن يدعي منبتاً أصيلاً . وبقايا الأتراك والشراكسة يبحثـون عن أبنـاء الأصـول ، ويدعـون مثلهـم أصولاً غير معروفة ، جاءت من بعيد فهي تتـأفف عن هذا الـكادح المسكين ، الذي يقبل الوافـدين الجـدد مثلما قبـل من قبـل الأتـراك والشراكسة . . فهؤلاء الجـدد ليسـوا في إستعـلاء السابقـين ، وهـم يتاجرون ويبادلونه السلع ، ولا يتحكمون في رقابه .

لا يمل ذلك الكادح من إستقبال القادمين . وكل قادم له طريقته في المعيشـة . يستقـر على حافـة ترعـة ، أو على طرف سوق أو في مصلى . . ودون معرفـة لحرفـة يتخـذ حرفـة ، فالفـلاح سيصدقـه

ويتعامل معه ويقدره إذا تمتم بكلمات مبهمة وجلس تحت شجرة ، ولف رأسه بازار أخضر أو أحمر ، فهو شيخ يكتب الأحجبة ، ويشفي المريض ، ويفك ضيق المرأة العاقر .

وإذا جاء بقطع من الصابون وببعض الزجاجات العطرية ، وبقليل من الأعشاب فهو عطار يقدم الدواء ويصنعه .

واذا توفرت فيه الأمانة ، فحرس الحمير والأشياء حتى يعود صاحبها ، فهو امين وبمرور الأيام يصبح صاحب وكالة . واذا اشترى سلعا من السوق واختزنها ، ثم حملها ليبيعها في مكان آخر فهو تاجر .

والغرباء يجتمعون ويتعاونون ، ويتكاثرون ، وهم غير خاضعين لإقطاعي ، أو صاحب نفوذ ، ويحكمهم تجمع الغربة ، ويتخذون منهم رجالا يخضعون لكلمتهم ، وينفذون أمرهم ، ويهابونهم ، ويأتي اليهم رجال من المدينة الكبيرة يمثلون حاكمها ، ومع الرجال يأتي الآمر الناهي ، وتتغير الأحوال في المدينة الكبيرة ويخرج التركي ويأتي الانجليزي ، ثم يأتي النظام ممثلا في المأمور والعسكر والمحاكم والمصارف . ويصبح للأرض في هذا المكان ثمن وتبنى المنازل الجديدة اذا وفد بعض الفلاحين ممن ساعدهم عملهم او ميراثهم او نسبهم لتركي أو شركسي على أن يكون عندهم نقود ليشتروا الأرض ، وليقيموا المساكن ، وليقلدوا الوافدين وليلبس ابناؤهم البدل والطرابيش . فالمدارس قد فتحت ، ولم يعد التعليم مقصورا على الكتاب ، وينحسر نفوذ فقيه الكتاب ، ويحل محله الشيخ الوافد من الأزهر ، تعينه هيئة او تدفعه الحاجة للبحث عن جامع يكون امامه ، يساعده بعض ذوي اليسار .

وبدأت تجارة الأقطان ، وارتبط الفلاح باليوناني يبيعه القطن ويسلمه رقبته في وقت واحد ، واليوناني ينشىء شركات التصدير وتحركه « البورصة » في الاسكندرية ، وهي بدورها ترتفع مؤشراتها وتنخفض حسب ذبذبات الأسعار في لندن وقد يرهن الفلاح أرضه عند مصرف ، أو يوناني طمعا في الربح ، وكل منهم يخدع المسكين الذي ينتظر الثراء حتى يصبح مثل هؤلاء القادمين يأكل خبز القمح ويعيش في المدينة ويعالج ابناءه عند طبيب او يدخلهم المدارس فيلبسون الطربوش ثم يكونون بعد فترة موظفين عليهم القيمة !

وتسخر حركة السوق والبورصة من المخدوع فتهبط الأسعار ، ويحجز المصرف على الأرض ويعرضها للبيع ، فيشتريها احد الوافدين ، وكان من قبل عطارا او شيخا ، أو تاجرا ، فيصبح مالكا ، صاحب اصل وأرض .. ويبقى الفلاح أجيرا بلا أصل ولا أرض ، رغم أن قدميه مغروستان في الطين .

* * *

قال والدي وقد رأى الضيق على وجهي :

- اجلس امام الدكان وتفرج اليوم سوق .

أخذت كرسيا وجلست . كانت الدنيا تموج بالفلاحين والحمير . ووكالة « محمدين » تستقبل الكثيرين ، فكل منهم يريد أن يحفظ حماره خوفا من السرقة ، وخوفا على حماره من « الشفخانة » ، التي حتما ستأخذ حماره منه بدعوى ان حماره مريض أو مجروح ، والرأفة قد وصلت حدها عند الحكومة لدرجة أنها انشأت جمعية

« الرفق بالحيوان » ، ولم يكن هناك من حيوان يستحق الرأفة غير الحمار وسيلة النقل الرئيسية بالنسبة لكادح الحقل . . . العجيب ان الحكومة لم تفكر في الرأفة بصاحب الحمار . تهبط كل سوق سيارة نقل كبيرة مسورة وبها سائق وموظف ، يساعدهما شرطي لتجميع الحمير المستحقة للرأفة . ويصرخ الفلاح ويلطم خديه وينوح عندما يأخذون حماره ، ولكن لا مغيث ، فالحمار أحق بالرأفة منه ، ولا بد من معالجة جرحه . ثم يأتي ليأخذه ، ولكن كيف سيستطيع وهم سينقلون الحمار الى المديرية ، وهي تبعد عن هذا المركز مسافة عشرين كيلو مترا ، من سيدله اذا استطاع وسافر الى هناك . من له حتى يساعده على انهاء الاجراءات ، واذا تمكن ترى هل سيكون الحمار قد شفى . واذا كان قد شفى هل بامكانه ان يدفع نفقات علاجه . . لم يعد امامه غير الرجاء والتمني والبكاء والاستجداء .

- والنبي يا أفندي . . . الله يخليلك أولادك . . الله يستر عرضك . أنا غلبان . . أنا صاحب عيال . . دا أنا والحمار مفيش غيرنا .

ودائما يخيب الرجاء .

* * *

ظلت العقلية التركية مسيطرة ، رغم دخول العقلية الانجليزية . الطبقة الحاكمة تفكر من واقع وجودها المستغل فهي لا تعرف الا التقليد ، ففي لحظة تجل سمعت هذه العقلية بجمعيات الرفق بالحيوان في أوروبا ، وبما أن مصر قد أصبحت قطعة من أوروبا كما أرادها اسماعيل باشا فلم ينقصها غير الرفق بالحيوان . أما الرفق

بالفلاح فهذا امر غير وارد اذ أن مثله لا يوجد في أوروبا !

وصدر قانون ، وتأسست جمعية ، ولا بد أن يكون أعضاؤها ومؤسسوها باشوات من أصل تركي يدركون ويحسون عناء الحيوان في مصر ، ومن غيرهم يستطيع أن يعرف مشاعر الحيوان ! ؟

* * *

قال الشيخ عبد المتعال :

ـ أنا لا أريد أن أكون السبب في ان يخسر بعضكم البعض .

ورد عمي حانقا :

ـ أريد أن أفهم . . من أعطاهم الحق لكي يفعلوا ما فعلوا .

قال الشيخ عبد المتعال :

ـ قالوا بأن الجامع كان لهم وهم الذين يديرونه . . لا يهم انك تفرشه كل سنة أو سنتين بالحصر . . . فالأرض كانت أرضهم . . . هكذا يقولون . . .

قاطعه عمي :

ـ الأرض لله . وهذا الجامع بيت الله . وأنت لماذا يطلبون منك التدخل في امور العبادة .

قال الشيخ عبد المتعال :

ـ يكرهون مني أن أسمع كلامك . . حقدوا عليَّ مجالستك والا اذهب لمجالستهم في شونتهم .

قال عمي كاظما غيظه :

ـ لا يهمك منهم أحد . إبق مكانك . لا تسافر .

وبعد يومين سمعت عن عراك شب في الجامع بين عمي « الحاج

عمر » . والحاج « محمد العطار » رغم الصداقة التي كانت بينهما . ارتفع صوت عمي في الجامع والناس حولهم تتفرج وتقول ما يصحش يا حاج ولم يطفىء العراك الا انسحاب العطار .

منذ تلك اللحظات الحانقة الغاضبة الهادرة لم يلتق عمي الحاج بالعطار . كانت قطيعة قاسية لم ار بعدها أحدا من العطارين يزورنا . وإن كنت قد رأيتهم في جنازة عمي . أما الشيخ عبد المتعال فقد كان جالسا في سرادق الميتم يتحدث في أمور الدين ويعظ ويعلق . . لا يغادر المكان الا وقت الصلاة وكثيرا ما أم الحاضرين في المربوعة للصلاة .

* * *

قمت مسرعا ، وقد كنت واضعا رأسي على حافة صندوق شاي في المخزن محاولا أن أغمض عيني في القيلولة . كان المزمار البلدي والطبلة يملأ دويهما الشارع . أردت أن ألقي نظرة على جمعهما . كانوا عائدين الى بيوتهم . النساء يحمل بعضهن القصاع . والرجال يسيرون بعضهم يحمل حزما من برسيم والبعض يسوق أمامه حماره وآخرون يحملون عصيا ، والزمار وقارع الطبلة والصغار . كانت الليلة الكبيرة للشيخ الشقراني . وهذه جماعته ، ولا بد انهم باتوا عنده وذبحوا وطبخوا وأكلوا وها هم يعودون الى بيوتهم التي تقع عند نهاية شارعنا . كانوا يكونون عائلة واحدة تداخلت وتناسبت وضمت اليها من ضمت، الا أن انتماءها الى الشيخ الشقراني ظل هو العلامةعليهم وعلى وجودهم . لم أسمع بكرامات للشيخ الشقراني ، ولم أر واحدا من أهل البلد يذكره أو يشيد به، لم أشاهد واحدا يزوره في

المرات التي مررت فيها بجانبه . كان أصل هذه العائلة جاء وافدا وكبر أبناؤه فهات ، فجعلوا له هذا المقام الذي لم يقنع أحدا غيرهم .
قالت أمي لمسعودة الشقرانية :
ـ اذا نجح ابني سأصنع لكم قصعة .
وفرحت الخالة مسعودة ، فهذه أول مرة يأتي للشيخ الشقراني اعتراف من المغاربة ولكن أمي أردفت قائلة :
ـ على ألا تقولي لأحد .
لم يعجب ذلك الخالة مسعودة فقالت :
ـ ليه . . دا الشيخ الشقراني سره باتع .
ونجحت ، وصنعت أمي القصعة ، وحذرتني من ذكر ذلك أمام عمي ، ولم ينتشر الخبر ، ولم يفز الشيخ الشقراني باعتراف علني .

* * *

كان « عبد الحميد افندي » جالسا يحكي ، ويسرد أخبار المحكمة، وما حدث من القاضي ، ومقاطعة المحامي للقاضي ، وغضب القاضي . كنا في رمضان وقد أفطرنا قال « عبد الحميد أفندي » :
ـ انتم تعرفون أن الأستاذ رياض ، ضيق خلقه . لم يحتمل نقاش القاضي . كان القاضي منبسط النفس . لم يكن صائما على ما يبدو . كان الأستاذ رياض صائما ، والجو حار فصاح في وجه القاضي ، وخرج عن طوره . فأصدر القاضي حكمه الفوري بحبسه مدة ٢٤ ساعة .

وتساءل والدي :

- وهل نفذ فيه الحكم ؟

قال عبد الحميد أفندي :

- تدخل عدد من المحامين ، ووكيل النيابة واستسمحوا القاضي . فعفا عنه .

سأل والدي :

- هل اتخذت اجراءات الحجز التحفظي يا عبد الحميد ؟

أجاب :

- أيوه يا عم الحاج .

كان والدي مهموما ، فالضائقة المالية اشتدت على الناس ، وكثيرون من زبائنه لم يسددوا ما عليهم . . واجراءات المحاكم ، والتقاضي والحجز التحفظي ، والبيع ، والصلح . . أشياء مملة يكرهها والدي .

لم يلجأ والدي الى محام بل اكتفى بعبد الحميد ، وهو كاتب عرائض يعرف اجراءات المحاكم وما يتبعها من محضرين وتنفيذ وعمد ودمغة .

* * *

كانوا دائما يذكرون اسم والدي مقرونا بكلمة حاج . ورغم تكرار والدي في التصحيح فالاصرار على اللقب كان اصرارا دائما من كل فرد ، وبمرور الزمن قبل والدي اللقب راضيا ، لم يعد يغضب وتعودت اسماعنا تكراره . بل انني استغرب اذا ذكر واحد اسم والدي دون كلمة حاج .

كلمة « حاج » تعني عندهم علامة طبقية . اذ هي مرتبطة بالمقدرة على الحج ، فخرج معناها الديني الى معنى اجتماعي ، لم تعد دلالة على أن فردا قد أدى فريضة ، بل أن معناها قد تحول في ذهن الفلاح الى أن فردا قد استطاع أن يؤدي هذا الفرض الذي يتطلب سفرا طويلا ونقودا . . إذا فهذا الفرد قد ارتقى طبقيا ، وأصبحت الصفة التي حاز عليها تستحق الذكر مثلها مثل كلمة الأفندي والبك والباشا . . ولم يكن أمام أبي الا الرضوخ ، فالتكرار والعادة أقوى من الاحتجاج .

* * *

أخذت طريقي الى شرق الترعة . مررت على المقهى الذي يجلس عليه معلمو المدرسة والخواجات ، وبعض الأعيان . كان « حافظ أفندي » مدرس اللغة الانجليزية يجلس منفردا ، وما أن رآني حتى ناداني :

ـ تعال يا مغربي .

واقتربت منه . كان انسانا ودودا صاحب روح فكهة . .

قال حافظ افندي :

ـ هل تعرف العلاقة بين الفجل والمريخ ؟

وهززت رأسي مبتسما علامة على عدم معرفتي .

فقال ساخرا مني :

ـ لا تعرف هذه العلاقة انت تلميذ بليد . . هي علاقة قوية ، تماما مثل وجودي هنا بينكم ، وحصولي على ليسانس في اللغة الانجليزية ، هل عرفت الآن ما بينهما من علاقة ؟

هز حافظ افندي رأسه ، ثم قال :

ـ لا . . لا . . هذا مثل صعب . . لا تستطيع أن تدركه الآن ، ولكنك ستدركه بعدما تتخرج من الجامعة ، وتعين في مدرسة ابتدائية ، مثل مدرستكم هذه . .

اف . . . أهذه حياة ؟ كيف تعيشون هنا . . موتوا أحسن لكم . أنا جئت من المريخ . . وهنا آكل فجلا . . . وحلبة خضراء .

تغير وجهي ، فلم أعد أعرف ما أقول . لم يكن (حافظ افندي) يدرسني شيئا ، ولكنه كان مشهورا في المدرسة ، يسخر من التلاميذ ويسخرون منه . كانوا ينادونه (بياويكا) كان يغني ويدندن في الفصل ، ويضحك ، ويبتسم أحيانا ثم يقهقه ، لعله يضحك لنكتة لم يسمعها أحد . وصفه التلاميذ بالمجنون ووصفه زملاؤه بالاستهتار ، وحذره ناظر المدرسة ، ثم قبله على علاته ، كان طيبا لا يضرب ، ولا يؤنب احدا . ولكن لعله كان يعيش ازمة ، أو أمنية لم تتحقق ، او عجزا يسيطر على قدراته . عندما رأى تغير وجهي قال :

ـ اذهب واشتر لي بمليمين لب .

ذهبت وأحضرت اللب ، فابتسم وضحك . كان زميله صلاح قد حضر وجالسه ، فقال :

ـ شكرا يا بني . . ايها التلميذ النجيب . لا بد ان تعرف يوما العلاقة بين الفجل والمريخ .

* * *

كان الشيخ كامل يفطر معنا في رمضان وهو مؤذن الجامع وابن

الشيخ أحمد (فقيه الكتاب) . مات أبوه ، وفتحت المدارس فلم يعد للكتاب من زبائن فأغلقه ، وأصبح مؤذن الجامع والقارىء في المنازل والمآتم ، كان عمي يعطف عليه ، وقد بلغ السن بعمي درجة العجز ، فلم يعد بقادر على الصلاة في الجامع ، فجعله شيخه في رمضان ، يصلي به المغرب قبل الفطور أو بعده . . ثم يقرأ شيئا من القرآن ، فاذا جاء ميعاد العشاء ، صلوا العشاء والتراويح . . ويندر الا يحضر الفطور والصلاة شخص أو شخصان . وقليلا ما أكون ثالثهم الذي يفطر معهما ويصلي ويصنع الشاي من أجلهما .

ذهبت لأحضر الفجل من شرق الترعة . وجدت أناسا جالسين في حلقة . الشمس مائلة للمغيب ، والمغرب يقترب . بعض الرجال والأولاد يتفرجون على مدّاح ومدّاحة ، يقولان حديثا وقصة ويحكيان عن السيد البدوي الذي أتى بالأسرى . والكرامات التي حققها . الناس عيون والنفوس وامقة ، والجوع يفري البطون . . النهار طويل ، والصيام يحتمله كل انسان . كان هناك على حافة الكوبري قهوة واسعة ، تجلس أمامها « جمالات » الغازية ملطخة وجهها بمساحيق ، وتلبس لباسا خليطا من لباس الفلاحة ، ولباس بنات البندر . . لم استطع أن أنظر اليها ، إذ اشتريت الفجل وأخذت طريقي عائدا الى منزلنا على عجل .

* * *

الصراع في النفس مثلما هو خارجها .

كثيرا ما يحتد الصراع فيصبح صرعا يدك النفس ويحطمها . اذا استطاعت التغلب عليه بمؤثر أو إيحاء ، تبدلت حالتها وهدأت ولكنه

هدوء العاجز الـذي فقـد المؤشر ، فلا دليل ولا هدف . بل سكون وانتظار أبله .

إن أدراكنا للصراع داخـل نفوسنـا لا يقـل أهمية عن ادراكنـا للصراع خارجها ، ودون أن نلتمس من الطبيب النفسي حلا فاعتمادنا عليه قد يطـول . علينـا بعـد الادراك ان نجـد الطـريق الى حلـول للتناقض في الداخل ، فهو اذا طال امده تحول الى عصاب .

والصراع خارجنا يتخذ طريقا مشابهـة فقـدرة المجتمـع ووعيه يستطيعان ايجاد الحلول بالحركة الدائمة يقودها مؤشر الوعي واليقظة . فلا غفلة أو تغافل أو ترك حلبة الصراع للاستغفال .

يجب الا تترك التناقضات تتجمع طبقات . فهي ان تكلسـت ظاهريا ، لا بد وان تنفجر في لحظة أما اذا ما تابعها الرصد والادراك والاستقصاء فانه بالامـكان ايجـاد مسـارب السيولـة . ثم بعـد ذلك تجمعها لتتدفق في مصبات حسب حسابها ، فهو والأمر كذلك حصيلة امكانيات وتفاعل فحتما ستؤدي الى توليد الاشعاع الاجتماعي والحركة الفاعلة . هناك من يغفل او يتغافل عما يمور داخل نفسه ، فلا يمر كثير وقت حتى يجد نفسه حطاما مدكوكا ذاهلا مثلما هناك مجتمعات ينقصها الرصد والادراك والوعي ، وهي بالمثل لن يمر وقت طويل حتى تجـد نفس النتيجة .

* * *

كان الجاويش (خلف) يجري خارجا من (وابور الطحين) متجها الى المركز وعلى وجهه امارات الاهتمام ، فهذه هي المرة الأولى

التي أراه فيها وقد اكتست حركاته طابع الجد ، فهو رغم أنه قائد فرقة المطافىء وعمله يتطلب الحزم والنظرات الثاقبة الا انني لم أره مرة واحدة فيما سبق بادي الصرامة واضح التعبير . لم نكن نذكره فيما بيننا الا باسم (أبو مسعودة) فلابنته الكبيرة (مسعودة) شخصية تفضل شخصيته في وضوحها وتحددها . كان الجاويش « خلف » باهت الصوت خافته حتى يكاد لا يسمع بلا نبرات أو حدة متهدل الأطراف حتى أنني كنت أشك في صلتها بجسده . لم يغضب في يوم فيصدر أمره الى نفر من أفراد الفرقة في قسوة بل انه لم يتخذ مرة واحدة صفة الآمر التي تعطيها لها رتبته . . كل ما كان يستطيعه هو المناداة على النفر باسمه في نغمة ممطوطة يتبعها بكلمة :

- وبعدين .

فلا يعير من يسمعها اهتماما اذ يعرف ان ليس هناك شيء . سأله (غرباوي) ، صاحب عربة الوابور ، وقد استرعاه ما اعترى الجاويش من تبدل :

- جرى أيه يا جاويش « خلف » .

فرد الجاويش دون أن يلتفت مدركا الشأو الذي يبلغه في تلك اللحظة :

- ركبنا صفارة الانذار سأخبرهم في المركز .

فتمتم غرباوي :

- انذار مين يا عم . . هو احنا ها يجري لنا حاجة ؟!

فعقب الأسطى (أبو أحمد) وكان قد برز من باب (الوابور) :

- قالوا الألمان قربوا يوصلوا الاسكندرية .

* * *

وقفت على حافة (الترعة الابراهيمية) اتفرج كبقية الأولاد على الجنود الانجليز تحملهم العربات الحربية متجهة بهم الى الجنوب . رفع ولد يقف بجانبي يده وصاح :

- هاي جوني .

فرد أحد الجنود بأن رفع إصبعيه علامة للنصر وصاح زملاؤه . كانوا يغنون قطعت الطريق وابتعدت لأقف بجانب شونة بنك مصر . لم تطل وقفتي اذ أخذت وجهتي الى البيت ساحباً قدمي يكتحان تراب الشارع .

وما إن اقتربت من الباب القبلي حتى ضربته بيدي بعنف ففتح لي من فوق بواسطة حبل مربوط في القفل صعدت الدرج متجهاً الى السطح حيث وقفت انظر الى الجنود من بعيد .

لم أستشعر الخوف ، ولم أحس الإطمئنان . كنت أتطلع وما هي إلا لحظات حتى سمعت صفير قطار . كان قطاراً للبضاعة يحمل أبقاراً ذات قرون طويلة . كان القطار آتياً من الجنوب .

الوقت عصر وانطلقت صارخة . لم يكن صفيرها معتاداً ، إذ اعتدنا صفير وابور «الطحين» كانت عواء غريباً وصعدت الى الطابق الثاني لأنظر من النافذة . كان صفيرها حاداً . شاهدتها تنطلق فوق (الوابور) . كان صوتها متقطعاً . والبخار يخرج من الأنبوب حاداً ، هي بعينها كما قالوا ، صفارة الانذار ولكن أي شيء تنذر ، وأين سيذهب من تنذرهم . إنهم يدبون على الأرض ولا يرتفعون بعيداً عنها وليس هناك من طريق ينزلون به تحتها غير طريق الموت .

هدأت الدنيا . ليس هناك من شيء غير معتاد دخلت أذني كلمة (غارة) كشيء مرعب يهزني . كنت من قبل أسمع أنها تحدث في الاسكندرية وأسمع كلمات القنابل والطائرات والغواصات فيسيطر عليَّ جو يدفعني الى التفكير في حياتنا . كان تفكيراً طفولياً مثل تفكير الكبار حولي .

قال عم ابراهيم للزكايبي :

ـ قال الحلفاء اخترعوا اسلاكاً تشفط الطيارة الى اسفل .

وضحك الزكايبي ساخراً من اختراع الحلفاء وقال :

ـ طيب وإيه يعني ، ممكن الألمان يخترعوا حاجة ضدها ممكن يحطوا خشب تحت الطيارة ، قوم ما يوصلش فيها تأثير الأسلاك .

قال عم ابراهيم :

ـ الحلفاء أقوى .

فرد الزكايبي :

ـ الألمان أقوى ، هوه فيه حد زي الألمان

سكتا والتفت « عم ابراهيم » مبتعداً .

* * *

قال عمي الحاج أحمد :

ـ هتلر في العلمين .

فرد (سيد أفندي) :

ـ وطيب وإيه يعني مونتجمري قعد هناك برضه .

كان (عمي الحاج أحمد) فكه الروح ، كثير المداعبات يحب الحديث ، ويسمع كل كلمة ويردد كلمات غيره . لم يكن بصاحب رأي ولكنه صاحب أحاديث يحب أن يسمع دائماً صوت الناس ، لا يطيق أن يجلس بمفرده ما إن يخلو الدكان حوله حتى ينادي على (أبو نور) وينبشه بكلمة . أو حديث سمعه من شخص آخر فتنسال الكلمات من فم جاره وهذا ما يبغيه ، فينصت باهتمام وتتابع حكايات « أبو نور » إذ ربما بدأت بالحرب وانتهت بالحديث عن زوجته .

قال عمي الحاج أحمد :

ـ يظهر أن الألمان سيهزمون الانجليز ، ويحتلون العالم .

فعقب « أبو نور » مستعجلاً كأنه كان ينتظر كلمات عمي على أحر من الجمر :

ـ لا . . لا يا حاج دا الانجليز قواي بس عندهم صبر . مفيش قد صبر الانجليزي إنت بالك يا حاج ان هتلر عايز مصر ابداً . . دا عايز قنال السويس علشان يقطع الطريق على الإنجليز والإنجليز ما يسلموش في قناة السويس ابداً . . إلا إذا كان هتلر فناهم .

تحول عمي بالحديث جهة أخرى واسترسل أبو نور يتابعه بالحكايات .

* * *

هزتني صرخة طويلة دكت صدري فعرفت أن حالة الصرع قد

أخذتها . مسكينة كم تعاني (ابنة عمي) منذ أن وعيت وأنا أعرفها راكحة على السرير لاتتحـــرك . فانظر اليها من بعيد ولا اقترب منها كم من مرة نادتني أن أقترب . فلم أستطع أن أجيبها ودفعتني أمي مرة للاقتراب منها فوقفت لحظات ارتعد وما إن أطلقتني يدها حتى ابتعدت وغادرت الغرفة . قد يمر شهر ولا نسمع صرخة الصرعة وقد لا يمـر أسبوع الا ونسمعهـا فلا وقـت لهـا . . وتـردد أمـي أو امـرأة عمـي كلمات :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم اللطف يا ربي .

ويقشعر جسدي ويسيطر علي هم وارتعد رعدة خفيفة غير مرئية وأغادر منزلنا .

لم أحاول رؤيتها وقد انتابتها الحالـة . الشجاعـة تخوننـي ان فعلت فقد أقع مثلها منتفضا .

* * *

لـم يتكرر عواء صافرة الانذار كثيراً ، ثـلاث أو أربع مـرات وغالباً ما تكون قرب المغرب ولا تلبث فترة طويلة حتى تطلق صفرة طويلة واحدة دلالة الأمان .

سألت الجاويش خلف وكان جالسـاً أمـام دكان عمـي الحـاج عمر : فين الغارة ؟

وأجاب بصوته البطىء الخافت .

ـ الطيارات فوق . . في السما . . ما تقدرش تشوفها .

قلت :

- فين القنابل ؟

أجاب :

- همه هيرموا قنابل على إيه داهمه بيدوروا على المعسكرات .

سألت :

- فين المعسكرات :

أجاب :

- مفيش

وكدت أن أسأل عن الداعي الى الصافرة . وكأنما أدرك بنظرته ما يجول بخاطري فقال .

- خلاص . . بطلنا صفارة الإنذار . . المركز قال مفيش لزوم .

وكأنما لم يقنعني جواب الجاويش خلف فغادرت المكان مبتعداً ولحقني صوت (عمي) ان لا تبتعد كثيراً .

* * *

طبل يدوي حتى حسبته يهز الجدران . الدوي في إيقاع قلبي ينجذب ثم ينفر . رائحة البخور تخرج من بيت الدوي الى الشارع . أردت أن أسأل عن السبب فخجلت أن أسأل الرجال . إيقاعات الدوي تلاحقني وأنا آخذ طريقي الى البيت سألت من قابلني من نساء بيتنا عن سبب الدوي الموقع ، فقلن :

- هذا زار .

لم أفهم معنى الكلمة ، ولكنني خفت وتمنيت خفوت

الدوي . استمر فترة ليست بالقصيرة ثم سكت فهدأت نفسي . كان الدوي ايقاعاً ، وتمنيت في أعماقي ايقاعاً بلا دوي .

* * *

قال (عم ابراهيم) :

ـ الدنيا غليت .

كان الحديث عن السوق .

فقال الزكايبي :

ـ كل شيء هيبقى بالبطاقة .

فتساءل (عم ابراهيم) :

ـ حتى الذرة .

فقال الزكايبي :

ـ يمكن !

قال (عبد الحكيم الترزي) :

ـ يعني الواحد يروح فين ؟ وأجابه اخوه الأسطى أحمد :

ـ أحمد ربنا .

فدمدم غاضبا :

ـ احنا حامدينه يا أسطى زفت . . لكن مفيش ولا زبون جاب حتة جديدة عايز يفصلها كلهم عايزين يقلبوا بدلهم .

قال اخوه هادئا :

ـ الناس هتعمل ايه معذورة .

ولم يعجب الرد الأسطى عبد الحكيم ، فنهض وتفل وتمتم .

ـ اعوذ بالله .

* * *

وقفت أنظر اول مرة ، ثم اعتدت مشاهدتهن على هذه الحالة . امرأة تقف في مواجهة امرأة أخـرى قد يكن بعيدات أو قريبـات من بعضهن البعض ويتبادلن الكلمات والاشارات الجارحة ثم الأصوات من الأنف بين الشفتين . لا يقول الرجل شيئاً حتى ولو كان قريبا ، بل إن إحداهن قد تعير الأخرى برجلها ، والرجل جالس أو هو واقف ينظر .

كانت امرأة (الزكايبي) من أشهرهـن ردحـا ولكنهـا أقلهـن معاركاً والشارع القبلي أحفل بالصدمات من الشارع البحـري كنـت أراهنَّ يتخذن طريقهن الى الترعة يملأن جرارهن أو يغسـلن ملابس رجالهـن . . يبـدأن رحلاتهـن في البـكور . عرفـت وجوههـن واسماءهن .

كنت أخشاهن فلا أبدو أمامهـن في النافـذة فما أوقـح العيون الفارغة والنفوس المدكوكة .

* * *

النفوس بقايا والدنيا حولنا خامدة . المدرسة الابتدائية قريبة من البيت ، والمركز مجاور لها . شونـة بنـك مصر خلف المركز . عالـم محدود ساكن . الحركة تأتي من بعيد ، لا يحب أحد الحركة اعتادت النفوس حالتها .

حتى الأخبار كانت نادرة ، كأنما الحرب تدور في كوكب آخر تختلط - اخبارها بمعارك النسوة في الشارع القبلي .

لم يبحث أحد عن دور ، فليس باستطاعته ان يكون له دور ، ولم يخبره أحد بأن عليه أن يقوم بدور .

كانت نماذج من اللحم غير مرئية المعالم وجدت في هذا المكان وتعايشت فهي كما يقولون تعيش للقمة العيش .

هزت « عيوشة » الغربال فهي رغم ضعفها وكبر سنها تعرف كيف تنظف القمح جيداً من التراب . منذ أن وعيت الدنيا وأنا أعرف (الخالة عيوشة) في بيتنا . تبيع الحليب في الصباح ثم تأتي وتستقر في بيتنا حتى المساء . نحيلة قصيرة . ولكنها قوية البنية . . في فمها بقايا أسنان . قالت وقد كانت خائفة .

- جري ورايا ، فكسرت المحلاب .

لقد خشيت أن يضبطها موظف الصحة وقد غشت الحليب . فهي تنكر انها تغشه ، ولكنها رغم ذلك كسرت المحلاب .

* * *

الصراع بعيد في الأفق بين البشر . لم يقترب الصراع منا . كانت النفوس مطحونة ، سقطت منذ زمن من غربال كبير . لم يبق في الغربال الا حبات سمينة جيدة . كانت هناك يد كبيرة ضخمة تهز الغربال ، فهل تستطيع حبات القمح ان تصارع الغربال ، القش والتراب وحبيبات الطين تسقط من الغربال فهي لا تعرف غير السقوط

والبقاء على الأرض حتى تكنسها يد قوية . هناك يد أو أيد تتصارع فمرة تهز أحداهما الغربال ، ومرة تهزه الأخرى وحبات القمح تختلط فتتضارب وتتغير أماكنها ، وحبيبات الطين والقش تتساقط . قد تمسك يد بجانب من الغربال وتمسك الأخرى بالجانب الآخر وكل منهما تريد أن تهز الغربال فهذه تهز وتلك تهز فلا يهتز الغربال . وتبقى حبيبات الطين في الغربال مثلما تبقى حبات قمح في الغربال ، فالأيدي تتصارع والغربال يهتز بلا وتيرة ولا إيقاع .

II

"كل انسان عنده تلك اللحظة ،
أو أنه يمتلك القدرة على أن
يستحضرها ليعيشها ، ولكنه
نادرًا ما يفعل ، إذ هي لحظة
تتطلب انفعالاً وتوقدًا ، مما
يجعل الانسان ذلك الهياب
المتخوف المتناسي لها حتى لو جاءته
على حين غفلة . "

— 1 —

. . . وبـدأت أنشر القصص في جـريدة المسـاء . لـم أحاول الكتابة قبل ذلك . كانت محاولاتي قليلة . لـم أحاول كتابة الشعر الا مرة واحـدة . استـولى عليّ الايقـاع الـداخلي ، وامتـلأت نفسي بالإضطراب ، وفاضت عيناي بالدموع ، وأسرعت ضربات قلبي ، وسودت صفحتين ، خيل الي بعد اتمامهما أنني أتيت عجبا ، وتركتهما جانبا يوما أو يومين ثم عدت اليهما ، وما أن أتممـت قراءتهما حتـى مزقتهما . كان كلاما رديئا مسجوعا ، فاقدا للموسيقا وان خيل الي أن الايقاع منه يرقص الحيطان . لم أقل بما كتبت شيئا ، حتى المشاعر التي اعتقدت انني عبرت عنها لم المح شيئا منها تؤديه جملة أو كلمة .

لست بشاعـر . هذا ما أقتنعـت به . لم أخلـق لكي أجعـل للكلمات إيقاعا ، أو لكي أصوغ مشاعري أبياتا أو تفعيلات ، وهنا كانت حيرتي والسؤال الذي ظل يطاردني . لماذا خلقت إذن ؟ قطعا إن في بردي شيئا يتصل بالقلم . فالعلاقة التي قامت بيني وبين كل شيء مكتوب لم تكن علاقة عابثة أو تسودها روح المنتهز الذي يريد أن يحقـق مغنما سريعـا . كانـت علاقـة حميمـة ، فيهـا مودة ، وفيهـا تعاطف . عيناي يغطيهما الضباب في فترات كثيرة ، ولا يفرق بيني وبين الحرف الا التعب ، فأترك الكتابة مرغما .

فهل من نتيجة لذلك ؟ أكان في القراءة ما يكفي ، فهي نتيجة في حد ذاتها ؟ لم أكن اعتقد ذلك ، بل كان في نفسي ما يجعلني أؤمن بأن القراءة وسيلـة الى التغيير ، والتبـديل ، والتمـرد ، والثـورة ، وصنع الأحسن . وهذا ما بدأت ألمسه داخل نفسي ، وبقي علي أن أحاول صنعه من أجل غيري . وكنت أبحث عن شيء يحفزني . لم أجد شيئا فيما حولي . ولكن في أعماقي كان هناك ما يحفز ، بل ما يدفع بعنف وضغط الانفجار . لم يسعفني الواقع بما يخفف عني فيجعلني أزهو وأفرح ، وأترك ما أنا فيه من كدر .

وكان لا بد من مخرج . كان مخرجي الحديث والنقـاش اذ هما يصلحان كمرحلة اولى ، إنهما بداية الطريق للتعبير والتفريج ، على ألا تتحول الكلمة عندي كما عند بقية الناس الى الثرثرة . والاستيلاء على الاسماع بكل غريب ، فلم يكن ذلك ابداعا ، ومـا أعـانيه هو محاولة الابداع . إنني ما زلت اذكر أن أول عنـوان كتبتـه على ورقـة احتفظت به طويلا هو « وعي وابداع » . اذن فقد كان الوعي عندي يسبق الابداع . لم يكن الأمر مجرد فورات عاطفية تصب في قوالب شعرية قد تعكس حالة كبت أو تمنٍ أو حب أو رغبة ، ولكن الأمر كان أعمق من ذلك . كان وعيا بالواقع الذي يحيط بي ، وتمـردا عليه ، ومحاولة لتغييره . فالقراءة عندي كانت طريقـا الى هدف ، والتعبـير عندي كان وسيلة لشيء هو الذي يحتدم ويضطرب في القلب والعقل ، وكان الشـوق اليه يختلـط في داخلي بشيء غامض ، أتشـوق اليه ولا أعرفه . دائما أسمعهم يتحدثون عنه ، وما كنت أعتقد أنهم تمكنوا من غرسـه في أعماقـي الى هذه الدرجـة . أهلي جميعهـم اذا أخذهـم

الحديث ، وتدفقت آراؤهم وعواطفهم ، ذكروه وعيونهم تومض ، أما قلوبهم فلا شك انها كانت تدق دقا لم تعتده صدورهم . فالواجب شديد ، والوجد - دون قسم - كان أشد . كانوا يتحدثون عن الوطن ، ولم يكونوا يدركون ما يصنعون بي . زادوني قلقا وحيرة ، ووضعوا بذرة التمرد وأوصلوني الى التشوف الهائم ، وبحثي الدائم عن ركائز اجعل بها نفسي فاعلة متفاعلة ولا تبقى مجرد حاملة أشواق ، قد تعرف بها منتهاها وقد تضل الطريق .

ما أشدها قسوة على النفس أن يضل الانسان طريقه الى وطنه . فلن تظلل مثل هذا شجرة ، ولن يجد يوما حبلا يعصمه ، ولا حبلا يتمسك به ، ولا قطرة تبل جوفه .

إن الضلال هنا معنوي ومادي ، والعفوية فيه ليست خاطرة ، ولكن العفوية فيه تمكنه من الذات وتواجدها . إنه البناء الذي اذا انهدم كان يعني انهدام كل ما يتصل به من معان وقيم ومشاعر .

هو ما كنت أشعر به ، وكانوا بجبروتهم أن جعلوا الشعور واقعا ، وكان علي أن أجد التعبير الواعي عما أحس . لم تعد الاخبار تكفيني ، ولم اجد في الكتب ما يشفي غليلي .

كنت أريد الحديث عنه ، وتراباً وجبلا وشجرا ، وجفافا ، وجرادا ، وخضرة وشعيرا ، وجوعا وعطشا . كنت أريده مجسما ، متحركا مبدعا ، قادرا بضعفه . من يقول لي أن عمر المختار يمكن أن يجسم ذلك . من يعطيني كتابا يقص علي جوهر الانسان ، أعماقه ،

وأبعاد ذاته الحقيقية . كل من كتبوا كانوا يتحدثون عن مشكل البطولة وحركتها ، وكنت أبحث عن عناء البطولـة في تجسيد الوطـن . كل عمـل أو كلمـة لا تعنـي عنـدي غـير جملـة واحـدة (حـي على على الوطن) . فهو الوطن الذي كونك ، فلم يجعلك أجوفا . هو الوطن الذي جعل غربتك معنى ، والحنين قدرة ، والعاطفة شوقا والتشوف بلاغة ، وقبل ذلك كان لا بد من الوعي ، حتى يكون الابداع ، لم تجعل مني كلمات السخرية شخصا محبطا يوما ، وإن استطاعت كلمة وتصرف احد الكتـاب في مصر بل تصرفـات وكلمات العـديد منهـم استطاعت ان تجعلني أقول :

- سأعود . . ليس هناك ما يدعو للانتظار .

لم تكن اندفاعة ، بل تصميم انتظر وقته ، وكنت أظن انني هناك استطيع أن أقدم لوطني كثيرا ، وكان المجال الذي اخترته وهو الكتابة فعالا . كان للكلمة معنى ، فلم تكن تخرج الا وبها شيء من روح صاحبها .

فما كان أشد استحقاقي للعطف إذ أنني كنت مخدوعا ، فالكلمة كالشجرة تريد ترابها وجوها . إذ هي ليست غماما أو هياما ، بل هي عروق ودم وعنـاء ، وبـدون ذلك فليس لما يسـود الصفحـات من معنى !

— 2 —

كدت أعانق شيئـا غـير مرئـي ، أفتـح يدي الى مداهـا ، ثم أضمها الى صدري ، كدت أفعل ذلك ، ولكن شيئا في نفسي منعني وجعلني أعود الى موقفي ، هل أعانق الهـواء ؟ واذا كان وفعلـت ،

فهل ما كدت أفعله يعقله من هم حولي ؟! وهل أنا مطالب بالعقل ؟ ومن جعلهم يراقبون تصرفاتي ، ومن أعطاهم الحق في منعي من معانقة وطني . ما أعانقه في داخلي وان لم يره أحد . ما أود أن أضمه الى صدري ، ضمه صدري منذ الأزل ، لم يقصرني أحد على ذلك ، ولم أؤمر بفعله أمرا ، ولم يطلب الى صنعه فهو شعيرة . إنه هناك يقبع في القلب ، قبوع المتحرك المتحفز الصائر غير الثابت . إنه يسير مع الدم فيصعد الى الدماغ ، فيرسل إشاراته الودودة الحية الهادفة الواعية ، ثم يسير الى الأطراف فترتعش ، والى العينين ، فيومض البريق ، ويمتلئان بالحنان ، الى القدمين فتسيران تقديسا ودفاعا .

إنه منذ أن كان وجودا ، كان دما ساخنا غير جامد ، هو الحياة ، فهل استطيع أن احتضن الحياة بيدي ؟ إن الحياة تحتضنني وتضمني مثلما تضم غيري . فوجودي بها وفيها ، وهو الوطن حياة الانسان ، فهو مثلها يحتويك ، وإن حاولت أن تحتويه ، فما هو الا فعل وجدان وشوق .

وقفت على الحدود انتظر مع غيري . كنت عائدا من المهجر أحمل وثيقة عودة نهائية ، عليها صورتي ، وطابع السفارة . كان تاريخا لا ينسى . وعلى الحدود وقفت انظر . الكلمات ليست غريبة . بعض المعاني والنبرات لا أستطيع ملاحقتها ، الوجوه تجاعيد ، والأيدي عروق ، والنظرات لا يتملكها التطلع كثيرا ، والسؤال عمن أكون ولمن انتسب ، إلى أية جهة ، وأية قبيلة . تمردت كثيرا أن يحددني إنسان بجهة واحدة . أنا أنتمي الى هذا الوطن . أتعرفون ؟! من هذه الحدود ، من هذا المكان ادخل الى حيث لا يقول لي أحد

شيئا . أنام حيثما شئت . لا أريد أن أكون مطاردا . أريد أن أعرف كما يعـرف تراب الوطـن ، ورمالـه وأشجـاره . لا أريد أوصافـا تحددني ، ولا علامات فارقة تفرق بيني وبين هذا الشمـول ، فأنـا قطرة عادت الى بحر ، وأنا كلمة رجعت الى ايقاع الشعر . أنا مسئول عنه ، فاذا سألتم فاسألوا عن هذا الشمول ، كيف يشملني ، وكيف استطيع أن أجعله في عقلي ، وأعيه وأعمـل من أجلـه . لم يضعـه أناس ، صنعه تاريخ طويل من معانـاة البشر ، وحـركة القوافـل ، وصراع القوى ، كلهـا تضافـرت لتعطينـا ما نستـطيع أن نحمـل في الوجدان والعقل .

لا تسألني الى أي جزء أنتمي ، بل اسألني عن مدة ابتعادي ، وعمن فعلها ودفعنا اليها ؟ ثم اسألني عن العناء ، وعن الحزن تحول الى الغناء ، وعن الغنى وقد أصبح فقرا ، فهو احتياج الى معنى ، لم يخلفه معنى غيره .

كان الوعي بداية الطريق ، ولكنه لم يستطع أن يبعد وجداني عن الاهتزاز إغراقاً فيه ووجدا صوفيا متكونا به ، ومكونا له ، الوعي لا يحد الانطلاق والتواجد في لحظات السمو والاشراق والسنـا . بل الوعـي يجعلك تدرك هذه اللحظـات وتعـرف أن بهـا يتـم وجــودك الكامل . وجودك منتميا الى وطن محدد بمرحلته التاريخية ، عاملا من أجله ، دون أن تمل . فاذا ما وقفت يومـا على حدوده ، كالغـريب تنتظر الاذن لك بالدخول ، فانت كالواقف أمام محراب ينتظر الدخول بلا تمرد . لا تتبرم بالوجوه وقد علاها الصدأ ، فللسنين فعلها ، لا تحـزن من الـكلمات وقـد تلاشى رنـين الوجـدان منهـا فللتجــارب

نتائجها ، لا تقلق من الانتظار ، فللرتابة والسعادة جبروتهما .

اسمع صوتا يقول : إنظر إليه واقفا ما زال . . هناك عند الحدود ، ينشد كشاعر الربابة اشعار مدح هزيلة ، مستدرا عطف أصحاب الدار .

بل إسمع إليه يردد أوهام الطبقة الوسطى وهي تريد حدودا ، تفصل بينها وبين غيرها حتى تتسع أعمالها التجارية ، وتتكدس الأموال . هذه الطبقة التي قالت بوهم الوطن . وهي التي صنعت الحدود ، حتى تجعل للصراع بينها وبين مثيلاتها نقطا تقف عندها . إنها وضعت نقاطا وعلامات حتى لا يكون العراك مفضيا للموت ، موتها ، بل يكون العراك قاتلا لغيرها . وسمت الأشياء التي حوتها الحدود وطنا ، ثم سمت ما بعدها ما شئت من أسماء الأبعاد .

هذا ما فعلته هذه الطبقة ، عندما كان دورها يقود العالم ، وجاءت لتفعل ذلك أيضا بمن تبعوها ، بل هي قد قسمت اجزاء أخرى الى أوطان ، لم يعترض معترض ، ولم يرغب راغب في ذلك . هي التي فعلت عندما سادت العالم ، فرسمت ووضعت القانون ، واحترمته ، ثم خرقته ، ثم رفعته ، ثم جعلته تنظيما ، ثم نظما ، ثم حركة ، ثم اتفاقا ، ثم وفاقا .

لم تسألك عندما فعلت ذلك ، ولم تشارك غيرك ممن يحتدمون وجدا بأوطانهم ، ولكنها استعملت اصحاب مصالح ، ومن اشتروا وجودهم بالشيء الوحيد الذي يعرفه الناس . بالمال ! فهو الذي من أجله صنعت الأوطان في مرحلة ، وهو الذي من أجله قسمت أمكنة

أخرى الى أوطان ، وهو الذي كان ، وسيكون .

هو التاريخ يقول ذلك ، وحركته وفعله ، وطبقاته ، ولكن ألم يكن ذلك الوهج موجودا ؟ الم تكن الدماء في الجسد عندما يحتدم الجسد ويخرج عن حالاته المعروفة من الرقة والتسامي والشوق والمودة ، الى حالاته الأشد معرفة من التمزق والتقاتل والغيظ والحنق .

بله الوهج موجود في كلتا الحالتين ، لم يخرجه احد من الجسد ، ولكنه ينتهي عندما تسيل كل الدماء ويتلاشى الى أشلاء ، وقتها لا يبقى من الوهج وميض ، ولا يكبر شيء غير الانتظار والأمل .

مثل ذلك هو الوطن كائن وهجا ، تخلق على مهل عبر الصراعات ومعها وبها ، ومن التقسيمات ، نتيجة لمصالح الطبقات ، ولكنه كان وهجا فيه تعترك وتسيل ، هي كالدماء دون أن تعي أنها تحمل وهج التواجد الأبدي :

« أن تقف يوما على حدوده ، فتنفذ الى قلبك رائحته ، وأنت بعد لم تر قسماته » . .

— 3 —

كنت أحمل حقيبة صغيرة ، لا يوجد فيها غير جلباب وطاقية ، وبعض الأوراق وقلم رصاص . لم يحيرني سفري مثلما يحير الكثيرين ، فلم الحيرة وأنا عائد الى وطني ؟ فهل لا بد من أن أحمل

شيئا وانا عائد . ومثلما لم تكن حقيبتي تحتوي على شيء ، فكذلك يدي ، فهي لم تكن تقبض على غير دنانير قليلة لا تتجاوز عدد أصابع اليدين .

لم أكن خائفا ، كنت مطمئنا . كانت جوانحي مقبلة على امر طال انتظاره . وكلما طال الانتظار ، وزاد القلق . وجدت نفسي تهفو اليه دون أن أحدده رغم ما سمعت عنه وعرفت وأدركت ، إلا أنه ظل ذلك المعروف المجهول . الذي كلما أزددت منه قربا كلما تبين لك انك لم تعرف عنه شيئا ، وانك ما زلت بحاجة الى أيام وشهور وسنين لتعرف ، ولتدرك أن المعرفة كانت هي طريقي ، وها أنذا آخذ الطريق الى وطني . فالتقى الطريقان ليصبحا طريقا واحدا ، صاعدا حتى وان هبط بمن لا يعرفه ،فهو طريق أرى في منتهاه ضوءا يعشي الأبصار لا يراه غيري .

كدت أقف وأنادي الجمع المحيط بي ، تدفعهم تلك الرغبات الصغيرة ، والحوائج المرتبطة بالهنيهات ، يمدون أيديهم فيبدلون عملاتهم ، أو يشترون أشياء ، أو يسألون عن أسعار البضائع ، كدت أناديهم أن قفوا معي وانظروا . . . هناك الضوء ، حيث تتجمع النفوس في قوة ، اذ اخذت طريق المعرفة والادراك . تلك هي النتيجة الباهرةالمنتظرة ، التي ينتظرها كل فرد ، فهي الضوء الأبدي الذي تسير على هداه القلوب فلا تضل وتعمل في هداه الأيدي فلا تكل ، وتبدع في سناه العقول فلا تمل ، هو التجمع الذي يدل على الوعي والقوة ، ونهاية الطريق البداية ، إذ هو النهاية البداية ، الصيرورة الحركة ، هي نهاية عندما ننظر وقوفا ، وهو الحركة عندما نعي

ونفكر ، وهو الصيرورة في فعلها المستمر المتفاعل مع فعلنا .

الانسان لا يقدر أن يقول أنني إبن كل قوم وأعمل من أجل كل انسان على وجه البسيطة . إنه يتحمس ويقولها منفعلا ، ولكنه ما أن يحيط بمجالات الفعل ، حتى يجد أن استطاعته لا تتعدى حدودا ، ولا يمكن أن يكون ما يترتب على الاستطاعة عاما شاملا الا بعدها يرتكز داخل هذه الحدود ، لتتقد الجذوة ، ويرتفع الضوء ، ويتوفر الوقود ، وتنشحذ القدرات . إنه تحقق جمع داخل حدود الارادة والاستطاعة ، فلا يتبعثر ولا يدخل فيه ما يفسده . إنه الامكانية مقاسة بكل مقياس اعطته لنا الخبرة ، والتجربة والفهم والوعي ، وليس ذلك التشتت الذي تضيع فيه القيم والمعايير، وتصبح الخبرة مجرد فهلوة ، والتجربة ليست اكثر من قفزة الى المجهول . . . يصبح العطاء هبلا ، والتضحية شذوذا ، والفهم خبثا ، فيضيع كل شيء حيث لا منطلق ولا مطرح قدم لفعالية نشطة ، ولا مدى نظر لمجال ابداع ، وعندها لن يكون غير الاختلاط العشوائي ، والخلط بين كل معيار ، لا فعل ولا فعال ، ألا من ينتهز فيقفز ، ولا يصعد ليأخذ ، فلا مجال لعطاء .

نظرت الى الاتساع أمامي ، لم أر شجرة . لم أر غرسة صغيرة . ليس من نبتة . صخور جرداء ، وحصى وحصباء . ورمال في المدى وغبار . وتذوقت طعم التراب ودمعت عيناي . الأصوات حولي لم آلف أيقاع مخارج الحروف فيها ، هي غير غريبة عني ، إذ كنت اسمعها من افراد في أمسيات عند أعمامي بالنهار ، ولكنني لم أسمعها من قبل تجمعا وهرجا وصياحا وجدالا . رأيت أمثال تلك

الوجوه من قبل أفراد يعرفهم أهلي ، أو هم أقرباء يأتون للزيارة ، أو هم تجار يتعاملون مع أعمامي ولكنني لم أر وجوها تجمعت وبانت عليها التجاعيد ، والتفت بأشياء لم تترك من علاقة توحي اليك بما يجمعها هي والصخور والحصى من وشيجة لا يغفل عنها الا من هو مثلي . هزتني شظية غريبة خفت منها . أيشعر عائد الى وطنه بالغربة ؟ كيف أذن لا يعود من حيث أتى ؟ أتعطيه هذه الصخور والحصى والحصباء وطنا ، ومذاق التراب يملأ فمه ، وتغطى ذراته أهدابه . التصقت صفائح دقيقة بالعرق على جلد وجهي ، كأنما مرغ بيد خفية في التراب .

ليس بالعائد المتعالي ، كان ذلك المتواضع الذي لا يكتنه تواضعه ، فهو حياته ، وفعله وعمله وحركته ، فشاءت إرادة أن تعجن تواضعه بالتراب ، وألا تجعله يلوك كلمات أو مشاعر لا علاقة لها بما حوله .

لا توجد غير غرفتين ، فيهما رجال الحدود ، ينظرون الى الأوراق ، ويتخذون الاجراءات وبعد نظرات وأسئلة يعود كل فرد الى مكانه بعدما يحصل على تلك التأشيرة .

شملتني الراحة بعدما فعلت ما فعل غيري . لم تكن الورقة التي أحملها غير وثيقة عودة نهائية ، حصلت عليها من قنصلية اسكندرية ، بعدما شهد اثنان من المعروفين لدى السفارة بأنني ليبي . كان أحد الشهود قريبا لي ، بعدما رفض قريب آخر حانق علي ، إذ لعنني وأنزل سخطه علي ، وتبرم مما طلبته منه . كان هناك

في النفوس من السخام ما لو اخرج لأمكن طلاء مدينة به ، لتصبح ظلاما في منتصف النهار . كنت ساذجا فلم أبحث عما في النفوس .

كنت لا أنافق ولا أتقرب ، فأقترب . كان هناك في نفسي ما يشدني الى ذلك الصنوبر الذي أراه في نهاية الطريق .

لم يكونوا مثلي فيروا الضوء ، ولعلهم يحقدون عليّ إني لست مثلهم . نفسي لا تعرف الحقد ونفوسهم يحركها الحقد ، ويدفعها فهي عمياء ، فتلطم وتضرب وتنفث . لا تسكن نفوسهم الا عندما توقن بأنها قد غلب على أمرها ، فهي لا تقدر على شيء . هي ناظرة الى ذواتها في تشف أو انتظار أو هي تتقرب في تملق ودهاء حتى تأتي مرحلة حقد اخرى ، ويكون لديها المقدرة على فعل شيء . .

الأشواك منذ تلك الأيام أراها . لم ينسني وطني ما أحسست من مرارة في نفسِي ، رغم أن مذاق التراب في فمي كان حلوا ، إلا أن مرارة من تلقيت حقدهم بصدر مكشوف كادت أن تطيح بكياني . تماسكت مع الأيام ، وبقيت رائحة البحر في الاسكندرية عالقة بصدري ، بل إن أنفي لا يعدم شبيهتها كلما مررت ذات يوم قريبا من شاطىء بحر .

لم أسأل أحدا . أحاول أن أذكر من كان من النفوس ، أو أَستعيد ملامح الوجوه ، أو استدل بشيء أعيشه عله يرجع اليَّ لحظات مشابهة وأنا واقف على الحدود . هاه . اذكر أنني كنت أبحث عن شيء صغير أُنطلق منه . هو مرتكز وليس منطلقا ، لست بالذي يخطىء في حق نفسه فيعتقد أن بامكانه أن يكون صاحب منطلق . كان يكفيه أن

يكون صاحب مرتكز . كنت افتقد ذاك الشيء الصغير . أو ربما كنت قد أضعته . فأنا متلاف ، لا أعني بالشيء الصغير مثل النقود ، أو الطريقة التي تحصل بها عليها ، ولكن أعني المرتكز الذي بدونه لا تتكون الشخصية ، ولا تتحدد خطوطها وطريقة تناولها للأمور . إن المرتكز هو الشبيه بموضع القدم ، تضعها فيه ، لتستند بكل جسدك عليها ثم لتندفع مسرعا . فعلى قدر صلابة مرتكزك وقوة جسدك واحتماله يكون اندفاعك تواصلا وتمكنا .

وكم من نفوس اخطأت مرتكزاتها ، فسقطت وهي تحسب أنها انطلقت .

— 4 —

هذه الضخامة أراها ، وأحس بها تدفعني . لم تزدني فزعا ، بل رجعت إليَّ اطمئنانا وقوة . آفاق بلا حدود ولا نهاية . اسمع بالمواقع والمدن وأحسبها قريبة فاذا هي أبعد مما أظن . انها تجمعات بسيطة وكنت احسبها تضج بالناس . أكواخ من صفيح في بعض الأحيان ، وأكواخ من حجارة في أحيان أخرى . كان موقعها في أغلب الأحيان عند نهاية مسرب هي طريق ترابية تخرج من الطريق الرئيسية . . السائق يتحدث مع الراكبين ، وهم بدورهم يحدث بعضهم البعض ، ما عداي ، لم أجد لغة اتحدث بها . لقد أصبحت لغتي خاصة بي ، فهي كلمات بلهجات مختلفة تتراوح بين اللهجة الليبية ، والمصراتية على التحديد ، والتي كان يتحدث بها أهلي في دارهم ، وقد بعد الزمن بيني وبينها ، واللهجة الصعيدية ، أو هي

لهجة مصر الوسطى على التحديد بل قل لهجة « مديرية المنيا » ثم غطى ذلك اللهجة القاهرية ذات ـ الآء ـ الى كثير من الـكلمات والأدوات الفصيحة ، والتي أصبحت لغة المثقفين مع بداية الخمسينات ، فهل باستطاعة أي منهم أن يفهمني بهذه الواسطة الجديدة . حاولت أكثر من مرة أن أخلق مجال حديث بيني وبين أحدهـم ، فأشـير الى شيء وأسأله عنه ، فلعله فهم السؤال ، إذ أسمعه يتحدث فلا أفهم ، ثم أعقب دلالـة على فهمـي ، فأرى على وجهـه علامـات الاستغـراب والعجز ، اذ هو لم يفهم شيئا ممـا أقـول ، فيأخذنـي التبـرم بنفسي وأسكت متلهيا بمـا أرى أمامـي . مساحـات من الرمـال وقطـع من الصخور ، وأكواخ وبشر .

هذه اللانهـاية واللاحـدود ، هنـا يضيع البشر ، وهنـا بدأت المعارك وانتهت. بقايا الحديد وهياكل آليات متآكلة، صنع من بعضها علامات على الطريق ، وترك الأخر وسط اكوام الرمال ، ليحدث فيه الزمن آثاره . تضمني الرمال ولا تطبق علي ، أراها فيحرقني الشوق الى معرفة نهاياتها ، فهي تمتد بلا نهاية . الأفق بلا حدود ، ونفوس من هم حولي مطمئنة ، انسوا حيث لا أنس ، ونفسي متمردة متطلعة قلقة . تحس الاطمئنان ، ولكنها لا تأنس ، متطلعة فهي لا تكن ، قلقة فهي متمردة ، فهي مشوفة فهي متشوقة .

هذا الغطاء الذي كنت أبحث عنه عندما كنت عريان بلا وطن كانت كلمة « مغربي » تدكني وتبعدني عمن حولي ، وعـن الواقـع الذي كنت أحاول غرس أقدامي فيه . هم يقولونها بلا حساب وأنا كل مرة اتلقاهـا من أفواههـم أحسـب حسابـا لوقعهـا ، فهـي مريرة اذ

تبعدني ، وتضعني في ركن قصي وتضع حولي اسوارا ، ذلك أني غريب .

أكان من الضروري إطلاق مثل هذه الكلمة علي ؟ ألم يكن في مقدورهم اختيار صفة اخرى لي ، اذا أعياهم معرفة اسمي وهم يعرفونه ؟ كان في مقدورهم أن يفعلوا ، ولكنهم آثروا ذلك ، ففيه ما يدل على ضياعي ، وغربتي ، وبالمقابل على ثباتهم ومواطنيهم . . إنهم ينسبونني الى جهة من الجهات الأربع الأصلية ، الى مغرب الشمس ، الى الامتداد الذي يقع الى غرب مجرى النهر وواديه حيث الثبات والاستقرار والدوام . هذا ما يعيشونه ويموتونه في نفس الوقت ، وهذا ما لا يعرفه غيرهم وخاصة هؤلاء المغاربة شذاذ الآفاق ، والذين يأتون ليكتبوا الأحجبة ، وليفتحوا الكتاب . وليكذبوا على الله وعلى عباد الله مثلهم . فأنا ابن عائلة منهم . هكذا تثور في اعماقي التساؤلات . فأنا غير منسوب الى وطن . أنا ابن شذاذ الآفاق يأتون من المغرب ، حيث تغرب الشمس في الرمال ويختفي وهجها . هناك ينبت امثال أبي وأعمامي ، ليأتوا الى بر مصر ، ليعيشوا معيشة غرباء ، فهم لم يأتوا من وطن فكيف يكون لهم وطن من بعد ؟

لم تكن الكلمة سيئة باطلاق المعنى ، إذ لها جوانب مضيئة . وهنا التناقض العجيب ، فهي بقدر ما تعني الغربة وعدم الانتماء إلى أصحاب الوادي ، تعني في الوقت نفسه الصدق والصراحة ، رغم اتهامهم بالكذب . فهم لم يعرفوا عنهم الغش والتدليس ، ولكنهم عرفوا عنهم تلك اللهجة الحادة والصوت الخانق ، كانوا عربا ،

وكانت كلمة عربي تطلق موازية في المعنى لكلمة مغربي ، مساوية لصفة حاج . فالمعاني عندهم مختلطة فهي غيرمعروفة اذ لا يوجد مثلها في الوادي ، ولم ينبت الطين ما هو قريب منها . كم من مرة اشتعلت غيظا ، وتآكلت ، وطحرت ، وأنا أنظر الى عيونهم المطفأة وجباههم المسطحة الهادئة ، فلا اجد غير الارتكان الى ما هم فيه من معرفة ، ففيها الغناء ، إذ لا يوجد ما يدعو للحركة والعناء ، كل من عداهم ويستطيعون فهم كلامه او كلمات من حديثه فهو عربي ، وبما انه عربي والنبي عربي ، فلا بد ان يكون حاجا ، فسكنه الأصلي قريب من الكعبة وقبر النبي ، حتى ولو كان من غرب مصر . . !

خذ أو أترك ، هكذا خلقوا ، ومهما حاولت ان تحرك أو تعرف أو تضع في نفوسهم حجرة المعرفة ، فلن تصل الى نتيجة . اذا قبلتهم كما هم ، يمكنك البقاء معهم ، ومعايشتهم واذا لم تقبلهم فيحسن بك ان ترحل وتتركهم لوطنهم ، وابحث لك عن وطن اذا لم يكن لك وطن .

وهذا ما فعلته ، وهو ما أمرني به واقعهم ، ودلني عليه عقلي . فقد اعيتني الحيرة ، وامضني القلق ، وتعب قلبي . اتجهت غربا ، بعدما اتجه أبي وأعمامي شرقا ، كانوا مهاجرين يحملون وطنهم بين ضلوعهم ، وها انذا عائد أرى وطني أمامي منبسطا واسعا ، بلا حدود ، بعدما اجتزت اليه الحدود ، وخلت نفسي امد يدي لأغطي نفسي بترابه .

هل سأشعر بالاطمئنان في هذا اللانهائي المهول ؟ نحن نقطع الطريق ، وليس من ملمح يدل على أننا نسير في حماية جبل ، أو كهف كبير ، أو أشجار ملتفة . كل ما أمامنا هضبة منبسطة ، تسمى تاريخيا وجغرافيا مرمريكا . . وأسمع الذين حولي يسمونها البطنان .

قلبي ينتفض شوقا الى معلم اتعلق به ، لأرى فيه نفسي وتاريخي ، فأدرك انه يحتفظ لي ولأمثالي بعلامات على وجودنا وعلى استمرار هذا الوجود ، فلا يقطعه شيء مهما تتابعت الأحداث ، وتواترت الكوارث .

هنا زحفت جيوش ونصبت مدافع ، وكتحت دبابات وصلت الشمس جباها ، واختلط التراب بعرق من جاءوا من شمال أوربا ، مثلما سالت دماؤهم فكانت بقعا ، فأصبحت قطعا يابسة معجونة كالطين . كانت أرواحهم تخرج زفرات وخوفا ، وهباء ، فلا هي على مشارف اوطانهم ، ولا هي ارتبطت بقيمة واضحة . كان ما يصم الأذان هو الهدير ، فلا نأمات خافتات ولا رجاء يدل على معنى . إنه زحام كزحام الحشر ، وهو العناء عناء البشر الضالين ، تقودهم قوى رعناء حمقاء ، أرادت تقسيم العالم ، الى مناطق معلومة ، فأخذها الطريق الى مجازر لا حدود لها . لم يعودوا يقدرون ان يجعلوا لتطاحنهم مجالا معروفا ، إذ اصبحت السماء كلها ، والبحار كلها والمحيطات مثلما الأرض والجبال ميادين معارك . كان تخطيطا رهيبا وتجربة لا تعاد ، واكثرها حدة ، وقمتها هي المعارك التي دارت في هذا المكان حيث تسير هذه السيارة الصغيرة تحمل سبعة من البشر كل منهم

يحمل أحلاما ورغبات حدودها لا تتجاوز امتارا بل لعلها لا تخرج عن المكان الذي يقصده .

ظهرت طبرق عند المغيب بأضوائها القليلة ، وسمعت اسمها منهم . كانت بالنسبة لي تعني علامة على مواقع حربية ضخمت لي المدينة ، فاذا هي أمامي قرية عند قدمي هضبة على خليج ليس واسعا مياهه هادئة ، فلا أضواء ، ولا ضوضاء ، بل سكون الغروب .

خفت ان تتغاير تصورات كثيرة في نفسي ، وأكثر ما أخافني أن تتغير ملامح الوطن وما رسمته في وجداني لجوانبه الكثيرة . فهل يتغير الوطن ؟

لا يستطيع احد ان يزيح من نفسي شيئا كونته الأجيال المتعاقبة ، فهي ترسب قليلا قليلا على مهل في النفوس ، وما تتركه هو ذرات صغيرة صغيرة كتلك العالقة في الماء فلا تراها الا عبر ضوء قوي ، تتركها الأجيال في النفوس فاذا هي قوية بعد تعاقب القرون ، مثل الصخور ضغطت بعد ما كانت حبيبات متفرقات ، فتماسكت ، فقويت ، فلا تنكسر ، ولا تتفتت .

وتواصل الزمن لم يترك فترةدون أن يجعل اناسها يبقون شيئاً، وهم في فعلهم هذا لا يتوانون عن فعل ما فيه صلاحهم ومنفعتهم .

إنهم ينظرون الى المساحة من الأرض ، فاذا تركت هكذا مجالا لمعركة ، تجمع منها الأسلاب والغنائم ، أكان يمكن أن تتواصل أجيالهم . أكان يمكن ان تنزل تلك القطرات في النفوس فتتجمع ليتكون مع الأيام ما يجعل ذلك المعنى سلوكا ؟

إن تواصل الشيء في مكان محدد ، وتحديده بالارادة المستلهمة للحركة والظروف الجغرافية والتاريخية ، هما ما يجعلان لهذا الشيء ملامحه ، فيكون وجوده المادي أو المعنوي وجودا حاضرا مفهوما في العقل والوجدان .

الذين كتبوا التاريخ والاجتماع قالوا بأن طبيعة الأرض وموقعها عاملان هامان جدا ليتحول الانسان من طبيعة الراعي الهائم أو الصائد الملتقط الدائم الى المزارع المستقر المنتج الذي يقيم حضارة . فكيف انتظر من مكان كهذا مفتوح منبسط على شاطىء بحر عند حدود واد طيني ، أن يصبح وطنا محدد الملامح .

إن التواصل الحقيقي للتجربة الانسانية لا يكون الا هناك في وديان الأنهار . وهناك أيضا يكون الاطمئنان الذي تبحث عنه فالبطنان وخليج طبرق دارت فيهما المعارك ، ولم يبق من شيء غير الحديد والألغام المدفونة . والدماء التي شربتها الرمال والعظام والحطام قليلا ما تلمحه عيناك . إن الطبيعة قاسية جافة حارقة لا تبقي شيئا من بقايا المعارك . فليس هناك ما يشير الى الهول الذي شاهدته الصخور في هذا المكان ، فابحث لعلك تقرأ شيئا في كتب التاريخ . أنت ترى بالارادة بالانسانية والفعل الانساني ان يكون في هذا المكان وطن .

قلت :

هذا ما أريد ، وليكن التواصل في بقاع ونقاط فيها امكانية الاستمرار ، وليكن بينها ما يصلها وما يجعلها في غير انقطاع . ذلك ان الارادة هي الفعل الحضاري . إننا لا يمكن ان ننتظر من مساحة واسعة كانت دائما تجد حولها نقاط الجذب التاريخية ، فتدور المعارك

فيتركها من يترك ويبقى في نقاط مبعثرة من يبقى . ننتظر أن يتولد عنها وعن هذا الشتيت وطن محدد يعيه كل من يعيشه . إننا هنا لا بد ان نعي الظروف والعوامل الطبيعية ، ولكن لا باعتبارها مصدات لا يمكن التغلب عليها ، ولكن باعتبار ان حركة الانسان وفعله ، وامكانية تحقيقه لوجوده الحضاري عوامل تستطيع ان تأخذ من عوامل الطبيعة ما يساعدها على عملها ، وتتجاوز وتتغلب على العوامل الأخرى التي تقف في مواجهتها .

هي كلمات قد اسمعها مرة في اليوم أو لا اسمعها . وقد ترد في الشهر مرة أو لا ترد ، وقد يذكرها الذاكرون في عام وقد لا تذكر ، ولكنها ظلت باقية لترسم في وجداني الطريق .

إن الانسان المنفلت دون ضوابط اجتماعية مرتبطة بوطن يتحقق ، أو يعمل على تحقيقه ، إن مثل هذا الانسان لن يجد مكانه في أي مجتمع ، ذلك أن الارتباط لم يعد مجرد كلمة يضعها بعد اسمه ، ولكنه فعل وعمل ووجود حضاري .

أدفأني انني امثل تواصلا لكيان تضمه جوانحي ، وأنا عائد بعد أن فعلت عوامل تاريخية على انقطاعه فلم تقدر ، فها هو التواصل يستمر .

لم تنقطع القطرات عن التكوين ، فمثلي تكون دون ادعاء ، ودون ان يقول لي احد شيئا كثيرا .

— 6 —

كانـت نسيمات الصبـاح رطبـة . . وقطـع من السحـب تمـلأ السماء . . وجوهنا مرهقة شاحبة . . لم يرقد أي منا رقدة يستعيد بها نشاطه . . ساومنا احد اصحاب سيارات النقل الصغيرة ليحملنا الى بنغازي فوافق على أن يأخذ من كل منا دينارين ، ركبت حيث توضع البضائع والأغنام . . وتحركنا تاركين طبرق خلفنا .

كنت أدور بعينين متلهفتين . . كمن فقد شيئا عزيزا نادرا ، فهو يبحث عنه في كل مكان ، ويتوقع أن يجده في أي مكان ، حتى في الجو معلقا فيما بين السماء والأرض . فهو لا يفقد الأمل ابدا ، وهو ينتظر أن يراه بين عينيه . كل لحظة تمر هي لحظـة انتظـار وتوقـع ، وترقب . هي حياته كلها مستجمعة في كلية شعورية خارقة للعادة ، هي بؤرة الضوء .

وأنا لـم اكن فاقدا لشيء . بل وجدت شيئـا وهـو يحيط بي ، ويشملني ، فتتضح معالمه شيئا فشيئا ، وتبدو مكنوناته على مهـل في غير تعسر . . فما الذي يجعلني ابدو كفاقد الشيء ؟! سألت نفسي هذا السؤال ، وهي في مثل هذه الحالات ضنينة لا تجيب او هي عيية لا قدرة عندها .

وأنا وراءها لا أتركها ، فمثلي دائم الشوق الى المكنون فيها ، وها هو يجعلها في مثل تلك الحالة من التلهف الذي لا يعاني مثله الا من يحبون الامتلاك ، ويلازمهم شعور الأثرة ، فهم يرون أنفسهـم أَحق الناس بكل شيء ، ولا حق لغيرهم في شيء .

هل هو هذا الذي اشعر به ، أو هو شيء شبيه به ، فهو يمضني ، فلم اجد امامي وسيلة غير عيني اطلقهما تبحثان وتلوجان في غير استقرار أو هدوء ؟!

هل هو حالة من الأثرة تأخذني تجاه وطني فانا غير راض عما أبديت من مشاعر نحوه ، فانا كسول في هذا الصباح فلم افكر فيه التفكير الذي يستحق ، ففرغ عقلي ووجداني فأصبحت ذلك المتلهف الى أشياء صغيرة ، مثلي مثلهم ، وتم الأمر ، ولم يعد هناك غير هذه الأرض نقطعها بهذه الشاحنة الصغيرة تحملنا مثلما تحمل الأغنام ، لا فرق ، فنظراتي مثل نظرات تلك المخلوقات تبدو وكأنها تحمل شيئا ، وهي لا تحمل الا ما يدل على غريزة جوع أو عطش . أو ذعر ونحسبها لكثرة ما رددنا تعبر عن الكثير من المعاني .

ها قد أصبحت بلا معان تدور في الأعماق وها هي اللهفة عندي غريزة ، والتطلع بعينين مثل تطلع حيوان لا يدل على شيء !

أهي السخرية تدعوني الى هذا التشبيه ، أم هو واقع تلك اللحظة . . يبدو ان واقع اللحظة كان أقوى من أن استطيع تمثله . فهو ينبىء عن نمو شيء ، ينبت على مهل ويغرس جذوره ، وكل ما كان من أفكار تدور ، ومعان تمور ، وآراء تفور ، ومشاعر تغور ، كل ذلك لم يكن غير الجو الذي ساعد على نمو هذا الشيء ، وجعله يضرب بجذوره في الأعماق ، فلهفتي هي أن أشعر بنفسي وقد قامت على أساسه ، فهو الأساس الحقيقي لها ، وبدونه سأظل بلا معنى .

هو الايمان بهذه الأرض ، وكل ما كان قبل ذلك لم يتعد المقدمات والارهاصات لهذا الشيء الذي جعلني في حالة لهفة وتحسب

عما هو في نفسي ، وأريد أن أراه يتحقق أمام عيني .

كنت ساذجا فأريد للايمان بالوطن ان يتحقق على الأرض ، على امتداد البصر في كل ذرة ، على كل صخرة ، عند كل منحنى ، وراء كل هوة ، أو فيما بين جنباتها . . ذلك الامتداد الأشهب كنت أريده صارخا مناديا مجبرا كل فرد على الايمان به .

والغبار يتناثر ذرات خلف الشاحنة الصغيرة . وتصعد منه الذرات الى أنفي وتدخل صدري . مرات يكون جريان الشاحنة بلا غبار ، ومرات يكاد يخفيها الغبار ، وسألت من يجلس بجواري ، أين الجبل الأخضر ، واجابني بأننا ما زلنا لم نصله ، وان كنا على مشارفه ، فبعد قليل سننزل لنستريح في درنة .

ودخلت الكلمة الى اذني ، فهي مدينة وفيها راحة ولعلي واجد معالم للنفوس هناك ، ففيها الدليل النفسي ، والوشيجة ، وبعدها سألت ، قال : سنأخذ في الصعود مرة اخرى لنأخذ طريقنا عبر الجبل الأخضر .

يرف قلبي للخضرة عندما اسمعها ، فكأني مجذوب سمع اسم شيخه ، أو أخذت كلمات الورد . . ولا لوم على مجذوب تجذبه الخضرة المتناثرة على جبل ، فهي على الحافات والمنحدرات وبين الهضاب المتقطعة بالوديان ، وفي قيعان الوديان ، وتغطي المسيلات . هي مرة أعلى منك ترفع رأسك لتراها فوقك بمسافات تصعد اليها ، وهي مرة اخرى أسفل منك ، تسقط عينيك لتتحقق منها هناك عند قدمي الجبل . وتعبق رائحة الاخضرار في الجو ، وتأخذ رئتاك راحتها . هي القدرة والاقتدار بلا امتلاك ولا تحديد . هي الاتساع

والشمول بعيدا عن المحدودية والأثرة . . فمن يا ترى يقول بامتلاك شجرة في غابة ، أو زهرة على حافة طريق ، أو رائحة طيبة تحملها هبة من نسيم ؟!

من يستطيع أن يجعل من وطني حدودا صغيرة تكون لأحد من الناس ، فهو فيها المالك او الأمير . . هاه . . . عرفت لهفتي وخوفي ، فقد تمثل لي الجبل الأخضر مزارا مفتوحا ، وبشرا وبشرا .

وادركت خوفي ، أن يكون هذا الذي أراه بقلبي واقعا تحت روح الامتلاك والأثرة والبغض . فالروح التي تشع اذا ما وضعتها في حدود غريزة فردية تجف . كنت كالقابض على الضوء ، فجعلته في حفرة هي مدى اشعاعه ، فكان فجوة بعدما كان مدى واتساعا ، وسماء ، جعلته بهرة تؤذي عينيك بعدما كان أفقا وطريقا وهدى .

ازداد الوجيب في صدري ، وقلبي وجيف ، وانا القي ببصري والشاحنة الصغيرة تأخذ طريقها منحدرة الى درنة تدور مع العقبة ، متقاطعة عبر جسور صغيرة مع وديان عميقة . . والمدينة الصغيرة ترقد بيضاء هناك عند قدمى الجبل .

— 7 —

هل سأبحث عن احد يقف الى جانبي ؟ وهل سأجد من سيدلني ؟ أم سأكون ذلك التائه في أماكن معلومة ومعروفة من كل فرد مثلما يعرفها هو ، ورغم ذلك فهو التائه الذي لا يدله احد ، ولا يستدل بشيء ، المسافر الذي لا وصول له ولا نهاية لترحاله ؟

دارت هذه الأسئلة في رأسي . وكان أحد أقربائي قد هون عليَّ العودة الى الوطن ، وبسط الأمور الى درجة متناهية ، وجعل التعرف

الى الناس مثل التعرف على أي شيء ، اذ يكفي ان تعرف السمات ، والصفات حتى تتقدم من الشيء وتأخذه ، وكذلك الناس اذ يكفي ان تسمع بالشخص وتعرف اسمه وقبيلته ، حتى تتقدم باسمك وقبيلتك ، ويتم التعارف وتقضى الحاجات .

وقال قريب آخر : هم في حاجة الى من يعرف القراءة والكتابة ، فمثلك سيجد الوظيفة أمامه ، فهو في وطنه ، وهو يعرف القراءة والكتابة فماذا ينقصك حتى تتردد .

وكان عندي أقارب سبقوني الى العودة ، وكانوا يعملون في الوظيفة ، دفعتهم ظروفهم الى العودة قبلي بسنوات ، ولم اعرف منهم إلا النذر اليسير عن الحياة ، وان أغروني بأن أفعل مثلهم .

واجهتني بنغازي متماسكة اعياء . ملامحها عناء . فتورها عادة ، سكونها كان دويا . صغرها احتوى العالم ، أناسها تطلع دائم . تواجدوا لكي يتماسكوا ، تراهم يقتربون منك الى حدود ، ويبتعدون عنك بلا حدود . العبارات الحادة تتطاير ، والكلمات قليلة ، والنغمة وراءها حزينة . الحطام داخل الصدور ، مثلما هو خارجها . تراه فلا يلفتك ، أما في النفوس فهو يهزك ، تسمع كلمة « خير » مخطوفة تقال في كل وقت ، في غير لين ، وبلا اعتدال ، قاطعة للرتابة ، فيحدث وقعها نوعا من الرتابة أقوى اذ هي تتكرر من كل فرد وفي كل ساعة بنفس الايقاع ، والحدة . لا يملون تكرارها ، أثناء مشيهم او عند قعودهم .

مثلما هو الحطام تراه ، وقد تحسه هناك قابعا في النفس ، فكذلك الاتقاد الدائم للنفوس والشوق الى المعرفة ، والاحتراق

المتواصل ، والبرم المنفلت في لحظات الغضب التي تكاد تجعل من اللهجة عند الحديث عراكا ، بل ان الحوار عندهم شجار . أهي الحرب وما أبقت داخل النفوس مثلما أبقت خارجها ؟ أهو الصراع العالمي الرهيب ، الذي دار أمامهم ، ونزل على أكتافهم وصدورهم ؟ أهو الاستقرار الحديث في هذه المدينة ، والارتباط بالجذور القريبة في مناطق اخرى ، في الغرب أو الصحراء ؟

أم هو التقاء بين الحزن والفرح ، في برزخ تلتقي فيه النظرة المتطلعة الى التغيرات وما يحدث في المشرق ، والنظرة الى الخلف ، وما كان يحدث عندهم وحولهم والى الغرب منهم ؟

كانت الدنيا سكونا ، وكانت سكينة ، العجيب انني أحسست بالسكينة في هذا الاحتدام ، ولم تشملني محدودية التطلع ، او بهرة ما أعقبته خلفي . كانت هناك خضرة الوادي وما يدور فوقها من أحداث ، وكان لي معها محاولة فهم وبحث عن الأسباب والأصول والجذور . وكانت الآراء تتطاير حولي ، وكان ما يمضني هو عودتي الى وطني ، وها انذا عدت فرأيتهم ينظرون الى حيث كنت . يرون ضوءا لم أكن اعرفه ، ويتمنون رؤية اشياء وكتاب ومعان ، فهم يؤمنون بوجودها ملموسة واضحة ، وأنا لم أكن أرى شيئاً مما يتمنون . عجيب . إن ما بهرني هو الجبل الأخضر ، وما هز أعماقي حقيقة هو وادي « الكوف » . أما ذلك الوادي فقد سارت قدماي على طينه ، فلم أحس لوقعها شيئاً يشدني ! ترى هل هي العادة ، أم هي المقارنة ، فشتان ما بين الطمى والصخور ، وما أبعد خضرة الطين ، عن خضرة الصخور . هناك كانوا يسيرون والعادة تأخذهم ،

وانبساط الوادي يجعل تلك النفوس مبسوطة ، فلا معاناة ، ولا غضون للجباه الا غضون السنين ، أما هنا ، فالعناء هو الحياة ، وغضون الجباه هي غضون معاركة العالم ، والوقوع في طريق صراعه .

هناك كانت الطبيعة قد جعلت من الصخور ذرات مطحونة ، فهي متساوية ، بسطتها المياه فهي مستوية ، وبعدها جاء البشر فجعل التاريخ والمعيشة فوقها يشبهانها في نفوسهم وحركتهم وعملهم .

هنا كان تغاير الأزمنة وبقايا العصور واضحا ، وكان هناك ما طحن شيئا من صخور . وبقيت صخور كأنها الأسنان . هي كالجبال العالية . دلالة على التمايز والتنوع . وفوقها كانت الحركة والاحتدام ، فاستوت الأرض في مناطق ، وبقيت أماكن أخرى كثيرة في غير استواء .

جئت هنا ، وطوال الطريق اتحسس معالم وطني في النفوس والوجوه ، في المسارب ونتوءات الصخور ، في الخضرة والجدب . في الاقتراب والبعد ، في الضيق والاتساع ، في الكلمة والايقاع ، مبهورا غير مذعور ، فكأنني غادرته منذ سنوات لأرجع اليه اشد اشتياقا . مدركاً لمعناه ، عاملا في مبناه . فأراهم ينظرون الى هناك في لهفة عجيبة ناسين نفوسهم ، أو يريدون نسيانها ، يبحثون من خلالي عما يرونه ، فيجدونني لا أحمل بين جوانحي غير البحث عنهم . فيبدو كل منا تائها يلتطم بصاحبه الذي يبحث عنه فلا يراه ، وان رآه فهو لا يدركه ولا يحتسبه .وتدور الدائرة تأخذ كلاً منا في ناحية، فتمتلىء نفوسهم بما يشبه الصدمة ، ويهتز قلبي فكأنه الرجفة . وتبقى

لحظات او ساعات لتشملني رطوبة بنغازي . ولتتواصل ايقاع كلمة « خير » سريعة قاطعة . فأحاول ان اقلدها فأفشل . وتظل نغمات الايقاع في صوتي مثلما كانت . . .

لم أخش على نفسي . ووضعت أمامي شيئا صممت عليه . وهم أحرار ان يسمعوا كلماتي او يتركوها . فليس هناك من خيار فالواقع هو الحقائق الصلبة . وهذا وطنهم ، حتى وان حاولوا تركه بنفوسهم ، فهم باقون فيه بأجسادهم ، وأنا رجعت اليه ولست نادماً ، بل معانيا ، سأحتمل ، وأتردد ، وأقول على مسامعهم ، ولهم ما يريدون ، فسيرجعون الى ما اقول . فهناك وطن متحقق ، له مقوماته وتاريخه فهل يريدون ان يعيشوا على هامشه ؟! هنا وطن له حدود وأرض وخضرة وسماء وأُفق وبشر رغم ما عانى وما يعطيه الواقع من مستغرب الأرقام، فلا بد أن يتحقق وأن يكون له وجوده. قل ما تشاء ، وقولوا . فهل بعد أن تكون منابت وجذور ، وتعطيك الحركة والفعل مجالا ، ومنطلقا ثابتاً كالصخور ، هل بعد ذلك تبحث عما يبهرك خارج هذه الحقائق الثابتة .

هناك قد تكون اشياء ومعان إلا أنها لا تعدو كونها مجاورة ، وإن انتقلت اليك ، او تأثرت بها ، فهي آخر الأمر ليست هي ، والا لتحقق على أرضك الجدب ، ولو صم تاريخك بالعقم ، ولكنت غير مقبول ممن حولك ، فانت تعيش على هامش حياتهم . كن نفسك أولا ، ثم إبحث عن غيرك وتفاعل معهم ، عند ذلك يكون لفعلك معنى ، ولعلمك وتجربتك نتيجتها ، ولحركتك اثرها في التاريخ .

أما إن تريد غيرك ان يكون ، ثم لتكون بعده او قبله ، أو حتى

من خلاله ، فانت غير مستطيع لذلك عملا .

كدت أصرخ بذلك منـاديا هاتفـاً داعياً . ولكنـي سكت واحتفظت بالكلمات في صدري . . . الى حين .

— 8 —

الاقتراب من النفوس أمر صعب . كانـت قدرتـي محـدودة في معرفة مداخل القلوب ، ولم يكن بي من حاجة الى اكتشاف الطرق التي تؤدي الى كل قلب . كنت أعيش في اعتقاد خاطىء بأن ما بـين النفوس أمور لا تحتاج الى عناء . هناك الظاهر ، وهو الذي يدل على الباطن . فما الداعي الى أن يبطن انسان غير ما يظهر ؟ ما الذي يربط انساناً الى آخر غير ما تعارف الناس عليه من ود مشترك ومواضعـات تدق في أحيان حتى لا ترى ، وتتضح في أحيان لا تحتاج معها الى وعي او ادراك .

إن ما بين انسان وآخر هو معرفة العلامات التي تشبه علامات الطرق . . . من عرفها سار في أمان حتى ولو كان في منعطف ، ومن لم يعرفها توقع الخطأ في كل وقت ، وقد يكون الخطأ قاتلاً .

العلامات واضحة خطت في وجدان كل فرد منذ الصغر ، فهو ليس في حاجة الى مزيد من تعليم أو خبرة . فالقليل منهما يكفي . والانسان يعيش بين جنبات شيء واسع ، ولكن دفئه يحيط بكل فرد ، فهو لا يترك الضلوع تصطفق هلعاً او هماً او قلقاً .

ولكن ما حدث لي كان ممضاً ، فهـو القلـق والتوتـر والحيطـة والحذر ، اذ وجدت على وجوههم الودودة شيئاً منه ، بل ان قلوبهم

على ما اعتقدت قد امتلأت بالتوجس والتوفز والتأويل ، وربط الغير بأمور ليست له ، أو هو لم يفكر فيها ، انهم لم يكتفوا بالعلامات التي تشبه علامات الطرق ، بل ملأوا الطريق الى قلوبهم بمنعطفات أُخر ، وربطوا نفوسهم بأمور لا يمليها واقعهم . كان واقعهم بسيطاً . كانت الحرب في ضمائرهم شظايا ، فهي لم تتركهم الا منذ عهد قريب ، وأبقت الحيطان حطاماً مثلما أبقت في القلوب رماداً ، واقعهم كان تطلعاً ، وارتباطاً بحركة العالم بعد الحرب العالمية الثانية ، وما يستجد فيه من حركة ووعي . لم يكن ارتباطهم بوسائط قوية ، بل كانت وسائط قليلة بسيطة الا أنها تحركت معهم وبهم ، فجعلتم في الخضم ، بمعاهدات ووثائق . حتى وجود كيانهم كان نتيجة للصراع الدولي وانتشار الوعي واختلاط المصالح ، ووجود قوى جديدة ، فهم غير بعيدين ـ حتى وان أرادوا ـ عن العالم ، بل هم في قلبه . لذلك التوت الطرق الى النفوس . وبالمثل التوت النفوس ، وبحثت عن الدعاوى ، وعن الأقوال المتناثرة ، وعن المكاتب التي فتحت في ظل الغيوم والكلمات المتناثرة ، ونسوا وطنهم ، فلم يروا إمكاناته وما يمكن ان تجعله الحركة فيه . ظنوا ان الحركة حولهم إما هم فليسوا غير الصدى ، وعلى من يجيد ترديد الصدى ان يتقن الإلتواء وليجعل في نفسه الدهاليز التي تخفي الصوت وصاحبه .

وهناك كان تعثري . فبدت عثراتي قاتلة ، وكان من لديهم الظن السيّىء بالمرصاد. فها هو الآتي قد ظهر مقتله، وجاهل من لم يقتله . وكنت ساذجاً ابحث عنهم في نفوسهم وليس لدي غير علامات قليلة . كلهم كانوا عندي أبناء وطني . لم أر ان هناك ما يدعو الى

المسالك الخلفية ، والشمس واضحة ، والأرض واسعة والمجال مفتوح ، والتعلق بالعمل يعطي الحياة مذاقاً ، ما الذي يدفع الفرد منهم الى البحث عن أشياء اخر ، عن معنى لوجودهم ان كانوا صادقين . المعنى لا يتخلق إلا من خلال عملهم ووعيهم بوطنهم وحرصهم عليه ، وفهم الظروف التي ساعدت على رسم خطوطه وملامحه ليكونوا هم لبنات الأساس ، او قطع صخور الأعمدة . معرفتهم بالغير واجبة ولكن دون ان تنسبل عيونهم في حالة وجد مصطنع ، ثم لتلتوي نفوسهم فهي تعمل بعدما تؤمر دون أن تعي ، فتردد الكلمات التي لم تولد على أرضنا بل ولدت بعيداً ، فهي ذات طنين ، فارغة من الدلالة .

كان الأمر مستغرباً مني . دعاهم الى الدهشة في أول الأمر ، ثم المجاملة ، وبعدها التأويل ، ثم الهمس ، وبعده كان الاتهام والمجاهرة وخلق الأقاويل والمحاصرة ، وافتعال الأزمات والمواقف ، ثم التحريض !

اذ كيف يكون هذا الشخص الآتي من حيث تطلع الشمس في مكانهم ، عند مصنع الكلمات والخطب ، ويكون عنده ما يقول غير الترديد ؟

كان هناك ما يمكن ان يقال ، وكان هناك ما يستطيع اي فرد أن يطلق على آخر ، ووجدت احزاب ، وتشكلت هيئات ، وتعددت الفرق والدعوات والمقاتلات، إلا أن اي إنسان لم ينظر تحت قدميه. نسوا بقايا الحرب في الطرقات والنفوس . نسوا المواثيق والمعاهدات والارتباطات ووسائل التحرك الحضاري ، واخذتهم حالات الهياج

المستمر ، وملاحقة كل وهم فكرة غير تلك التي تردد في طنين فهي زاعقة بلا محتوى ،هي ارتهاز للرغبات والمطامح والمطامع . كل فرد يصلح ان يكون زعيماً ، وكلهم يستطيع ان يعمل ، ويحصل على ما يريد . وتفتح المكاتب لتقدم الهبات ، وتأتي الدعوات في المناسبات وغير المناسبات ، وتفتعل الدوامات فليس هناك من علامات على الطريق ، وكلهم يردد هذا هو الطريق وليس غيره من طريق . لم أردد مثلهم ، ولم يكن حديثي كحديثهم ، كنت أود معرفة الطريق الى النفوس ، فنفوسهم كنفسي ، هكذا قلت ، لا اختلاف ولا فروقات تستحق الذكر .

أما هم فكان لكل فرد نفسه التي جعل منها عالماً يربطه بتلك الأمور . كنت أريد الارتباط بالأرض أما هم فكانوا يتعلقون بالهواء ، بالفراغ ، هل أناديهم ؟ ومن يسمعني ؟ بل أرادوا ان يأخذوني في طريقهم ، كنت أقول : الطريق تحتاج الى علامات أنها طريق مستقبل ووطن وأجيال ، وليست كالطريق الى نفوسكم التي أحسبها سهلة ، مثل الطريق الى نفسي .

والعلامات من العمل ، دعونا نعمل ونفكر ، لا ان نستقبل ونردد ، هناك عندهم ظروفهم ولهم مكوناتهم ، تربطنا بهم أشياء ، وتفرقنا عنهم أشياء أخرى ، لا تجعلوا بساطتنا نهباً لما يريدون من حركات وأمور ، إجعلوا أولا أساساً ومنطلقاً . اجعلوه متيناً قوياً .

ليس عيباً ان نضع مجرد قطعة حجر في هذا الأساس ويكون قوياً ، ولكن العيب ان نبني جداراً على أساس منهار ، أو جرف هار . لا نريد ان نبني شيئاً في الفراغ ، فهو غير موجود في الحقيقة ،

ولكنه موجود وهما للمساومة والبيع والشراء . وسمعني البعض ، وتردد البعض ووجدت نفسي منزوياً الوك كلماتي لنفسي . فالاقتراب من نفوس غيري أمر صعب .

— 9 —

إذا اتت الأمور بارادة الانسان ، فهي تحقيق لوجوده . . أما عندما تأتي نتيجة للاندفاعات والعلاقات والتصورات ، فلن تكون غير خبطات ، لا تعقب شيئا .

وجدت نفسي في ذلك اليوم من أيام خريف **١٩٥٧** مشغول النفس بما وقع لي . . كنت أتصور نفسي صاحب ارادة ، فاذا انا فاقدها . ما الذي جعلني ذلك الرجل المطيع ؟

اسمع الكلمة فلا اجد عندي جوابا لها غير أن أسير وراء صاحبها ، وأوافق على مردودها ، وأحس بأنني شيء مذكور . . لعلها كانت لحظة من لحظات خداع النفس ، دافعها حسن الظن والثقة ، وعدم فهم الأشياء على حقيقتها ، بل كان فهمي لها نابعاً من توهم يجعل الارادة مني مسلوبة ، كما يجعلني مستمتعا بحالة الايهام المسلطة علي .

تبعت صاحب الدعوة . وكنت أحسب نفسي تلك الشخصية الرهيبة الفاتحة . فأنا لم أرجع من مصر الا منذ عشرة أيام ، تنقص أو تزيد قليلا . . فلم أصنع بعد ما يستحق الذكر والدعوة . . . لعله اسمي الذي تردد ، ولعل ما كتبت من أشياء كان له صداه ، ولعلهم

في وطني يقدرون الحرف وصاحبه هذا التقدير الكبير . ففي حسبان نفسي ، ما زلت ذلك الانسان الذي يحاول ، وخطأه أكبر من صوابه ، بل أنه ينظر الى ما يفعل نظرة المتشكك ، صاحب العمل الذي لا تنتظر الجدوى من ورائه ، وتصور المتردد الذي لا يملك حكما واضحا على نتيجة ما يعمل . هكذا وجدت نفسي يوما اكتب القصة !

واذا ما كان اهتمامي بما أكتب ، واتخاذ هذا الطريق نتيجة وعي ، ومحاولة مني لحمل رسالة حتى ولو كانت هذه الرسالة لا تتعدى خطوط قلم ، تشبه خطوط الرسم الحديث . . فانني اوقن بأن الواقع كان ممحلا ، بل أنني لم أعط لنفسي الحق بأن تشبه ما كانت تفعل بفتح عكا !

لم يأخذني الغرور ، وإن أخذني الفرح من أقطار نفسي في ساعات ، فبهجة الخلق لا تعادلها بهجة ، حتى ولو كان اتمام هذه العملية يحيطه جو كئيب ، أو خانق أو متشائم . .

لحظة الابداع هي إشراق لا يقترب منها إلا من كان عنده ما يوازيها من تحرق الوجدان . . . . كتبت ، وكنت فيما أكتب أبحث عن شيء بعيد غائر في الأعماق هكذا كنت أتصوره ، ومرات كنت أراه بعيدا عاليا كأنه في الأفق البعيد لا استطيع الاقتراب منه ، ويكفيني أن أستطيع رؤيته . فهو تكامل يتداخل مع بشرية النفس دون أن تعرف كيفية حدوث ذلك ، فاذا ما حاولت ، وكنت ذلك المكتشف المجرب الذي لا يؤمن الا بالتجربة ، والنتائج الملموسة ، فمن المستحسن لك ان تترك مثل هذه اللحظات بلا مثال ، فهم بها سعداء ، وبجهلهم

لحقيقتها ولأسبابها أسعد ، فيكفيهم أن تعقب قصة أو فكرة . .

هاه ، صحت بنفسي ، فقد أمسكت بها متلبسة بحالة صوفية ، تكاد تغرق في سناها ، وليس من رأى كمن سمع .

كنت أسير الى جانب صاحب الدعوة ، ولم يخطر ببالي أبدا أنني سأنتهي الى اجتماع تناقش فيه امور سياسية تتصل بما يعتمل في وطني ، وبما يدور حوله من دعوات وخطوات ووحدات . . ذلك أنني ما كنت لأعتقد أن مثل هذا النفر من الشباب ، لم يتجاوز اكثرهم اليفاعة قد وضعوا على أكتافهم مسئولية ايجاد حلول وطرق تصل بهم الى آمال لم يضعوا لها أسبابا ولم يؤهلوا لذلك تأهيلا في مجتمع متطور ، فلم يصلوا الى درجة من الوعي تجعلهم يمسكون بأشياء صلبة .

كل ما أدركته في ذلك اليوم انهم يعيشون فترة انكار لوجودهم ، وأن ما حولهم يدفعهم لأن يكون لهم دور ، فهم يريدون أن يعملوا ، ووجد من يحاول تسخيرهم لأشياء وقتية ، وفرقعات ، وأفعال تتصل بأوقات معينة ، ولا تتصل بواقعهم . .

وهم كانوا في حيرة ، اذ لم يكونوا قد بلغوا مرحلة الرضا عما يراد بهم ، وكذلك لم يصلوا الى مرحلة القناعة بوضوح قضية يعملون من أجلها . لم يريدوا لأنفسهم أن يظلوا قابعين ينتظرون ، فقد يأتي يوم يغلبهم فيه صاحب القعقعة والضجيج ، فيقع عليهم اللوم بأنهم كانوا من المتخاذلين البعيدين عن العمل من اجل وطنهم ، وحصروا عملهم في ذواتهم من أجل اسعادها .

كانوا يعيشون الحيرة . وكانوا يبحثون ونفوسهم الطيبة مملوءة بالخير ، قادرة على التفتح ، مستطيعة العمل ليل نهار .

كل ما حولهم دعوة ، يجاوبه ما في صدورهم من جيشان الشباب والصدق ، يجلله الصدق والمرامة والتحفز .

لا أحد يستطيع أن يقبع ساكنا . قال قائل منهم ، ولم أجب . كنا وصلنا صاحبي وأنا الى مربوعة احد أصحابه وكان الوقت يقترب من العشاء وجدت نفسي وقد احيط بي ، إذ اعتقدت أن الدعوة لم تكن غير عشاء ، فاذا هي منتدى أو حلقة ، أو لعلها خلية ، أو حزب ، أو تشكيل أو تكوين جمع منهم أفرادا يقترب عددهم من العشرة .

ألم يكن الأولى بصاحبي أن يشرح لي الأمر قبل وصولي ؟ لم أجد جوابا عندي ، وأن كان السؤال قد أثار اسئلة في نفسي . أكان يريد ، أو لعلهم جميعا يريدون وضعي في البوتقة دون استشارة ، فقد عرفوا مني التردد والحيطة والتهرب ؟! أكان الأمر يتصل بحسن نيتهم جميعا في شخصي الضعيف ، فليس لمثلي من مكان الا وسطهم مرتبطا بما يحتدم في نفوسهم ؟.

لعله هو التصور ، تصورهم الذي جعلهم يعتقدون أن كل انسان يعيش في هذه الفترة ، لا بد وان رأيه كرأيهم ، فلا يوجد من أوجه الخلاف ما يستحق الذكر ؟

ألم يقرأ مثلما قرأوا . ألم يسمع من الخطب مثلما سمعوا . ألم تؤرق الاذاعات ليله مثلما أرقت لياليهم ، ألم يجلس ويتحدث على

المقاهي مثلما جلسوا وتحدثوا ؟ ألم يدخل الجامعة فواصل قراءته ، أو وقفت سبل الحياة دون ما يريد !

الحركة تكاد تجعل من المنطقة ، قطعة واحدة من البشر . وربما من كانوا وراء ذلك يخططون يعرفون هذه النتيجة ، ويضحكون . ففي قمة الوعي الفردي ، غطس الانسان في المنطقة في حالة اللاوعي الجماعي . وكانوا يريدون ذلك ففي الحالة الهلامية الرخوة يستطيع من يحرك ويعمل ، أن يشكل منها ما يريد من أشكال . يستطيع أن يطلق ألوانا ، وأصواتا ، فتتجه الكتل الوجهة التي يريد . إن علم الاجتماع الحديث ، والنظريات الأشد حداثة ، والتي تعتمد على أسس من المعلومات الدقيقة جمعت بواسطة أجهزة دقيقة . يمكنه أن يصل بك الى نتائج تبلغ في دقتها درجة يتلاشى فيها معدل الخطأ في التقدير .

وبدأت جلستنا تحتدم بالنقاش ، وكنت صاحب رأي مخالف لهم جميعا ، ولا اظلمهم ، فقد كانوا يستمعون في اهتمام ، إلا أن فردا واحدا منهم لم يقتنع بكلمة واحدة مما قلت !

— 10 —

لا تخطفوا الرأي خطفا ، فللرأي جوانبه المختلفة ، قلبوه حاولوا أن تجعلوا جانبا منه واضحا بعد أن كان غامضا استفسروا ، وحاوروا ، واجعلوا محاولة الاقتراب من الفكرة الجديدة بهجة .

لا تمسكوا « بما تحوصلت عليه نفوسكم فهو كالعادة ، وهو سهل ، أمره أن يجعل منكم وهما وتحسبونه حقيقة . لا تعتقدوا أن

تجمعكم هذا قد جعل منكم قوة ، لعله قد كشف ضعفكم ، بل ربما دل على نواقصكم . انظروا الى نفوسكم قبل أن تنظروا الى غيركم ، وردوا ما في عقولكم عليها ، فلا تطلقوه . إن الازدهاء بأنكم اقتربتم من فعل شيء ، أو انكم استطعتم عملا فبهرتكم رؤيته ، هو الخديعة التي ليس بعدها الا السقوط .

تقولون عندما سألتم عما تستطيعون ، بأن لديكم من الأشياء كذا وكذا ، وعما تقدرون فتجيبون بأن فلانا يفعل كيت وكيت دون أن تسألوه . تعطون لأنفسكم الحق في أن تطلبوا من غيركم ان ينظر بمنظاركم ، ويسمع كلمتكم دون نقاش .

من الذي اعطاكم هذا الحق ؟ من الذي جعلكم ترون في جمعكم هذا حزبا أو خلية أو جمعا له الحق في أن يتحدث عن غيره ويصدر الحكم ويتولى مباشرة ومتابعة الأمور .

كانوا ساكتين ، وكنت كأنني شظية أتحرق أو حبة اتقلى . رغم جسمي السمين ، ورغم العناء الذي احتمله نتيجة للحديث الطويل ، لم أسكت . وسألت اسئلة كثيرة ، عن عددهم ، وعما لديهم ، وعما استطاعوا الحصول عليه ، وعن نشاطهم فيما سبق من أيام وكانت اجوبتهم محدودة ، فيها خبرة ، وفيها محاولات لتجنب الكذب . وفيها الهدوء أحيانا وفيها العجز البادي دائما .

كنت أحسبهم من أول الجلسة وفيما بين الكلمات المتناثرة الأولى ، إن لهم نظاما ، وأنهم يخضعون لتنسيق وترتيب ، وفكرة واضحة ، ومنهج للعمل اتفقوا عليه . فاذا هم بعد حديث طويل لا

رأي واحدا لديهم اللهم الا عواطف جمعتها فترة جيشان واحدة . فألصقت كل منهم بالآخر ، وضيق اقتصادي أعقبته الحرب . فاذا هم الى العسر أقرب منهم الى أية حالة اخرى .

وبرم بنفوسهم ، وقد أحسوها شتيتا قبليا باهتا ، هتكه الايطاليون ، ثم جاءت الحرب لتقضي على البقية الباقية منه نظروا وسمعوا كلمة « وطن » . فاذا ما حاولوا التطبيق . ليحسوا بهذا المعنى إحساسا متجسدا في أمور وأشياء واضحة انتابهم العجز فلم يجدوا شيئا . إنهم اذا نظروا الى من يجلسون على كراسي الحكم اخذتهم الدهشة والسخرية ، فيستعيدون أسماء بقايا وجمعيات كانت علنية ، وكان فيها الشيوخ والشباب . فتفرقت أمورهم ، وتنازعتهم المصالح والمنافع ، وأحيط بثمرهم ، فبقي منهم من اعتبروه ثابتا على المبدأ ، فانتبذ مكانا قصيا وأخذت حركة الحكم والسلطة والنفوذ والادارة البريطانية ، ومكتب المعلومات البريطاني ، والمصالح الأمريكية ، أخذت غيرهم من الرجال . إن رغيف الخبز ، والمنزل في المدينة ، والاطمئنان الى وظيفة ثابتة ، والراحة ، فلا يقلقه أحد ، والهدوء في الليل ، كلها امور مستحبة ، لا يكرهها قلب ، بل يطلبها كل قلب . وبقي الشباب الصغار فلم يحصلوا على شيء . ومن هذا كان قلقهم ، وكان تبرمهم ، فآباؤهم أصحاب دكاكين صغيرة هم أقرب الى (رفاد الرياح) منهم الى (من في قلوعهم ريح) .

كانوا يغالطون أنفسهم ، فلا يذكرون مثل هذه الحقائق بل أقتلعوا صلتهم بالمبادىء . . اعتبروا أنفسهم أصحاب حق تاريخي . ويمكنهم أن يناضلوا نضالا دائما قويا . كثرت في أفواههم كلمات

الماركسية والأخوانية ، بينما واقعهـم لا يدل على شيء من هذا . هم سكان مدن كانت ساحة للحرب ارتبطت بالقبائل حولها رباط تجارة ومصالح متبادلة . كل شيء نادر حتى الماء . بل قل إن سبب الندرة في كل شيء هو الماء . روابطهـم القبلية تتداخـل فتتماسـك وهما ، ثم تتشعب فتتنافر فتتحارب ظنا . تسمع كلمة شرقاوي وغرباوي فاذا صغـرت فهـي غريباوي . تسـمـع كلمـة حضـور وأيادي . تسمع برعصي وعاقـوري . تسمـع ولاد شيخ وأهـالي . شوارع وأزقـة في مدينة ، وأسماؤها هي أسماء القبائل تقترب بنغازي من الغرب فهـي حضرية لا يقبلها البوادي ، ويحتمي الناس بهـذه الصفـة ، وتبتعـد المدينـة مرات عن الغـرب فهـي قريبـة من البـادية حولهـا ، قاطعـة جذورها ، خالقة لنفسها شخصية شرقاوية متميزة هي لا تقترب من البادية بمقدار الا لتبتعد عنها بمثل هذا المقدار ، وهي لا تقتـرب من الغرب بالمقدار الا لتبتعد عنه بمثل هذا المقدار . عوامل الموقع والتاريخ والاجتماع جعلت من هذه البقعة ذات سمات متفردة لا ينكرها اهلها ، بل يعتـزون بهـا ويتمسـكون ، ولعـل الوهـم يجعلهـم يوغلـون في تضخيمها ، إنهم يحبون مدينتهـم ، لا يختلف في هذا الحـب قريب عهد بسكناها أو بعيده ، وحبهم هذا لا يوقعهم في التنـاقض فهـم أصحاب دعوة وحدوية . هم يريدون وحدة ليبيا لاتحادها كما استقر الرأي فيما بين أصحاب النفوذ والقبلية . إنهم يرون في تناقضهم هذا اثراء لشخصيتهم . إنهم ضد الملك في جملتهم مما يجعلهم يميلون الى الغرب الجمهوري ، والذي يحوي اكثر الكارهين لهذه الشـخصية . ثم هم يعودون الى واقعهم وارتباطهم بالبدو وقبائل الملك ووجودهم بينهم ، فيجدون انفسهم مرغمين على إيجاد وسيلـة تعـايش . هذا

التناقض أورثهم حدة في الطباع ، وسرعة في البحث عن البديل ، أو قل هو الشيء الذي يعوضهم عن حالة العجز التي تكاد تسقط بهم في هوة عميقة ، فلا يجدون لأنفسهم شخصية . ولا يستطيعون المحافظة على هذا الميراث الثمين المتمثل في الاستقلال عما حولهم ، مثلما هو متمثل في الانقطاع عن الأصل (الغرباوي) كان لا بد من حل لهذا (الواقع الأزمة) .

إن الارتباط بالواقع ، ووعي دقائقه يتطلب وقتا وعناء وانتماء ، وبالتالي يتطلب تجاوزا لأمور شخصية واعتبارات قد تكون عسيرة على النفس . وهو في نهاية الأمر يتطلب حوارا مع نظام اعتمد القبيلة ورموزها وعقيدتها أساسا له . وليس من نتيجة لهذا غير الخضوع والتعامل والتوادد ، والدخول في لعبة ذات شكل ديمقراطي ، وهي في أساسها لا تقوم على غير العلاقات والمصالح القبلية .

فما هو الحل وقد وصلوا الى هذا الطريق المسدود ؟ لم يكن وصولهم اليه عن وعي ، بل انهم لم يستطيعوا تحليل هذا الواقع بهذا الوضوح ، إذ اكتفوا بالايحاءات الاجتماعية ، والعلاقات الاقتصادية ، والايماءات النفسية ، فأدركوا منها انهم لن يستطيعوا تعايشا أو تواؤما مع هذا الواقع ، فلن يصلوا فيه الى غير هذا الطريق .

ما الذي يمنع القفز فوق هذا الطريق ؟! ما الذي يمنعهم من الانتماء الى ما حولهم من دعوات ، ويرتبطون بها ارتباطا يجعلهم في حل من ارتباطهم بالواقع . هناك في المنطقة دعوة قومية واسعة . وهناك في المنطقة أممية شيوعية تطل برأسها وبالمثل هناك اممية اسلامية كلها

دعوات جذابة تغذي الوجدان ، وترفع الشعارات العريضة ، وتخلق الأصدقاء في كل بلد عربي ، وتفتح الطرق المسدودة في أحيان كثيرة ، وإن لم تفتحها على اتساعها فيكفي إنها تصنع مسارب يمكن السير فيها .

إنهم لم يصلوا الى مرتبة المغالطة ، وانتهاز الفرص ، فما زالت البلد فقيرة ، وما يوجد ليس اكثر من هبات دولية قدمت لأغراض مختلفة ، وهي تصرف بمقدار ، وتعطي لمن يقدمون خدمات لها من الصفات مالا تستطيعها كل نفس .

الواقع ما زال بسيطا وفظا وعفويا .والاحتجاج ضده أشد بساطة وفظاظة وعفوية . لذلك لم يجدوا أنفسهم في حاجة الى اتقان اشياء كثيرة .

هم يدّعون السرية ولكن كل فرد منهم يحكي أمام أي انسان يحسن الظن به ، دون أي شعور منه بانه خرق سرية ما عمل أو ما سمع أو ما قال .

لا يخفون سخريتهم من الواقع ، ولا الاستهزاء به ولا عدم الاهتمام به . فقد وجدوا نفوسهم قريبين من بعضهم البعض ، وبعيدين عن واقعهم السياسي المتمثل في نظام وأشخاص .

من هنا كانت صدمتهم عندما قلت « بالوطن » . قلت به وأنا أكاد أجن من انكار الناس له . كيف ينكرون وطنا اجتمعت ظروف تاريخية ودولية على تكوينه ، وساعدت على ذلك عوامل جغرافية واجتماعية .

كيف لا يقتنعون بمعنى الوطن حتى ولو كانت كل العوامل ضد هذا المعنى ؟

كيف لا يعملون في هدوء ووعي من أجله يحدوهم هدف تواجدهم في كيان يعطي لكيانهم الاجتماعي والفردي دلالة وسط مجتمع دولي متقلب متغير . تدفعه المصالح واعتبارات وقوى وتيارات .

كيف لا ينبت الايمان في ظل الظروف التعسة ، حتى اذا ما عمل الفرد منهم من اجل تواجد ظروف حسنة كان لعمله معنى وتاريخ ودلالة .

أخذتني الحيرة ، وأنا أقول بأن الفترة فترة عمل علني ديمقراطي ، مهما كان شكل الديمقراطية ، ومهما كانت بساطتها ومفهوم السلطة لها ، وكذلك مفهوم الناس . ليس الوقت بحافز على العمل السري أو المغامرة الفردية، أو قذف أوراق مطبوعة تحرض وتهيج .

انكم أن تفعلوا ذلك تكونوا أشبه بمن يعملون من أجل أن تنتفخ أوداجهم كذبا . فلا هم يستطيعون البقاء طويلا على حالتهم تلك ، ولا احد بمصدق فعلتهم الداعية الى السخرية ! ماذا سيثير منشور في واقع متخلف ؟ من سيقرؤه من سيحركه ؟ أي تجمعات عندكم . .

وعلى العكس من ذلك فان العمل الواضح الدائب من اجل الناس ومساعداتهم وتعليمهم ، والكتابة لمن يقرأ منهم ، ودعوة المسئولين الى عمل شيء طيب من أجلهم ، كلها أمور تحرك الواقع ، وتنشر الوضوح ، وتمهد الطريق لمن سيأتي بعدكم .

انكم اذا قطعتم الطريق على من سيأتي بعدكم كان عملكم عائقا ، كان خطوات الى الوراء . لن يكون عملكم تقدما ، بل تأخرا .

كان الجو رطبا ، أحسست أن الهواء يركد ، فلم تعد هناك نسمة ، كانت المربوعة مملوءة بأنفاس الدخان . أشعلت كثيرا من اللفائف . كنت محتدا ولم أشعر باحتدادي . كنت حانقا ، ولم اكن ساخطا عليهم . كنت أود لو اقتربوا مني ولكني احسست انهم ابتعدوا عني مسافات واسعة ، كان بيني وبينهم دهشة علتنا جميعا . كان ما يملأهم اقتراب من معنى غانم وكان ما يملؤني اغتراب عن هم قائم .

أدركت أنني جرحت مشاعرهم ، وإن كنت قد هززت عقولهم فلا راحة ولا اطمئنان لأوهام اوحت بها اليهم قراءات أو اذاعات .

لم يعد أمامهم الا الحيرة او البحث من جديد عن طريقة عمل ودليل عمل .

وكان علينا أن نغادر المربوعة متثاقلين ، فالليل خارجها خامد ثقيل . وقلبي في صدري أشد ثقلا من الرصاص !

— 11 —

بقيت أياما أدير ما صدر من كلمات في رأسي ، فلا اجد فيها إلا ما يدعو الى اعتبارها حديث ليل ، نتج عن قلق ومحاولة بحث عن كيان . كل فرد كان ينقصه ذلك التكوين التاريخي الذي يجعله يحس بالامتلاء ، فهو دائم البحث عنه عند الآخرين ، أو هو يعتقد أن

بانتمائه الى شيء كبير في معناه ضخم في احاطته بالأفراد والجماعات ، يقدر على تلافي هذا النقص الذي يشعره بالعجز .

كنت مثلهم ابحث عن كيان ، ولكن على النقيض منهم كنت أبحث عنه في وطني . فاعتقادي جازم بأن الكيان هو وطني حتى وان لم تتضح معالمه . فأنا قادم من هناك حيث تختلط المبادىء والكلمات والعبارات بحالات الهياج وأفكر فيما يمكن ان تسفر عنه فلا أجد شيئا . أما هم فمشدودون الى العبارات تأتيهم فترفعهم وتهزهم ، وتنعشهم ، وتمد لهم في الجنة اذرعا . فيأخذهم الحماس ويؤرقهم الاتقاد الوجداني ، فاذا ما عادوا الى أنفسهم لم يجدوا شيئا . تشابهنا في النتيجة ، واختلفنا فيما قبلها من أسباب وحالات ، فهل كان يمكن ان نتفق على شيء ؟! بعد عسر وعناء تولد في نفوسنا إتفاق ضمني على أن الاختلاف في الرأي أو المشرب أو حتى في التعاطف لا يفسد للود قضية .

جاءني يوما صديق منهم واطلاقي لصفة الصداقة كانت مني بحثا عن الضمير الوطني ، إذ إعتبرت كل من ظننت فيه الصدق أو قدرت فيه الصدق في مشاعره صديقا .

قال الصديق وكان في حالة فوران داخلي ، ألا تريد أن تكون معنا ، فتساءلت عمن هم حتى اكون معهم او ضدهم ، فلم أفز بجواب يقنعني ، مثلما لم يكن عنده كثير مما يحاورني به .

كانت مشاعره تحتدم ، وكان مغتاظاً ، فلم نصل الى التقاء حتى في معاني الكلمات .

كل منا كان يأخذه همه الداخلي أما الهـم الشامـل المتمثـل في معاناة قدر المجتمع والناس ، فلم يكن اليه من طريق غير التأمل ، الذي اتخذته سبيلاً الى الناس ، وحياتهم ، وما هم فيه من تخبـط ، وتشدق وانخداع . أما غيري فلعله اتخذ من المشاركة والمتابعة وربما العراك وسيلة الى ما يرى أنه الطريق السليم الى معنى لعله لم يتحدد في نفسه ، كما لم يتحدد في نفوس غيره من البشر .

والتقيت رجلاً ، كان قد وصف لي فيما سبق من أيام بأنه أحد المطلعين الجادين على الثقافة الايطالية . كان راغباً في التحاور معي ، ولم أكن رافضاً لذلك ، وان كنت غير مقبل عليه . فحالـة التأمـل عندي تغرقني ، بل تكاد تجعلني شبيهاً بمن يعاني ذهاناً .

وجدتها فرصة لأخرج من حالتي وقادتنا أقدامنا الى مقهى تنتشر كراسيه أمام إحدى دور العرض التـي كانـت تدير شريطـاً مصرياً ، فتبـدو خلفنـا على لوحـة الاعلانـات صورة راقصـة مصرية عارية الفخذين ، ودون مقدمات بادرني المثقف بالسؤال عن حدود الوطن في ذهني ، وهو يعني بذلك الشروط التي يقوم بقيامهـا الوطـن ، ولـم ينتظر مني جواباً ، إذ قال بأن معنى الوطن في ليبيا ، ما زال هو وطن القبيلة ، فاذا ما أطلقت هذه الكلمة دون تحديد فان ما ينصرف اليه الذهن هو وطن القبيلة . فالفرد الليبي حتى ولو كان مثقفاً لا يعرف للوطن معنى غير ذلك المعنى الذي تسرب اليه من محيطه ، الذي لم يكونه في الوجدان الا ما ترتب على الأمور المعيشية الصغيرة ، وما ارتبط بها من حياة اجتماعية أشد منها بساطة ، بامكانـك ان تقـول الوطـن الليبي وتكتب ذلك وتدافع عنه ، ولكن لن يفهمك احد منطلقـاً في

فهمه من الواقع ! قد يفهمك على أساس انها دعوة سياسية مثل تلك الدعوة التي كانت تقول بوحدة ليبيا ، في مقابل ليبيا المتحدة ، أو تلك الدعوة التي ترى وحدة العرب أو وحدة المسلمين فتحس إعجاباً من قلة أو هم بعض الذين تبعوا جمعية عمر المختار أوحزب المؤتمر ، او غير ذلك من أحزاب وشعارات ودعوات جديدة ، ولكن أي منهم لن يلبث أن ينصرف عنك الى شئونه الاجتماعية والاقتصادية خاضعاً فيها لشروط المواضعات القبلية ابتداء من التعامل بين القبيلة والمدينة ، وانتهاء بتقدير شيخ القبيلة وحكيمها ، وما يمليه على كل فرد من موروث العادات والتقاليد .

اعلم ان ذهنك مشحون بمفهوم « الوطن » بشروطه الحديثة ودستوره وقوانينه ، ولا أعيب عليك ان تكون مقتنعا بمثل هذه الشروط ، ولا تترك فرصة دون الحديث عنها ، ولكن اريد ان أنبهك الى الواقع . ففي الواقع الذي نعيشه من الثوابت ما يجعل شروط الوطن غير تلك التي تقرؤها في الكتب .

أفهم انك ستقول بأن لدينا دستورا ، هو ذلك الدستور الذي ساهمت الأمم المتحدة في وضعه وأفهم انك تتخذ منه منطلقاً لكي تعمل من أجل محتوى باعتبار ان الشيء القائم هو شكل ، وسيظل قالباً واسعا لمحتوى مفقود ، ما لم نعمل على إيجاد هذا المحتوى . واعلم انك تضمر في أعماقك فهمك، ان هذا الشكل قد أوجده او ساعد على وجوده الصراع الدولي ، وان العالم هو ذلك الاحتدام المتبقي من الحرب العالمية الثانية الساخنة .

وما بقاياها الا حرب مستمرة وان التناقض في العالم لا يراد له

ان يصعد الى درجة حرب عالمية ثالثة ، رغم أن دعوات لا تفتأ تتردد داعية الى القضاء على المعسكر الشرقي باعتبار ان الظروف مواتية لذلك ، وان سلاسل الأحلاف هي استعدادات واضحة لذلك ، أو هي تمهيدات لأمور تمور بعد مؤتمر « يالطا » .

أعرف انك ستقول بأنني أبعدتك عن نقطة الخلاف وسبحت بك في التيارات الدولية ولكنك لا شك تعرف ارتباط ليبيا القوي بكل هذه الأمور .

فهي مثلما ارتبطت بالظروف الدولية بهذه الحدة ، كذلك ارتبطت بأحوال المنطقة وما يمتد فيها من صراع دولي بحدة أشد . اننا يجب أن نعي كيف نتحرك ومن نتبع حتى لا أغالي فأقول من نحالف .

إننا لا نستطيع ان نقف بمفردنا . صدقني أن العمل من أجل الوطن والدفاع عنه كشيء مقدس أمر لا يحمينا ولا يكفل لنا الحياة . واذا كان عملنا من أجل الوطن باعتباره يمتلك اسواراً تحمينا ، فيجب ان تدرك ان هذا الوطن كما تتصوره هو فكرة مثالية ، مرتبطة بتوازن القوى الدولية وهي أشد ارتباطاً بتوازن القوى داخل هذا الوطن يتمثل ذلك في التوازن القبلي ، والتوازن بين غربه وشرقه وجنوبه ، والتوازن بين أمريكا وبريطانيا وفرنسا وايطاليا ، كلها أمور في الداخل قد تصل الى حد حركة بعض الأفراد أو الكلمات أو صفحات هزيلة من صحف . ألم تدرك انك متهم بعملك من أجل وطنك بالصورة التي تقول بها ، بالعمالة للجهاز الحكومي الذي تعمل فيه .

لا تؤاخذني اذا كنت صريحاً فهذا حديث من اجتمعت بهم

وتحدثت اليهم في تلك الأمسية . لا يأخذك الحنق فتتساءل عن الكيفية التي يكون بها موظف عميلاً لجهاز حكومي هو أحد الموظفين الملحقين به . هذا هو الواقع فأنت موظف في حكومة اتحادية ، والصفة الغالبة على الحكومة الاتحادية هي صفة الأمريكانية بينما الصفة الغالبة على حكومة برقة هي الصفة الانجليزية ، أما حكومة ولاية طرابلس ، فصفتها الرئيسية هي الإيطالية ، أما ولاية فزان فهي فرنسية . لذلك كانوا يرغبون اليك ألا تكون ذلك العامل في إخلاص لما ترغب الحكومة الاتحادية ، التي تتغطى بدستور اتحادي ، وهي مرة خاضعة للأوامر الانجليزية ومرة للأوامر الأمريكانية ، ولا يخلو الأمر من ان يكون للايطاليين فيها نفوذ كذلك الفرنسيون فانهم يستطيعون إيصال نفوذهم بواسطة أحد الوزراء وهو في الغالب الوزير الوحيد الممثل لفزان .

لقد جمع الدستور هذا الصراع وصاغه في شكل اتحادي عجيب مجمداً هذا التضارب ، أو محاولاً تنظيمه ، حتى لا يفلت الأمر من أيديهم فتدخل قوة أخرى من القوى البازغة بعد الحرب بما لها من عقيدة وقوة اعتماداً على تيارات وحركات .

أنا أعلم أنك تريد محتوى وطنياً للدستور ، وترى في الدستور شكلاً ملائماً لفترة قد تطول ، وبالامكان ان يترتب عليه تطور وعمل واضح ، وتداخل مع المجتمع الدولي في وضوح ، ولكن هل تعتقد أن المجتمع الدولي ساكن ينتظر حتى يتحرك مجتمعك وينمو ويتطور ؟ أظنك تعي هذه الحقائق ، وهي ليست غائبة عنك . هناك الآن في المنطقة دعوات كثيرة للوحدة ، وهناك طرق عمل واعية تعتمد الجماهير

العربية ، وترتكز على الوعي وحركة التنظيمات والزعامات .

ستضحك عندما تعلم أن البدوي يتعامل مع الحكومة كشيء قائم بعيداً عنه يمكنه ان يستفيد منه شيئاً هو كالغنيمة بالنسبة اليه ، فالحكومة في ذهنه قوة بعيدة تسيطر على المدينة وتتعامل مع شيخ القبيلة ، ولا رابطة بينه وبينها غير ذلك .

لم يقنعني حديث هذا المثقف الجاد ، ولكن كلماته فتحت ذهني على واقع وأمور لم أكن على المام بأكثرها . هيء لي ان واقع وطني أشد تعقيداً من لكلوكة من خيوط الصوف أسقطها نول خشبي قديم !

— 12 —

كنت أواجه البحر مستغرقاً تكاد أصوات أمواجه وهي تضرب الصخور تنقلني الى عالم لا اعرفه ، لولا صياح المكبر المعلق فوق تعريشة من جريد ، يختلط وجيجه بما يمكن أن اتبينه من موسيقى ، يقطعها كلما مرت دقائق نبرات رجل يقول « هنا صوت العرب » .

كنت أسند ظهري الى حائط فندق « النجمي » وقد مر على وصولي الى بنغازي ما يزيد على شهرين ، أحسست خلالهما عمق الضياع والوحدة وقلة الحيلة . لم يكن أمامي ما أفعله غير الانتظار .

الساعات تمر ثقيلة ، فهي هابطة على القلب لا تريد الحركة ومثلي كان يتمنى لو قطعت الزمن ، واخترقت الحجب ، فلا تعود تحسب أقسام الزمن التي اتفق عليها الناس ، بل تجعل لي حساباً آخر

ما أيسره وما أسرعه ، فهو غمضة عين يتغير فيها حالي ، فاذا بي أتحرك وأفكر واعمل ، تضج من حولي الصدور ، فهي صانعة فاعلة ، وتهتز الأيدي فهي قوية قادرة ، مكتشفاً تلك الجذوة المتوهجة ، فهي في قلبي ، بل هي قلبي ووجودي ، ولكن من أين لي ان أكون مثلما أتمنى ، والناس من حولي نيام ، كأنما يتمون رقادهم سيراً على أقدامهم . حدة كلماتهم ملل ، وليست نشاطاً ، وبسرعة ايقاعها تبرم وليست حرصاً . ارتبطت حياتهم بريب الزمن الهادىء وسناناً يهمس من الصحراء ، غير عابىء بهدير الأمواج ، فهي لا تستطيع أن تفعل أكثر من تكسرها على حافات الشاطىء الصخرية .

وقطع عليّ وحدتي صوت شاب أسمر الوجه ، دقيق الملامح ، يلبس نظارة سوداء ، يرتدي سراويل رمادية بدّل الاستعمال لونها ، وقيمصاً كاكياً احتفظ بخضرته الدكنة مختلطة ببقايا العرق ، ويعلق بين أصابع قدميه ما يحميهما من السير حافيتين ، اذ لم أعرف معالم ما يرتديه فيهما ، كان قريب النفس من الغير ، ودوداً ، يريد أن يسمع ويعرف يعطيك انطباع المجتهد الدائم الذي لا يتوقف عن البحث والقراءة والاستماع والمشاركة والاتصال . . وفي لحظات كنا مشتبكين في حديث يتناول جوانب الحياة في المدينة ، وما حولها ، كنت مستغرباً لما أراه من إهتمام الناس بما يحدث في مصر والمشرق ، اذ اعتقدت انني سأواجه طريقة حياة مختلفة ، فهم يعيشون ظروفاً ويرتبطون بأحداث يختلف تناولها عن الكيفية التي يمكن ان تتناولها بها مصر ، ولا شك ان الذين كلفوا بادارة شئون هذا البلد يختلفون في أفكارهم ومشاعرهم وتكوينهم عمن كلفوا بإدارة غيره من البلدان .

كنت أظن ان أذرعاً ستضم كل وافد ، وتغرس في نفسه أشياء جديدة ، وتجعله يحس بأن ما يحيط به لا يقدر أحد على المساس به ، اذ يحيط بالوطن مثلـه . وقـد صنـع التـاريخ هذه الأشياء التـي تحمـي المجتمعات ، فتكون منها ملامح تستعصي على الذوبان . هي تملك من تتابع الزمن الذي صنعها قسوة التماسك ، فهي لا تنحل بالأمنيات وهي لا تذهب عن الواقع حتـى لو استطاعـت النفـوس أن تذهبهـا عنها . قلت للشباب وأنا أدير رأسي ، ألم تر كيف أن الناس يغرقون انفسهم في الاهتمام بالغير ، انني أكاد المس ان بداخل كل منهم شخصاً آخر يعيش بعيداً عن هذه المدينة . فهم على ما يبدو قد جاءوها على عسر مضطرين . فلم يرتبطوا بها الا مراءة وتحذلقا وادعاء ، وكأنما ووجه الشاب بحدة الاتهام ، فهـو ابـن للمدينـة ولا شك ، ومثلـه فطنت الى أنني تجاوزت الحد في الصراحـة ففـي حديثـي رنـة إتهـام رهيب ، ولكن يبدون أن كلاً منّا تقبل معاني الكلمات كما يتقبل الفرد ما توصي به عبارات العزاء .

أجابنـي وهـو ينظـر الى الأرض قائـلا ، بأننـي حديث عهـد بالبلاد ، فلا شك انني في حاجة الى فترة من الزمن حتى اتكشف ما تحت السطح ، فللمدينة أعماقها كما للوطن - وعلاقات الناس فيه - أبعاده . إن ما أراه - هكذا قال - من تعلق بالغـير ، أو هو التعلـق بالاذاعات وما ينطلق عبرها من أصوات وموسيقـى ومؤثـرات . إنمـا فرضه على النفوس خلو الوطن من شيء يمـلأ الوجـدان فلا شك ان الحرب دمرت كثيراً من الأشياء ، وقبلها دمر الايطاليون النفوس . لم يبن الايطاليون شيئاً ، ولم يحاولوا أن يعمروا البلاد بأشياء تهمهم .

كانوا يريدون ارضاً لا بشراً . فتفرق أهل البلاد في كل اتجاه ، أحسوا أنهم فقدوا وطنهم فلا عودة اليه الا في أحلامهم .

وعندما عادوا كانوا يفترقون عن الأرض التي طردوا منها ، كان وجدانهم قد تشبع بأشياء أخرى غطت ذلك الحنين والارتباط بالأرض . لم يستطع الايطاليون أن يربطوا أبناء البلاد بهم ، أو هم حاولوا ذلك في فترة متأخرة . ولو فعلوا لكان لما فعلوه سلاح ذو حدين اذ هو بقدر ما ربط الشباب بالثقافة الايطالية لكان بالضرورة قد ربطهم بوطنهم . وأعني هنا من نشأوا في ظل الايطاليين .

لعل الشاب أدرك أنني لا أتقبل كلامه ، وان كنت استمع مجاملاً فاستدرك ليحيط بجوانب الموضوع قائلاً . إن الوطن في حاجة الى أبنائه ، ومثلما تعلم فان اتجاهنا التعليمي كان الى مصر ، فلم يكن أمامنا غيرها ، وهناك مثلما تعلم واجهنا تيارات لم تتضح كثيراً في رؤوسنا . لم نكن على وعي بها ، والمجتمع المصري كثيف فترى التيارات والحركات فوقه تدفعك أنت ولكن المجتمع لا يحس بك وبها .

قلت مقاطعاً ، لا شك انك تملك نظرة ثاقبة للمجتمع المصري . فأنت في السنوات الأخيرة من تعليمك كما أعلم ، ويبدو أنك لم تنتم الى تيار . أجابني متبرماً من اقتحامي جانباً لا يحق لي أن أدخله . إن الإنتماء صعب ويحتاج إلى وضوح في الرأي والهدف ، والى إخلاص في العمل ، أنت ولا شك تدرك ظروفنا . إننا نبدأ من الصفر . أو ما قبل الصفر . ومن كانت هذه بداياته فعليه ان يهتم بالأساسيات المتمثلة في تعليم أهله أو الإمساك بجانب إداري أو فني -

قبل ان يهتم بالحركات السياسية والصراعات المذهبية .

وجدت ان رابطة خفية نمت بيني وبينه ، ولكنه كان على ما يبدو غير حريص عليها ، هي علاقة نشأت مثل تلك التي تنشأ بين راكبين في حافلة أو قطار ، قد تذهب الى الأعماق بعيداً ، ولكنها لا تلبث ان تنقطع فجأة ، دون أسى أو ثمن . وغادر الشاب مكانه محيياً مثلما أتى ، وبقيت أرسل نظراتي الى البحر ، متتبعاً الخيط الذي ينقل الصوت الى المكبر المعلق فوق التعريشة عبر الشارع ، والتقاء الأقدام المتحركة بالأرض يقطع عليَّ استرسالي في التفكير . ترى أكان مثله في حاجة الى هذا الإحساس ، ألم يكن في الإمكان نشوء محتوى وطني يربط الفرد أثناء تفتحه ، ثم يتركه بعد ذلك ليقارن ويوازن ويختار إذ يكون قد حاز ملكة النقد والفهم ، واقتدر واعياً ان يختط طريقه . ان الاجتماع ممارسة ولكن لا بد من أسس ، تقوم عليها حركة الاجتماع ، التي تتأثر بما يجد في العالم . أن المفهوم المسطح أو الذي يحاول ان يقولب المجتمع في سهولة هو المفهوم الذي يدفع الى النقيض ، فكلما كان المجتمع كثير القنوات ، كلما توصلنا الى جوهر التواجد الاجتماعي المتحرك . التفت في حركة متابعاً أفكاري ، فواجهني وجهه المثقف ثقافة ايطالية. كان مبتسما اذ رأى على وجهي علامات القلق . فلم يجد مني جواباً غير أن السبب لا يتعدى قلقي الفكري ، فتساءل عن سبب ما أحس ، وأخذنا الحديث دون تخطيط أو اعداد ، نقفز من فكرة الى فكرة ، حتى رجعنا دون أي وعي منا ، أو لعله كان يقصده هو ذلك ـ الى المشكل القبلي فسمعته يقول بأن النظام الملكي عندما قام في ليبيا ، لم يجد أسسا يرتكز عليها غير النظام القبلي ، والقبيلة كانت

قد تهرأت اذ تقصدها الاستعمار الايطالي ، خوفاً من أن تكون حائلاً بينه وبين الامتداد في الداخل ، فضرب مرتكزاتها ، ولم يساعد على نموها ، ولم يعطها اعتباراً ، بل حاول أن ينتقي أفراداً يجعل منهم واسطة بينه وبين السكان . لم تكن القبيلة وحدة سياسية مثلما لم تكن وحدة اقتصادية ، وإن تمتعت بما يسمى أرض القبيلة ، ولكنها كانت وحدة تاريخية ، ساعدت عوامل الاتساع وقلة السكان ، وعدم وجود نقاط احتكاك حضاري كثيرة على بقائها واستدامتها . . لذلك لم يجد الإيطاليون صعوبة في تفكيكها ، ففرغت من بقايا محتواها الإقتصادي الذي كان يعتمد على أرض القبيلة ، وتم عزل النشاط الرعوي في الداخل بعيداً عن الأمكنة الخصبة ، ذات الأمطار المتوفرة ، واجتذبت العناصر النشطة الى المدن والقرى . وما إن أشرف الاحتلال الايطالي على تمام استقراره حتى كاد أن يجعل النظام القبلي أثراً بعد عين ، ثم كان النظام الملكي ، ومجيء الإدارة البريطانية قبله ، فعملت على أن تجد لذلك النظام مرتكزاً يتواءم مع مفهومه للحياة ومدى وعيه بها وبالواقع الليبي ، فلم تجد خيراً من النظام القبلي تحييه ، وتجمع مشائخه حتى يكونوا عمد السلطة وواسطتها وأدواتها ، وبالتالي يساهمون مع قبائلهم في إيجاد شكل للمجتمع . لذلك كنت تلمس التناقض بين دستور حديث اتحادي ونظام قبلي وجهوي . إذا سمعت الخطب قلت أنك في دولة لها دستور وعندها قوانين ، وفيها طرق للعمل والتعاون والتبادل مع الدول الأخرى ، واذا ما عشت الواقع ودخلت في قلب المعاملات الادارية والمالية ، ووجهت بوسائل قبلية ، لا ترى مصلحة في غير القبيلة وشيخ

القبيلة ، وما يرتبط به النظام من مصالـح متبادلـة وأحـكام وأعـراف ومذهب صوفي يمتلك رمزاً يقترب من الرمز الطوطمي .

لقد كان لبريتشارد دوره في جمع المعلومات عن القبائل ، وهو يعمل تابعـاً للجيش البريطانـي ، يجـول بـين مضـارب الخيام ، ثم ليصدر كتابه مستفيداً كثيراً من معلومـات دي أوجستينـي . وليوزع ذلك الكتاب على جنود الجيش البريطاني كدليل يرشدهم في تعاملهم مع البدو . ومن هنا تتبين مدى حرص الجيش البريطاني ثم الإدارة البريطانية على فهم الواقع في ضوء ما يريدونه ، أي إحياء شكل مجتمع كاد أن يتلاشى ، واعطائه مقومات فقدهـا . . وبالتـالي إيجـاد شكل يتعاملون معه ويرتبط بوجودهم .

تسـاءل المثقف أن كان أثقـل علي ، فنفيت ذلك ، ورحبـت بحديثه ، فصوت الأمواج لم يعد هديراً ، وكلماتـه لا تدل على أنـه يبتغي شيئاً من ورائهـا . هي معلومـات كونهـا على مهـل ، وزادت التجربة فأعطته ايماناً بها ، فود لو ان مثلي اقتنع بها .

— 13 —

هل كان من السهل عليَّ أن اقتنع بمـا يلقـي الي ؟ فالرغبـة لا تنقصني لأن أشارك الناس أفكارهم ، والتـآلف هو ما يدفعنـي لكي أتعـاطف مع الغـير ، ولـكن في أعماقـي يقف تكوينـي التاريخـي ، وتمردي ، وتفردي لتجعلني متماسكاً حتى ولو دلت ملامحي على غـير ذلك . . . ومهما عانيت من لحظات الضعف والخوف من الوقوف على

حافة الانهيار ، والارتعاد من لحظة السقوط ، فإنني أشعر بأن هناك في أعماقي ما يعصمني من الإنحراف والإنجراف .

تهمني مشاكل الناس وأمورهم بل يحزنني الشقاء والتعاسة في أقل رموزهما . فكيف يكون حالي بواقعهما . تصل بي حالات التجاوب الى حد التدمير الذاتي، وينتابني ماينتاب المجذوب إذ قد يلقي نفسه في النار تلاشياً . . إلا أن هناك ما يجعلني أنظر الى نفسي من بعيد فاسخط على ما وصلت اليه ، وانتقد نقداً مرا أسبابه ، واستكشف جوانب الحالة ، لأصل الى اكتشاف حدودي ومقدرتي ، وحدود الغير وقدراتهم ، ولأرى أن ما وصلت اليه هو ثورة معكوسة ، فما علي إلا أن أضعها على طريقها الصحيح لأصل الى بداية الفهم العملي والفعل الواعي ، وبالتالي تكون مشاركتي مرتبطة بشروط وأسباب ، في ضوء العقل والتوازن .

لم يعلنا الصمت طويلا ، رغم أن ما في نفسي كاد يعلو على ما حولي من الأصوات المتنافرة ، يختلط بها رشفات صاحبي المثقف لكأس الشاي ، وكلمات أغنية مستجدية تخرج من الجهاز ممزوجة بضوضائه الكهربائية .

وعدت استمع اليه وهو يقول بأن الواقع في القسم الغربي من ليبيا كان مختلفا ، إن ملامح الشكل القبلي اختلف واخذ من شبه الاستقرار صفات الجهوية ، فتداخلت قبائل ، وأصبح الانتماء الى الجهة أوضح من الانتماء الى القبيلة ، لقد كان للأتراك أثرهم كما كان للارتباط بالأرض أثره ، هذا بالاضافة الى أن المدن الساحلية مارست فعلها في ايجاد نوع من السيطرةعلى الدواخل، وفي ربطها بهاوببعضها

البعض . كان هناك ما يمكن أن نسميه بالروابط العامةالتي يشترك فيها جميع السكان ، مما خلق شعورا وحالة نفسية مشتركة واحساسا بالتواجد الوطني ، نستطيع أن نتجاوز فنقول أن حالة من الانتماء الوطني قد وجدت أو كانت في طريقها الى الوجود ، وهو أمر سهل على الطليان السيطرة على القسم الغربي ، وقلل من امكانية المناوشات والصراع على مستوى منطقة على حدة ، ذلك أن روح الانتماء الجماعي مثلما هي عامل مساعد على قوة الصمود ، هي في نفس الوقت وفي حالة الاستنكار من أشد العوامل فعلا ودفعا الى سرعة الانهيار .

كان الجزء الغربي من البلاد متقدما بالنسبة الى الجزء الشرقي وكان تقدمه واضحا في التعليم الديني ، وانتشار الطرق الصوفية ، واتجاه ابنائه الى التعليم في الأزهر والزيتونة ، وساعد القهر الايطالي على هذا الاتجاه حتى يستطيع توظيفه في خدمته ، وما أن انتهت الحرب ، وخضعت البلاد للادارة حتى برزت الى الوجود مشكلة ارتباط ابناء القسم الغربي بما حولهم ، وبما يمر في العالم العربي شرقه وغربه من تيارات واحداث وأفكار ، فنشأت الجماعات الفكرية وتكونت الأحزاب السياسية، وظهرت الشعارات الكثيرةوكان صعبا على الادارة أن تتعامل مع هذه النتوءات المتنوعة ، فساعدت بدهائها على الاستواء وتوحد الانتماء ، إذ غضت البصر عن زعامة استطاعت ان تبلور الواقع الاجتماعي والسياسي في شعارات بسيطة لا تتعدى الاستقلال ووحدة البلاد والانضمام الى الجامعة العربية ، ثم استطاعت الزعامة أن تربط الاستقلال بالنظام الملكي ، وتحركت البلاد في ظل هذه الشعارات وكانت الغاية من ورائها أن يقع تجاوز التيارات

المختلفة خاصة التيار المنادي باستقلال طرابلس ، أو ارتباطها بايطاليا في شكل انتدابي . أو اتخاذها المبادرة والحركة بعيدا عن السنوسية ، وما أن أتمت الزعامة المتمثلة في حزب المؤتمر دورها في جعل الجزء الغربي يدخل تحت النظام الملكي ويرتبط بحركته دوليا ، حتى قضي على المؤتمر في غمضة عين ، وأحل محله العناصر المناورة السياسية ذات القواعد الجهوية والقبلية ، والتي هي بطبيعتها ، وتركيبتها التاريخية ذات ارتباطات مختلفة ، وولاءات غامضة ، مما أمكن معه توجيه الأحداث ووضع أساس النظام الاتحادي باشراف الأمم المتحدة .

لم يكن عسيراً ان تستطيع التحركات الدولية ، والاتصالات الفردية الداخلية ادخال فزان بواسطة عائلتها الحاكمة في اتفاقات تجعلها ضمن النظام الاتحادي .

وكان أن تمت العمليات التي وازنت بين الحركة في البلاد ، والتحركات الخارجية ، ليصل الأمر الى ما سمي في ذلك الوقت بالقضية الليبية وليستطيع المجتمع الدولي ، الخارج من حرب طاحنة - وضع حل يوافق عليه الجميع ، وكل يراه بوجهة نظره ويربطه بمصالحه .

كانت كلمات المثقف خافتة ، وكان الارهاق قد اخذ مني كل مأخذ ، ولم يكن أمامي الا أن أرضى بجلوسي مستمعا . كان عليه أن يحس بما أعاني ، ولكن يبدو أن ما يعتمل في نفسه قد شغله عني ، فما أن أحس بتململي حتى توقف عن الحديث كان في نظراته ما يدل على اتهامي بأنني لا أحسن الاستماع أو أنني لا أرغب فيه او ان ما يلقيه على مسامعي لا يهمني ، بل لعله يتعبني ، ويملأ جوانحي بالاضطراب .

وربما يكون قد فهم ممن حاورتهم بأنني لا أبغي التعرض لأمور حساسة ، لعلها تجرح أو تثير كل فرد تنقل عنه الى الآخرين صور كثيرة تختلف ملامحها حسب الناقل ومستواه الثقافي ، وجوانبه النفسية ، وارتباطاته الاجتماعية . ما أن يتحرك الفرد منا حتى يجد عند أي انسان يلتقي به ويكون قد سمع عنه صورة ، سريعا ما يخرجها الى ذهنه عندما يسمع اسمه ، وتبدأ لحظات المقارنة ، ومحاولات التحقق من الملامح ومطابقتها على ما سمع ، فيحدث أن يحتفظ بالصورة كما وصلته سماعا ولا يرضى لها تبديلا ، فعنده ما يشغله عن عملية التعديل التي تتطلب مشقة وتغييرا وتبديلا ، مما يجعل الثبات امرا مرغوبا فيه والأفراد كمجتمعاتهم يحبون الثبات والارتكان الى ما في نفوسهم من صور حتى لا يتحركوا كثيرا ، فالحركة مشقة وتكلف النفس عناء ، مما يجعلها في حالة حضور دائم .

كنت اخشى هذه الصور المرسلة عني ، وكثيرا ما كنت اتحاشى النفوس اللافظة المنتظرة اذ ادركت بفطنتي قبل أن أعي مقدار التشوه الذي يحدث لنفسي ، عندما تتحول الى صورة ملتقطة من زاوية معينة أو ارتكاز على كلمة مسموعة ، أو عبارة طائرة ، فهي نتيجة لحالة محدودة ، أو هي لحظة قصيرة جعل منها صورة لحياة كاملة تتحرك وتتحول وتتطور ويطرأ عليها ما يطرأ ويعتريها ما يعتري الأحياء ويأخذ بخناقها صغائر ، أو تهتز أمام الكبائر . . إنها قطعة من الحياة ، وليست شيئا محجوزا محدودا ثابتا .

كانت نظراتي تحمل هذه الخواطر ، وأنا أتجه بها الى صاحبي ويبدو أنه فهم عني ما يعتمل في نفسي فوقاني امر الافصاح . . وما كان

أشده على نفسينا، اذ تلتقي النفـوس أمـراً تخشى الخـداع . . وتفترق وهي تتمنى أن تكون قد أبقت معنى لا يخالطه الرياء وكثيرا ما تكتشف انها لم تبق غير الخواء فلا هي اوصلت ما يحتدم فيها الى غيرها ، ولا غيرها يحتدم فيها شيء . وقد فهم العناء تحرك صاحبي مغادرا المكان وتحركت بعده ونظرات كل منا خابية ليس فيها ما يدعو الى لقاء ثـان أو يرجوه .

ما زلت اذكر تلك اللحظة الراكدة الاسيانة التي سيطرت علي ، فلم أعرف لها سببا . .

— 14 —

يهبط المساء فكأن حجرا ثقيلا هبط على قلبي . انظر الى السماء ثم أعود ببصري الى مياه البحر ، هاربا بنفسي في زرقتهما ، فلا استمر طويلا حتى أعود الى الأرض لتتنقل بي قدماي وسط شارعي الاستقلال وعمر المختـار . الوجـوه ساهمـة ، فنظراتهـا لم تعـد مستطلعـة . الكلمات فارة ، فليس هناك ما يدعو لأن تشيع فيها الحرارة ، الأيام كالكلمات ، كالساعات كالدقائق كلها علامـات رسمـت على حائـط قديم خرب ، القيت الى جانبـه ، فأنـا أصـارع ، ولا أعـرف ما أصارع .

أجول في بعض الأزقـة متـرددا خائفـا ، فما زلـت لم أعـرف الملامـح الـداخلية للنفـوس ، قد يظـن بي أحدهـم ظنـا لا أرضـاه لنفسي ، فتتسارع خطواتي عائدا الى الفندق ، غير متوقف الا عنـد صوت البحر في اضطرابه او هدوئه ترى هل قامت الفة بيني وبين هذا

المدى ؟ كم من مرة سألت نفسي هذا السؤال . حتى تكون الاجابة بداية لقناعة استطيع بواسطتها أن أصنع مرتكزا لمشاعري ، فربما تحولت الى شاعر ، فبمثل ما أعاني كانت بداية الشعراء !

لم أجد في نفسي توقا للشعر تلك الغلالات الزرقاء والنغمات الوردية ، والهفهفات اللازوردية ، والأنغام الاسطورية ، والايحاءات السماوية ، والأصوات الجوانية ، والعبير الهامس والعيون الحوراء تقتل بالنظرات ، والآذان المستشعرة لايقاع ألوان ، وما يضطرم في داخلي من إيقاعات الأحزان ، كنت في زمن بعيد ، عند بدايتي لتلمس وجودي بالقراءة أتوق الى التعبير عنها أو إخراجها بأي شكل من اشكال الاتصال فهي محتوى عميق ، هكذا كنت اشعر وأظن ، تتابعت الأيام والسنون فزال عن الوجود والأشواق حدتها ، وذهبت بهجة الكلمات ، ووجدتني واقفا على الأرض ، وسط الناس ، يكاد الحزن يقتلني واضحك ، يثقل قلبي في صدري فأبسط وجهي وتحتدم المشاعر في وجداني فلا اعيرها اهتماماً ، فالحياة واقع يجب أن يعاش بحقائقه وتفاهاته ودقائق اموره ، لا تحليق ، ولا ابتعاد ، ولا إغراق ، ومن لا يعي هذه الأمور ، عدوه شخصا لا يستحق الحياة ، بل هو مسكين شط به الخيال ، أو جنحت به المراهقة مستمرة معه ، فتمسك بمثاليات ، أو جوانب شاعرية ، لتوصله الى انزواء فانطواء ، تتآكل فيهما نفسه حتى تموت .

تركت أحلامي منذ زمن بعيد ، وما ينتابني وقد أطبقت على مدينة بنغازي ـ غير ضيق يأخذ كل نفس ، فما أكثر ما يردد الفرد منهم كلمة ـ طايرة له ـ تسمعها منه وهو يلقيها في وجهك دون اعتبار ،

وربما لا تسمعها ولكنك تدركها على ملامحه أو تتلقى نتائجها دون أن تدري . .

كل فرد ترك احلامه بعيدا هناك مدفونة في كومة تراب ، فلم يعد هناك في النفوس غير معاملات الواقع وما يترتب عليها من هواجس ، وهي أمور صغيرة ، ولا تحسب الا عند حصاد موسم جفاف ، وما أكثر سنوات الجفاف في الطبيعة ، وما أكثر سنوات الجفاف في القلوب .

هي مدينة في وطني ، أحملها في قلبي كسائر المدن ، لا أرى فرقا بينها وبين غيرها ، ولا أفضل أناسا آخرين على اناسها ، الجميع لدي أبناء لهذا الوطن الواسع الممتد من آفاق البحر ، ومتاهات الرمال ، والمدن مرتكزات فيها من البشر جماعات جمعت بينهم أحداث ، فلا فرق عندي بين فرد وآخر ، مهما حسبوا من فروق ، ومهما جعلوا من مميزات لجماعة على أخرى . هم ما زالوا غائبين عن حقيقة ما أعيش وأفكر وأحس ، وسيعيشون يوما مثل هذه الحقائق ، وسيجدون متعة لحياتهم في أية مدينة ، وسيقترب الفرد من الآخر ، كلهم أراهم في كل مدينة ، لا أحس بالمسافة والبعد الشاسع والافتراق والالتقاء ، مثلما لم يحسوا بذلك فتنقلوا منذ زمن بعيد ، وهاجروا ، وقطعوا الصحراء ، ووصلوا الى حافاتها ، تاجروا ، وتاهوا ، وماتوا ، وعاشوا ، وفي جوانحهم لا بد أن يكون معنى قد أتقد ، ومثلهم يتقد هذا المعنى واقعا في حياتي ، غير مشتط في رسمه ، بايقاعاته هي ما يدفعني الى الحركة ، وبدونه لا أجد حافزا ، ولا دافعا ، ولا ضرورة لهذه المعيشة ، بنغازي مدينة في وطني ، وتظل قدماي تحملني وأدور

في الشوارع عبر أزقة ، وحذائي يرتطم بالحصا ، وكثيرا ما تنهبع قدماي في حفرة ، لأعود واقفا أمام فندق النجمي . . مطيلا الوقوف قدر ما استطيع ، فالريح باردة ، وما علي من لباس لا يكفي فصل الخريف .

جئت لا أحمل شيئا غير ما تحمله كتفاي ، وكانت حلة من قماش قطني ، تهدلت جوانبها ، وكان علي أن احتمل حتى استطيع استبدالها .

واحتملت والشتاء يقترب فالشهر الأخير من عام ١٩٥٧ يقترب ، ودخلت « الوظيف » فأخذني انسان وضمنني عند تاجر استطعت أن أحصل منه على حلة ودثار . فالتحمت عظامي ، كنت أسير دافئا ، وقبل ذلك كان القلق من أجل الحصول على سبب من أسباب الرزق يعتصرني . لم أعرف السبب الذي من أجله توانوا عن تعييني فترة تقرب من ثلاثة اشهر ، وعرفت ذلك بعد مدة . كان سببا هاما ورئيسيا ، إذ كنت عائدا من الهجرة ، بلا متاع ، لا أحد يعرفني ، فكان لا بد من السؤال عني بواسطة السفارة ، عندهم حق ، ولكن أما كان يحق لي أن أخبر بذلك ؟ ولكن كيف لهم أن يخبروني ، وهم يصنعون كل ما يستطيعون من أجل الحفاظ على الوطن! فربما امتلكت في جسمي قوة تدميرية، أو حملت في نفسي نوازع تخريبية ، فكان عليهم أن يكتشفوا هذه الأمور ، ولعل ما عجل بالأمر هو أن أحد الوزراء كان يلح في الحصول على موظف يستطيع ان يكتب رسالة باللغة العربية ، وحبذا لو كان باستطاعته التحدث بلغة أجنبية بعض الشيء . . ولم يكن أمامهم غير طلبي المقدم اليهم منذ مدة

فكان ان لم ينتظروا جواب السفارة ونوديت لأقدم للوزير على أني شاب أحسن كتابة رسالة وربما استطعت الحديث بلغة أجنبية .

لا أسخر ، فواقعي اعطته كلمات بسيطة ، ليست عسيرة على الفهم ، لا أزيد فيها ولا أنقص ، أما مشاعري في تلك اللحظات فهو ما نسيته ، فقد أزيد فيها وقد أنقص . لعلني استقبلت الأمر بعدم اهتمام زائد ، أو ربما اخذتني بهرة المكاتب ، وكانت مكاتب جديدة مطلية باللون الأحمر الداكن ، عريضة من لوح قوي . وضعت في مبنى طليت جدرانه حديثا ، فالحكومة الاتحادية انتقلت الى بنغازي منذ مدة لا تزيد عن شهر ، وأعد هذا المبنى ليحوي رئاسة الوزارة وبعض الادارات .

لم يتغير ما بداخلي ، وأن تغير مظهري ، ظلت ملامحي النفسية كما هي ، وزاد عليها أن قل الترقب والانتظار .

ترى هل كانت نهاية المطاف ، ما وصلت اليه ؟ وظيفة ارتقيها درجات حسب قانون ، ولا عمل الا ان أحسن كتابة رسالة باللغة العربية ، وأحاول أن أجيد لغة أجنبية أخرى .

لا أعتقد أنني أحسست هذا الاحساس ، ولا كنت موطنا العزم على أن أفعل هذا الأمر ، فأستكن وينتهي دوري ، فاعتقادي جازم بأنني استطيع أن أقدم شيئا لوطني ، لا يهمني أنني اجتزت مرحلة الابتداء في الكتابة ، ولا يعوقني أنني أخالف الغير في آرائهم ، ولا يثبط من عزيمتي أنني صاحب منزع استقلالي ، لا أرضى بأن تأخذني موجة الوقت ، فأسير مثل غيري وقد اجري وأندفع . . . لكن كل ذلك ، وغير ذلك يجعلني أقف أمعن النظر ، وأبدأ من جديد !

تمر على الانسان فترات لا يلتفت فيها لمعنى ما يتردد حوله من كلمات . . فلا يذهب بعيدا وراءها ، ولا يحلل مدلولاتها ، بل أنه لا يكاد يفقه ما توحي به أو تومىء إليه من الاشارات والتنبيهات .

أوشك أن أصف نفسي بالذهول ، ففي نفسي تتصارع الآراء والاتجاهات ، فما أن أسمع كلمة حتى أغرق في متاهات الاستكناه ، إذ لا أتركها عابرة مسطحة تخرج من الشفاه لتطرق طبلات الآذان ، لتخرج مرة اخرى من الشفاه . . فيفعل الاعتياد فعله ، ليزيل ما للكلمة من مجال في النفس ، به يكون للكلمة ثقلها ، وبالمثل يكون للنفس دورها وتأثيرها .

ان يكون الفرد مجرد واسطة او أداة تنتقل بها الكلمة لتبدأ انطلاقها من غرفة في مدينة ، فما تلبث أن تصل الى الحدود ، ثم لتجتاز الحدود محمولة على طرف لسان ، أو على ظهر ورقة بيضاء ، فتدور دورات مؤدية ما قصده مطلقها ، فهذا ما لم اقبله ، وان كنت في أيام قد خضعت كغيري لتيار كلمات متقنة الصنع جعلت من الأفراد في مجتمعاتهم أدوات .

إن اهتمامي بالكلمة اسمعها من فرد يهمس بها في أذني ، أو يلقيها أمامي من غير اكتراث ، مثيرا بذلك قضية ، قاصدا ان يقنعني بها ، هو ما جعلني في الوقت نفسه لا أهتم بما ترده الألسنة من انتقال الحكومة ، إذ كيف ينتقل جهاز دولة من مدينة الى مدينة ؟ أهو امر سهل أن تحرك مثل هذه الأوراق والوثائق والملفات والدفاتر ، فتحمل

على ظهور الرجال ، أو بين أيديهم ، أو فوق العربات ، ثم لتنقل بعد ذلك في أكياس وصناديق مكدسة بعضها فوقَ بعض ، حتى يتم ايصالها الى مستقر أعد من أجلها ، والرجال يجلسون حولها فوق الكراسي ، وقد وضعت فوق الطاولات مغلفة تلفها خيوط ، ثم لتفض كأنها شيء جديد ، ويدور البحث عن رسالة أو وثيقة ، فيشمل العناء والحيرة الأيدي والوجوه ويأخذ الضيق بالنفوس . . .

كان الأمر مزحة سخيفة لا يضحك لها انسان ، ولكنها تلقى على الأسماع كل آن . . والغريب في الموضوع ان النفوس لا تملها رغم سخفها ، فهي ترددها وتسأل عن ميعادها . متى تنتقل الحكومة من طرابلس الى بنغازي ؟ . . ليعارضه تساؤل ثان قائلا : متى تعود من بنغازي الى طرابلس ؟ . .

الكلمات والاسئلة تجول بين الناس في كل مكان يرددها اصحاب الوظائف ، وتنتقل منهم الى اصحاب الدكاكين ، ومن وراء الجميع هناك من يحرك ويخطط ويرسم اصول اللعبة ، وحركة الأشخاص ، وتدبير الايماءات في النفوس ، وردود الأفعال وما يقتضي ذلك من أفعال وأوامر . . .

كنت أحرك رأسي في أول الأمر ساكنا ، كانت حركتي مستطلعة ثم اخذتها العادة لتجعلها كحركات الناس جميعا متسائلة ، ثم لتصبح مثلهم مستفسرة ، فمشاركة متفاعلة منتظرة الانتقال وقد اعتراها البرم والقلق والتردد . . .

فالسكون يهبط فوق كل شيء . الشوارع في ساعات الصباح

الأولى ، وضحى النهار تكاد تكون مهجورة . . النفوس منطفئة . . القلوب بالأمنيات الصغيرة محدودة . . الأبناء ما زالوا رخاء خاملا في العيون . . ليس من شيء يطفىء حرقة التطلع ، وليس هناك ما يجعل للحركة معنى ، وللفعل غاية . . .

القلق متمدد فوق كل شيء ، لكأنك تراه ظلا ممدودا تجسم فأحاط بالأشياء الصغيرة ، ولم يعف الأشياء الكبيرة من ظله ، بل هو يجثم ثقيلا فوق البنايات فتخالها تهتز لثقله ، وحجارتها تحتمل ، فهي خلقت لتحمل الأجساد وقد أعياها الملل ، فلا يهمها أن يزيدها القلق ثقلا ، فهو فوقها مثلما هو فوق القلوب . . وهو ظل رهيب ساكن رغم اشتماله على التمزق والتفتت والآلام ، إذ هي مشاعر تخضع لثقله فلا تعانده أو تصارعه .

منذ تلك الفترة الغارقة في وجداني ، والتي لم انس جانبا من جوها النفسي ، وأنا أتصور الحكومة قطة تحمل صغارها بفمها ، واحدا بعد الآخر ، تنقلهم من مكان الى مكان ، وقد تضع واحدا في مكان ثم تضع بقية الصغار في مكان آخر . لم تفارقني صورة كل موظف وقد رفع من عنقه محمولا ، واضعا تحت ابطه ملفا أو أوراقا جمعت في غير اعتناء ، فهو يتأرجح في الهواء ولكنه لا ينسى بين لحظة وأخرى أن يصدر أوامره ليظهر ما له من سلطان وقوة ففعل الكرسي في النفس أشد من فعل الخمر . هو ينسيك مكانك الحقيقي ، ويلهيك ويغريك فتهيم في أجواء مصنوعة من أوراق وطاولات وغرف ، وسيارة وسائق ومباشر . كلها حركات لم يحسنوا معايشتها أو أداءها ، فأصبحت هزلية لتتحول مع مرور الزمن الى مأساة .

كنت أنظر اليهم فأراهم يتطلعون الى رموز واضحة يرونها ، أما أنا فلم أكن لأراها . ففي نفسي حجاب كثيف اسدل بيني وبينها ، ويبدو انهم رأوا نفوسهم في نفسي اذ كنت عليها شاهدا ولم ابتغ ان أكون عليهم بشهيد . اكتفيت بنفسي ، ولم يكتفوا هم بنفوسهم فأرادوا من نفسي الا تحتفظ بحالتها . كنت اتطلع الى شيء في داخلي فالرموز والمعاني ليست بعيدة عني ، وكانوا يتطلعون خارج نفوسهم ، إذ في داخل تلك النفوس لا يوجد غير نخلة أوساقية أو بئر جاف أو زيتونة لم تثمر منذ عامين .

نفوسهم لا تمتلىء ولا تتحرك ، ولا يؤرقها التناقض ، فهي مستوية ، فكانوا بذلك يبحثون عن الرموز خارجها . تدفعهم الحركة من داخلهم ، ويأخذهم الاتقاد من حولهم ، فأصبح الاندفاع هو المسيطر ، ثم التراجع ، ثم الانتقال ثم البحث عما يملأ هذه النفوس .

احتفظوا رغم الوظيف والمكتب والأجهزة الحكومية بعلاقاتهم كما هي اذ حاولوا أن يكونوا صورة منقولة عن الغير فلم يفلحوا ، وربما كان للواقع ثقله ، وبساطة هذا الثقل ، فهو ثقل غير معقد ؛ ثقل الجفاف والقلة والندرة . . ثقل الفراغ والانتظار ، واعتياد الزمن . . ثقل الادعاء بالاكتفاء وفي النفوس ما فيها من الاحتياج الى الرمز والمعنى .

أن تكون خاويا وترضى بحالك . . فليس ذلك عجزا اذا لم تعرف ، ولكن اذا عرفت فمعناه أنك تجاوزت حالة العجز ، لتصبح شبيها بالهشيم . الأمر العجيب الا تذرو الرياح هذا الهشيم ! وأشد

من ذلك عجبا أن الرياح هي التي جمعت هذا الهشيم .

ينزل عليَّ كل مساء طبقات من الكآبة وأحس أنني غريب تائه . ويزداد احساسي بتفردي . لم أنقم انني في وطني . أو أنني عدت اليه ، فلم استطع أن أفعل شيئا ، أو أقدم معنى ، فمثلي مثلهم أعيش محبطا في حركة دائمة رتيبة ، تفقد فيها السخرية دلالتها ، ويتحول الهزل الى نواح مكتوم في الصدور ، مثلما تتحول المقابلات ، والتسليات ، والمجاملات ، والمعاملات ، الى تبدلات واختلافات بليدة ، فلا هي تناقض ، ولا هي تفاعل ، ولا هي تحول وتغير فتطور .

هي حركة قش في هبة ريح اذا هدأت هدأ ، واذا تحركت تحرك معها .

ابتلعت سخريتي ، فلم أضحك الا مجاملا ، واعتدت ما أرى وأسمع ، وبحثت عما يدلني من الأشياء ، فلم أجد حولي شيئا ، فاكتفيت بما في أعماق نفسي .

قال واحد من أصحاب « الوظيف » وهو يضحك ، منتظرا مني أن أشاركه ، سمعته يقول بأن رئيس الوزراء سأل عن أحد الملفات ، فبحثوا عنه كثيرا ، ثم بحثوا عن دليل يهتدون به فلم يجدوا ، وأخيرا جاء المسئول عن المحفوظات فأخرجه من مكانه مسرعا عندها تساءل رئيس الوزراء عن الفهرس ، فأجابه الموظف المسئول بأن الفهرس في رأسه فقال رئيس الوزراء : وإذا قص رأسك ، فكيف نجد الملف ؟ وقهقه فلم أضحك . حاولت فابتسمت ، ثم

ضحكت على نفسي التي لم تستطع الضحك ، كم من مرة اخذت ملفا ، لأنجز أمرا ، فوضعته تحت ابطي ، وقطعت شارع الاستقلال ثم اجتزت شارع عمر المختار ، لأصل الى مقر مجلس الوزراء ، ولأشرب قهوة ولأضيع وقتا ، ثم لأعود حاملا ذلك الملف الى مكتبي ، ولأقف أمام النافذة وراء أسلاك كالغربال لتمنع الذباب فأنظر الى الشارع الخالي ، تمرق فيه بين الحين والحين سيارة تحمل لافتة كتب عليها حكومة ، أو حكومة ولاية برقة ، فتثير الغبار ليصل منه الى صدري ما يجعلني التفت فأدور دورة في الغرفة أعود بعدها الى النافذة من جديد .

حاولت أن أكتب سطورا ، أن أخرج شيئا ، أن أصور معنى ، أن أرسم صورة ، أن انفث نفثة ، فلم استطع . هل كان حالي هكذا دائما ؟

كنت كما قلت في يوم ، فتراكم في نفسي ما تراكم فيها واجتمع من التناقضات احدها فتحولت الى مبتسم في اليوم الثاني ، شغوف بالقراءة ، متطلع الى غد ، منتظرا من نفسي أن تصنع شيئا أتذكر وأذكر . أسمع الحكايات وأجلس في المقاهي مع الأصحاب .

كان يوما تطيرت فيه ، أعقبه يوم جديد ليس مثله ، بل لعله كان نقيضه ! .

— 16 —

لم أعد نفسي لأن اكون في مواجهة الناس ، يجمعهم أمر أو

خطب ، حزن أو فرح . . كنت أبتعد عن النظرات وأكاد اختبىء منها في كل ظل ممدود ، أو تحت أي غطاء ، أو بين الوجوه الكثيرة . ولكم حاول من عرفتهم أن يدفعوني الى الوقوف بينهم أقول كلمات ، أو أقرأ سطورا ، فلم يجدوا مني غير الاعتذار والهروب .

كان في نفسي دافع قوي يدفعني الى الانزواء والتأمل ، باحثا عن الهدوء والاطمئنان . كنت احس بطيبة الجو الهامس والنظرات الهادئة غير الملتفتة اوالمتفحصة . أكاد اشدو شعرا بالكلمات ، وأطمئن الى الايقاع ، فيذهب عني التوقع والتحفز ، فأنا ذلك الآمن قرير العين رضي النفس ، مطمئن الفؤاد .

وكم من مرة وجدت نفسي وقد ذهبت بي قدماي الى ما أكره من مواقف ، فأرتعد وأتردد ، ولا أكاد اخرج من تلك المواقف الا وإحساسي بأن روحي هي التي ستخرج من جسدي - يطغى على كل شيء بين جوانحي « أنا الملوم » أرددها ، « وأنا استحق ما حصل » أقولها ، « ولن أعود مرة اخرى لمثلها . . كلمات تقر في الأعماق » .

لا أعرف كيف استقبلت كلمات الوزير التي اخبرني بها بأن علي أن أتلو على مجلس الشيوخ تلك الردود المعدة ، كان صباحا خريفيا مشرق الشمس ، فليس من سحابة واحدة رغم أننا على حافة الشتاء . يبدو أنني استقبلت الكلمات وكأنني لم أسمعها ، أو أقنعت نفسي بأنني قد أخطأت فيما سمعت ، أو لعله لم يكن يعني ما يقول ، أو هي كلمات عابرة جاءت تشجعني ، أو هكذا أراد قائلها .

كيف اقرأ كلمات وأنا لا أعرف ما وراءها ؟ وكيف أجعل صوتي

يرددها وهي لا تعني بالنسبة لي شيئا ؟ وهل أتحمل مسئوليتها ، أم أن غيري هو الذي يتحمل هذه المسئولية ، ولماذا لا يقرأ هذه الكلمات من يعنيه أمرها ؟ ثم أنني ما زلت وافدا لا أعرف ما يدور حولي ، ولا أعي ما وراء الكلمات ، ولا ما يربط الأشخاص بعضهم ببعض ، ولا ما هي المبادىء التي يتوخونها في مسلكهم السياسي والوظيفي ، ولا ما هي الأمور الأخرى التي تدور في الخفاء ، تساؤلات اضطرمت في داخلي ولم أجب عليها ، بل أنني لم أجد الجواب ، وكيف أجده وأنا ذلك العائد التائه يتلمس وطنه في كل حركة وكلمة وحجرة وشجرة ونغمة . كل ما يراه يعده من علامات وطنه ، وكل ما يسمعه هو مقوماته ، والأشخاص هم ركائزه ، والمعاني إن حصل عليها أو فهمها تكاد تجعله يطير من الغبطة ، فهي تنغرس في نفسه على أنها مقومات هذا الكيان ، فمن أين لمن كان في مثل حالته أن يجد أجوبة لأمور دقيقة وصراعات ، واستجوابات يقدمها من حنكهم الزمن وابيضت لحاهم ، فهم الخبرة والتجربة مقطرة في كلمات وأسئلة لا بد أن لهم من ورائها دلالات وايماءات . وتبعت الوزير الى قاعة مجلس الشيوخ ، ودخل قبلي بعدما اجتمع مع مجموعة منهم . وكنت كتابعه أحمل أوراقا ، وكتيبا هو الدستور ، وكتيبا آخر هو اللائحة الداخلية ، وبعد أن استقر بنا المقام ، واعتلى رئيس المجلس منصته ، . . سكنت الأيدي والوجوه ، وساد الصمت وقرئت أشياء ، ثم قرىء السؤال ، والتفت إليَّ الوزير يطلب مني قراءة الجواب ، فكان لا جواب ، لا أعرف ما حل بي ، ولا ما دار في نفسي ، ولا ما نويت فعله ، لقد أدعيت البله وصرت أقلب الأوراق وأشير الى نفسي متسائلا ، هل أنا من يقرأ الجواب ؟ وهو يهز رأسه علامة الايجاب ،

فأكرر السؤال ويجيب بنعم ، وأكرر السؤال والأوراق في يدي والحيرة تقتلني والتردد يشلني ، واستكبار الأمر يجعلني ذلك العاصي بلا عصيان ، أو المتمرد على غير رغبة ودون قصد ، واستمر الأمر يسوده التغابي من ناحيتي حتى انقذ الأمر وزير آخر أخذ الورقة وقرأ الاجابة .

هل كان ما حدث اختبارا ، أم أن العمل الذي كلفت به هو قراءة الأجوبة ؟ لعلهما الأمران معا . ويبدو أنني فشلت في الامتحان ، وكانت بداية تعيسة لعمل في وطني ، عمل لم يكن من طبيعتي ، بل هو ضد تكويني النفسي والوجداني ، وان شئت فقل هو العصيان لأمر جاء على غير رغبة مني أو اختبار ونزل في ساعة لم يكن لدي فيها استعداد أو ميل .

جلست في مكتبي بعدما عدت من قاعةالشيوخ ساهما أفكر. لم يعد أمامي غير هذا الأمر ، ويجب أن أطوع نفسي عليه فالذي حدث بعد ذلك انني بدأت أقرأ هذه الردود . فتخرج نصف الكلمات من فمي ، ويبقى في بطني نصفها الآخر ، وأنا ملتف بالدثار أكاد أغطس فيه فلا أبين . ولعلني قرأت الجواب الثاني بعدما قرأت الجواب الأول ، إذا يبدو أنني اندفعت عقب رؤيتي لانسان مندفع ، غير مدرك لاندفاعه ، فما الذي يمنع أن أفعل مثله ؟ لعله كان الأمر هكذا .

هل الأمور بهذه البساطة ؟ إن ما قمت به لا يعهد الا لانسان متمرس واسع الخبرة محيط بالجوانب المختلفة للحياة السياسية ، وما فيها من مزالق ومآخذ ، وما يحيط بها من دسائس وفتن ، وتوقعات

ورواة ، إنه أمر ليس بسيطا ، لا بد أن يكون الانسان قد شاب وهو يتعلمه ويتقنه ويحيط بكل صغيرة وكبيرة فيه . إنه قمة الصراع استقطبها شخص فهو يضرب من حولها وبها ويواجه ويعاند ويقهر حتى لا يقهر . إنه يملك امكانية أن يخزي سائله حتى لا يخزيه ، ويعري جوانبه حتى لا يتعرى هو وصحبه . إنه يحيل الخطأ صوابا ، أو يجعل صوابه قمة المجد . إنه يستعمل النصوص استعمال الماهر الحاذق ، فهو صانع لها وهو قادر في الوقت نفسه على اكتشاف زيفها ان أراد . إن إحاطة انسان بمثل هذه المهمة ، يغني الجهاز عن جهاز آخر يساعده في كشف الجوانب الطيبة ، وستر ما يتطلب الموضوع ستره . ولم يكن ذلك حالي اذ كنت ساذجا . بل استطيع أن أقول بأنني كنت حرا في مواجهة اشياء جديدة وحركات وقبائل ، وغرب وشرق وجنوب ، وأخوان ، وأصحاب عقيدة ، وأناس بلا عقيدة ، خليط غريب لا يجمعه جامع ، ولا يلم شتاته شيء غير المصلحة الوقتية . فكيف لي بأن أدعي الاستطاعة والمقدرة والحذق ، لم أدع الاستطاعة ، ولم أحاول ذلك ، بل أنني لم أعدم كلمة عطف من انسان ، أو رثاء من فرد يعرف ما يدور ، ويدرك أنني أشبه الأبله في الزفة ، يراني الناس وسطها وما أنا منها في شيء ، ولا هي مني في شيء .

لا أعرف كيف رضيت بواقعي ذاك ، ولا كيف رضي لي به غيري ، فلا شك انني كنت كالنغمة الناشزة ـ ولو كان الحكم بيد حزب لما سمح بذلك ، ولو كان الحكم بيد نظام أي نظام مهما بلغ من التخلف لما سمح بذلك ، ولكن يبدو أن الأمور كانت سهلة ، كل

من يستطيع أن يلحق بالزفة فليطبل وليزمر ، وليفعل ما تشاء له نفسه من الأفعال ، فالمجال واسع ، والأمور بسيطة ، والأشياء تحللها جلسات ، وكل شيء على ما يرام .

كنت التف على نفسي كالشرنقة معتقدا أن هذا كاف لحماية جوهري ، ويبدو أنه بالنسبة لذلك الواقع كان كافيا . فاحتفظت بنقاء دخيلتي ، بسذاجتي حتى لا تخدش . وددت لو أنني كنت ذلك الواعي الذي وجد نفسه في تجربة بالرغم منه فاستفاد منها ، ولكنني كنت ذلك الخجول الذي القي في خضم الوجوه والعيون ، فلم يفعل غير أن يحني رأسه ، ويغمض عينيه .

انها فعلة غير لائقة ، كانت مني لا أرادية ، اذ سريعا ما فتحت عيني اتفحص وأرى ، وأتقد بحثا عن مخرج ، وأحاول الاحتفاظ بكياني بعيدا . ويبدو أن حياتي ستظل نتاج هذا الصراع ، لتكسني الأيام به مناعة ، فازداد كل يوم اقترابا من ذاتي ووعيا بغيري ، وإدراكا لما يحيط بي .

ففي النفس كان ذلك الاتقاد الأبدي ، الذي بدونه لا يكون لدخيلة الفرد تجوهر ، اذا ما فقده لم يعد شيئا مذكورا . .

— 17 —

كنت جادا في الأمور ، فلم استهزىء بمواقف الناس ، ولم اسخر من تصرفاتهم ، ولم اتهكم على الكلمات التي يتفوهون بها . كانوا يحاولون ان يكونوا غير نفوسهم ، في الوقت الذي كنت أصارع فيه الظروف حتى لا أكون غير نفسي .

التقينا عند نقطة . كل منا له اتجاه يعتقد بأنه سيوصله الى ما يريد ، فاختلفت الأهداف ، واحتكت الأيدي ، وتلامست النظرات ، واختلطت الأصوات ، فتطايرت الكلمات ، مما يجعل الرائي يعتقد بوجود معركة ، أو تناقض ، أو تنافر ، ولكنه اذا امعن النظر أدرك ان ليس هناك سوى (هدرزة) تملأ فراغ مربوعة كبيرة هي ليبيا .

ما الذي دفعني الى أن أكون ذلك الجاد ، الباحث دائما عن مرتكز للعمل ، فاذا ما أعياه البحث ، استولى عليه الغيظ ، ثم ليصبح ذلك الحانق الدائم ، المتبرم الموشك على الانفجار ؟

الم يكن غيري في مثل ظروفي ؟ ولم يكن مثلي صارم النظر ، حاد المأخذ مجدا ، ليعمل شيئا من اجل هذا المجتمع . . بل كان متهكما على الكلمات ، ساخرا من الأعمال ، مستهزئا بنتائجها .

كان الواقع مهزلة تستقطر ما في الأعماق من ضحكات ، بما حوت من تناقضات ومواقف وخواتم . كان غيري يعرف أن لا فائدة من أي شيء ، إذ الأمور مرسومة ، والأشخاص مدفوعون قد حددت ادوارهم ، فمنهم من أتقن دوره ، فلا يصدر عنه ما يضحك ، ولكن تناقض المواقف التي تترتب على الفعل هي ما يضحك ؛ وهذا نفر قليل ، إذ اكثرهم لا يتقن دوره ، فلا يصدر عنه الا ما يقتل الغير ضحكا ، وتستطيع بعد ذلك أن تزيد الأمر بأن تبني على مواقفه مواقف اخرى ، أو توقعه فيها ، مثلما تستطيع أن تضع لكلماته حواشي أو ذيولاً تجعل منه نموذجا منقطع النظير، أو قل له اكثر من شبيه أو نظير ، ولكن طرافته وتجدد الأفعال والكلمات وكثرتها هو ما

يدعو الى الاستمرار في الضحك والسخرية ، ثم لتجعل من الواقع كله مجالا للهزء والازدراء ، فكيف لمن عرف ذلك وعايشه وأدركه أن يكون جادا مثلي ؟! كنت أرى في كل وجه ملامح أبي وصرامته وجده فاذا ما تركت ذاتيتي واردت أن اكون صاحب نظرة مبتعدة عن شحنات العواطف الأسرية ، تبينت في وجه كل منهم تلك الخطوط المرسومة على وجه ذلك الشيخ عمر المختار . لم أستطع إلا أن أرى ملامحه وقد تمثلت لي قاسما مشتركا لكل الوجوه ، فهي تتحرك وقد نزل فوقها ذلك الجرد الأبيض تشتملهم جميعا ، مثلما اشتمل ذلك الجسد النحيل ، الذي أصبحت عروقه وجلده وعظامه هي الكيان والبنيان ، والعلامة عندي والبداية ، والبشرى والنغمة ، والروح والتماسك رغم التباعد وما يبدو على الأجساد من إرهاق وعياء .

كيف يستطيع مثلي أن يكون ساخرا أو ضاحكا أو مستهزئا ؟ بالتراب الذي تذوقته بلساني ، وقد أثارته الشاحنة الصغيرة خلفها ، وجسر وادي الكوف معلقا ، وقد اهتزت قطع الخشب تحت العجلات ، كأنها ضلوع انسان تتحطم من ثقل خفي غريب ، والوجوه التي لا تعرف الابتسامة كأنها قدت من صخر أو كأنها نسيت كيف ترتسم الانفراجة على الوجه ، إذ يكفي عندها ان ينفرج الضمير، ويبقى الوجه دلالةدائمة على ثبات الملامح لا يغيرها شيء سوى الزمن ، الذي قليلا ما يكون لفعله آثار قوية واضحة ، فالخطوط هي الخطوط ، وما بينها من مسافات تستطيع ان تقيسها ، والعينان لا يعطيان غير بريق الحياة واستمرارها في الجسد الى اجل ، فالاستواء الظاهري الذي توحي به الوجوه هو المعالم النفسية لما في

الصدور .

لم أستطع أن اكتسب مع الأيام واقعية في النظرة أو الفهم اذ ظللت ذلك المبهور بهذه الوجوه ، والنفوس ، يكفيني منها أنها عايشت عمر المختار مما يجعلني مختالا أمام نفسي إن عرفتهم وقابلتهم . وكم من مرة سألت عنه ، وحاولت أن أعرف اخباره ، وان يحدثني عنه انسان عرفه من قرب ، وفهم ما يعتمل في وجدانه ، وأدرك ما يجول بعقله ، واستوعب مدى وعيه ، فلم افز بغير كلمات شائعة تتردد ، وصورة جامدة رسمت عنه لدى كل من تحدث ، وكلمات محفوظة يرددها كل شخص ، لم يقنعني فيجعلني اكتفي وقد احطت بجوانب الشخصية وأعماقها وأبعادها النفسية والفكرية .

كنت أسأل شخصاً ، فأجابني دونما اهتمام قائلا : لو عاش عمر المختار الى اليوم لكان كناسا أو خفيرا ، فالأمور في وطننا لا تقاس الان بما قدمت للوطن ، ولا تقاس بأن وجودك ولو كرمز تاريخي يعطي الوطن قوة ومعنى ، ولا تقاس بمعايير اتفق عليها الناس في كل زمان ومكان ، ولكن الأمور هنا تقاس بمعايير اشخاص ، لا يعرفون للانسان قدرا الا بمقدار ما يقدمه من أجل مصالحهم الشخصية ، ويا ويل هذا الوطن من مثل هذا المقياس، فهو مقياس لا يقيمه ولا يحميه ، بل هو الخطوة الأولى في طريق دماره ونهايته . إن من ضحى لا ينتظر شيئا ، ولكننا نحن الذين ننتظر من وراء تضحياته اشياء فكيف لنا أن نتوقع شيئا ونحن لم نعرف لمن قدم وضحى قيمة . أننتظر ان يجعل منا الآخرون قيمة أو لحياتنا قيمة ، ونحن لم نجعل لحياة الذين اندفعوا يقدمونها من اجل الغير ، لم نجعل لمثل هذه الحياة قيمة ؟

إننا عندما نقـدر حياة هؤلاء أو مماتهـم ، فاننـا نقـدر حياتنـا ومماتنا ، فهم الذين جعلوا من الأمر المعتاد والمتوقع سمـوا وتفوقـا ، يطمح اليه كل شخص ليجد فيه معنى لحياته وتحقيقا لوجوده .

كان من يحدثني حانقا . فالواقع حوله مشحون ببقايا صراعات أوجدها عامل خارجي جعل من القبيلة وحدة اجتماعية مغلقة ، ترى المصلحة لها ، والفائدة لأبنائها ، ولا يهمها ابناء الوطن الآخرين . كان يسيطر جو راكد ، فيه روح انتهازية يحركها بين الحين والآخـر أصبع خفي . لم تكن الفرصة المتاحة متمثلة في شيء كبـير ، إذ لـم تكن تعدو وظائف ادارية او مورد رزق ثابت تمثل في مكافأة شهرية ، تعطي لأفراد تحت تسميات مختلفة ، كلها تحلب من تلك المبالغ التي تدفعها بريطـانيا بموجـب المعاهـدة . بينهـا وبـين ليبيا . اعتمـدت الحكومة على ذلك ، وجعلته أساسا للنظام ، وكان نظاما كثير المجالس والهيئات والدواوين ، وفيما بينها تختلط الأمور وتضيع حتى تستعصي على الحاذق ، فلا يجد لها أولا من آخر . هنا مجلس تشريعي ومجلس تنفيذي ووال ، تجمعهم تسـمية (حكومـة ولاية برقـة) وهنـاك في طرابلس مجلس تشريعـي ومجلس تنفيذي ووال ، ويطلـق عليهـم « ولاية طرابلس » وفي الجنـوب مجلس تشريعـي ومجلس تنفيذي ووال ، ويسمون (ولاية فزان) ، ثم هناك مجلس النـواب ، والى جواره مجلس الشيوخ . يعين الملك ربع أعضاء المجـالس التشريعية ويتم انتخاب بقية الأعضاء في كل ولاية على حدة طبعا في تاريخ يختلف فيما بينها حسب دوراتهـا ومددهـا ، ويكون الانتخـاب باللحمـة في الدواخـل أمـا في مدينتـي طرابلس وبنغـازي فالانتخـاب بالطريقـة

المباشرة . أما مجلس النواب فهو موزع على حسب النسبة العددية للسكان ، وكان الانتخاب اليه يتم بالطريقة المباشرة في المدينتين وفيما عداهما فإن الانتخاب يكون بواسطة اللحمة وشيخها .

أما الشيوخ فان نصفهم يعينهم الملك ، والنصف الآخر تقوم بانتخابهم المجالس التشريعية في الولايات الثلاث ، كان عددهم موزعا على الولايات الثلاث بالتساوي .

كنت أحاول استذكار هذه الاجراءات حتى لا تغيب عن ذهني ، وحتى أضع قدمي على أول الطريق . ولم تستطع هذه الأحوال القبلية ، والمجالس والاجراءات والدواوين وما فيها ، كما لم تستطع حالة التبرم والقلق والتذمر الداخلي مثلما يستطيع الاستهزاء والازدراء .. لم يستطع هذا كله أن يصرفني عن الاهتمام بما يدور حولي ، وأخذه مأخذ الجدية ، ورؤية ما فيه من بوادر تجعلني أرى بعين الوجدان حالة تخلق وطني ، كل الظروف والأحوال الدولية مثلما كل الوقائع الداخلية ، تقف ضد تحقيقه .

أكاد أموت عندما لا يعني ذلك شيئا بالنسبة لي ، أما عندما أراه لا يعني شيئا ، بالنسبة لغيري ، فإنني أحاول أن أقول كلمة ، أن أبدي رأيا أعبر فيه عن أشواقي ، وعن ضرورة أن يكون للانسان وطن فوجوده من وجود هذا الوطن ، مهما اصطرع داخل هذا الوطن من تناقضات ومهما ظهر من تفاهات ، إذ ليس تولد شروط جديدة يترتب عليها كيان اجتماعي وسياسي بالأمر السهل ، بل أن عسر الولادة دلالة على قيمة المولود وكبره ، إذا ما كانت مقومات تكوينه تدل على ذلك ، أما اذا ما دلت على عكسه ، فإننا يجب الا ننتظر غير شيء مشوه .

كل المقومات الجغرافية والتاريخية والاقتصادية في وطني تجعلني انتظر مولودا ، لعل كبره دلالة على نقص في بعض عناصر تكوينه ، أو عدم نضج غدده ، وما تفرزه هذه الغدد من عصارات ، ولكن وعينا بنوعية هذه المقومات ، ودواعيها وما يحيط بها يجعلنا نحول دون ما قد يجعل من التكوين تشويها .

غمامات تلف عقلي ، فهي تذهب به بعيدا في التصور ، وأكاد أجعل من نفسي ذلك الطفل المشوق دائما ، الفرح ، المتشوف ، إنه يتجدد نفسيا بكل كلمة ، وبأية نتفة من مشاعر . ما يراه من علامات بسيطة تفتح أمامه طرقا للاحلام ، للرؤيا ، للأمل ، كل الأشياء تتحقق في طريق امنياته ، لا يوقفه عن هذه الحالة الصدمات أو الضربات أو العثرات ، كلها حركات لا تملك من القدرة مثلما يمتلك هو من هذا التأجج المضطرم في داخله . إنه أوار لا يقدر أن يطفئه أحد .

كنت اذا ما جلست في قاعة مجلس الشيوخ ، وبدأت عيناي تختلسان النظرات المتفرسة الى وجوههم ، وأستعيد بعض اسمائهم ، وأعلم أن منهم من كان رفيق عمر المختارِ ، ومنهم من جالسه ، ومنهم من خالفه ، ومنهم من يقول الشعر ، ومنهم من تبلغ حالة البساطة عنده إن لم تتغير حياته عما كانت . كنت أقول لنفسي بأن المقادير قد ساقتني أو ساقت الي فرصة نادرة لن تتكرر . فاذا ما وقفت أتلوجوابا ثم جلست ، أخذني التأمل ، وسيطر علي الأمل ، وصرت ذلك الذي أفاق من حلم فوجده حقيقة .

كيف استطيع السخرية من هذه الوجوه ؟ هل يمكنني أن اهزأ

بهذه القلوب ، هل لدي الجرأة لأضحك من تصرف بسيط ، يصدر عن نفس قريبة من حياتها فهي غير منافقة أو مدارية أو برمة .

لست كغيري ، فأنا عائد لوطنه ، فاذا ما كان غيري قد تبرم وأخذه القلق ، فهو ساخر أو هازىء أو ضاحك ، فأنا جاد أرى فيه وجودي وكياني ، مهما بلغ هذا الوجود من البساطة وضيق النظرة ، ومهما نشأ عن هذه النظرة وتعقد الواقع الجديد والظروف الدولية والعلاقات من تناقضات .

كنت طفلا كبير الجسد تاه طويلا ، ثم فجأة وجد نفسه في بيته ، في وطنه .

— 18 —

كلما حاولت ان اتصوره شيئاً ملموماً لأضمه الى صدري خانتني الظروف والوقائع وما استطعت تحصيله من مبادىء وأعراف ، وما كان يصدر عن الناس من أفعال وكلمات .

هل كان عصياً أن تتحقق الصورة بالكيفية التي أريدها ؟ وهل كانت الظروف والمبادىء والأفعال تنم عن غير ما أريد ؟ إن استعصاء التحقق أمر يخضع للإرادة البشرية ، فهي بما لها من فعالية الفكر ورحابة الأفق وحركية التنفيذ ، قادرة على ان تجعل من الاستعصاء تطويعاً حتى ولو تطلب الفعل تحطيماً للوتيرية والنمطية والقياسات التجريبية . إلا أن ذلك يرجع في آخر الأمر الى الكيفية التي تتم بها إمكانية الفعل في تحققه ، مما يجعله يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالظروف السابقة عليه ، والمبادىء المحمل عليها ، والمحملة عليه في نفس

الوقت ، بالإضافة الى أفعال الغير وردود الأفعال تجاهه .

كنت اغرق في التجريد اذا ما حدثت نفسي عن واقع وطني محتسباً ان ذلك يوصلني الى اقتناع يرضيني . ولكن في آخر الأمر لا ينالني الا التوفز والتوتر ، فانظر الى الآخرين ناقماً عليهم اطمئنانهم وسلوكهم الذي يدل على أنهم قد استندوا الى حائط متين هو الواقع بما حوى من أسس ترفعه فهي راسخة لا يستطيع احد تحريكها وأراها هشة متهالكة ، قد تطيح بها هفة هواء .

ما الذي كان يمسك ذلك الشكل الى الأرض ، فيجعل منه ما يطمئن القلوب ، ويحفز النفوس ويقوي العزائم ويبعد الطامعين ، ويدفع الطامحين .

غاب عني في كثير من الأحيان تلك المعاهدات والاتفاقيات التي ربطت توازن ذلك الشكل ، فأبدت منه صورة قوية تهز ولا تهتز . لم أكن أراها دائماً وانا اجرده من أشياء عالقة بمعناه، إذ كنت اريده جوهراً ، أو لعلني كنت أتمنى ان أراه كل يوم ذلك المعنى المتجدد الخالص من الشوائب فهو وجودي ولا شك ، وهو السمو بعيداً عن رذائل البشر ، وهو الأحلام وان لم تتحقق فلا ينقص شيء من قيمتها ، بل ان تجددها ومحاولة كل منا أن يحقق شيئاً منها ، هو ما يجعلنا نحلم دائماً بها ، فتجعل منا الحالمين الكبار ، الساعين دوما الى أن نرى ذرات من ضخام المعاني دلالة على إمكان وجودها وتجسدها يوما أمام انظارنا بعملنا ووعينا .

أتصور وطني وقد جمعته في حضني ، فهو منشور أمام

صدري ، ألم أطرافه فلا أترك طرفاً يغيب عن عيني ، وأجعل استواء الورقة أمامي كاستوائـه على الطبيعـة ، مثلما أجعـل امتـداد الورقـة كامتداد اللانهائي في حقيقته ، ولا استطيع أن أجعل مساحته الممتدة هي المساحة المفروشة أمامي ، ولكن رعشة التخيل تجعلني أراه بكل عظمة هذه الأبعاد وقد قبضت عليه فلا يفر مني ، يعيننـي على ذلك معرفة بسيطة بجغرافيته ، ثم إذا ما أعياني هذا الشعور ، وهو حتماً كان يعييني ، أقوم لأتناول خريطة احتفظ بها في مكتبي وأنشرها أمامي فأتأملها ، ووجيب القلب لا أستطيع السيطـرة عليه ، وحالـة دفـق الدماء في عروقي تجعلني كالمذعور الذي يتوقع ما يخيفه وما يهـدده ، فأتدارك نفسي حتى أخرجها مما هي فيه ، فأنهض وأدور في الغرفة ، ثم أخرج أجول في الممرات ، ذاهل النظرات ، مشدوهاً الى غير نقطة أو شيء انظر اليه ، وكل من كان يراني حتماً كان يتعجب لحالي ، حتى إذا ما هدأت عدت لأجد من يبحث عني ، سائلاً عن ورقة أو أمـر مكتبي .

أعـود فأغـرق من جديد في الأوراق ، ويشدنـي تقليبهـا عن تقليب انعكاس الواقع في صدري فتتردد في أذني كلمات الناصح أن أقرأ دائماً لائحة مجلس النواب ، ومثلها لائحة مجلس الشيوخ ، فهما في الاجراءات متشابهان ، وأجعل اهتمامك بالدستور اهتمام عاكف على شيء يريد أن يستوعبه ويعرف مواده ، واسأل ان لم تعرف ، فلـم تدرك ما وراء بعض المواد من أسباب ، فكثيرون هم الذين عايشوا الفترة التي صنعت فيها هذه المواد .

لا تغرق في التصورات ، وتناول الأمور بما تعطيك من دلالات

وإيحاءات ، وأقرب ما توحي به هو الحقيقة ، فالواقع بسيط وتناوله أبسط وأقرب . وكأنما كان الناصح يهزأ أو يسخر ، أو لعله قد أدرك ما في نفسي من حب التقصي والمعرفة ، وما في طبعي من اهتمام ،وما في وجداني من انفعال فتفاعل بكل ما أرى وأسمع ، مما جعل من معايشتي للواقع معاناة وعناء فأرهق معيشتي بالكد والوصب وأوقعني في الهم الدائم ، والتوجس يلفني ، والتوقع يكاد يجعلني اقفز عند كل كلمة وأكاد أجري عند أية حركة . كنت تمثالاً للقلق وغيري كان هادىء البال مستقر الحال ، معبراً عن رضاه ، أو سخطه بفعله وحديثه . فهو غير مبلبل الخاطر ، وهو مثله مثل غيره ، فليس هناك ما يستحق أن ينظر اليه باهتمام أو احترام وليس هناك ما يجعل الناس نافرين من واقعهم ، أو ساخطين الى حد الهوس عليه ، أو ناقمين الى حد التوجس والتبرم والقلق .

لا أعرف هل كانت نفسي هي سبب ما أعاني أم أن الواقع هو سببه ، أم أننا تفاعلنا ، فأصبحنا حالة واحدة ، اختلطت فيها الأسباب بما هي وليدة منها ، أو كانت الحالة هي نتيجة لعلة خفية ، تركت أسباباً اخفتها ، فلا يشاهد أحد غير الأسباب ونتائجها ، مما يوقعنا في البحث في غير مكان ، ويجعلنا مشتتين ، مبهورين احتوانا دوران ، فنحن لا نرى ذيول من أمامنا ، ومن خلفنا قد لا يرون لنا ذيولاً . لا نستقر فتأخذنا عادة ما نحن فيه فيصبح واقع حياتنا ، ولا نبغي له تحويلاً أو تغييراً .

كم تساءلت وأنا أتلفت حولي وأنظر خلفي ، اذ لم أكن أفعل فأصبحت أفعل دون إرادة مني ، إذ اكتشفت ان النظرات تلاحقني

وأن أفراداً يقفون في الزوايا والأركان ، وأن لديهم ما يجعلهم يلاحقون غيرهم ، وأنا ليس لدي ما يجعلني ملاحقاً ، أم ترى لعل غيري جعلني في صورة لست أنا اياها ، او لعله أراد ذلك إيهاماً منه ، فصدقوه وهما منهم ، أو ان الواقع ما زلت لم أفهمه ، وكنت لم افهمه في حقيقتي ، ولكنني لم أؤذِ احدا ولم ارتكب غلطة ، ولم أغير شيئاً ، بل إن كلماتي هي كلمات المجاملة لا تزيد ، ومعرفتي للغير كانت بداعي الاجتماع ، أسمع ولا أصد أو أعلق ، يجتاحني شوق لوطن أحسه في أعماقي ولا أرى منه غير نصوص دستورية أو خريطة مرسومة في غير اعتناء ، ولم أجد شيئاً اقرؤه عن هذا الوطن ، لم تكن هناك صحف تقرأ ، واقع ساكن ، اطمأن أهله وانتظروا ، أو هم يعرفون متى يعملون ، وفي أي وقت يغيرون ويبدلون ، فجئت أنا ، فتوقعوا مني شراً ، بل لعلهم أرادوني أن أكون أقرب الى ما رسم ، فشدهوا عندما رأوني غير ما توقعوا ، فاضطربت الحسابات ، وخابت التوقعات فكان لا بد من رسم صورة على عجلة ، والصورة لا بد أن تكون وافية بحاجة العمل ، وملء الأوراق وكتابة التأشيرات ، مستحقة التحركات فالمراقبة ، فمعرفة أصحابه ، وأوقات خروجه ودخوله ، والمقهى الذي يجلس فيه ، والكلمات التي تخرج من فيه .
كنت غافلاً عن نفسي ، فأنا غائص في أعماقها ، ولم يكن يعنيني ما يحيط بها فلست بالذي ينشب النظرات في الآخرين ، ولست بالمتشابك معهم في علاقات قوية قد تجذب الى ما لا أريد ، ولست بالمتهالك على الأمور التي تعنيهم . كنت أريد سبباً للحياة ، ووجدته في الوظيفة.
أما الشيء الذي يتصل بذاتي ، بوجداني بعقلي فهذا امر يهمني ولا

أجعل غيري متصلاً به ، مثلما لم أصله بغيري . اعترتني الدهشة مما اكتشفت . كان ما أحسست به مزعجاً ومقلقاً . كان مخيفاً ودالاً على أن الإطمئنان الاجتماعي مفقود ، او أن جهات اخرى تعمل في هذا البلد ، وتحرك فيه أحداثاً صغيرة تريدها ان تكبر مع الأيام . قد تبدؤها بشخص فترسم له صورة غير نفسه ، ثم لتدع هذه الصورة تكبر بالظلال والكلمات والهمسات والأوهام ، ثم لتحيط هذه الصورة بهالات ، ثم لتدفعها أو لتجعل غيرها يندفع ويرجع السبب اليها ، ثم فليجعل لاندفاعها نتيجة يكون من ورائها تحريك للسواكن ، ومحاولة لتغيير الظروف والسنن وما استقر عليه الناس ، حتى اذا ا كثر الحديث واعترى القلق اولئك المطمئنين ، قدمت لهم هذه الصورة المصنوعة ، فهي السبب لكل هذا القلق . ولتكن تلك الصورة المرسومة ، أو ذلك الشخص الذي رسم دوره ، الضحية او البطل ، فالأمر سيان ، فقد تحقق بوجوده ما يريدون .

هكذا دلني عقلي ، وهكذا جعلت من ملاحظة بسيطة عالماً كبيراً ، بنى على حصاة ، أو ربما لم تكن غير ذرات من غبار تجمعت فحسبتها حصاة .

ولكن . . ألم يكن الواقع مليئا بمثل هذه الأمور ؟ ألم يكن وطني مجال صراع لحربين فظيعتين محقتا العالم ، واحتدمتا في هذه المساحة التي أضمها الى صدري ؟ .

كيف تعارض الوعي عندي والوجدان ؟ اذ أنني كنت مشحوناً متوتراً قلقاً على وطني في داخلي ، مطمئناً بمعرفتي التي جعلتني ارى في وجود هذا الوطن دلالة على تحققه وبداية لطريق واضح تغرس فيه

المعالم ولينمو ، وتشتد فيه الفعالية فيعطى ، ويمتنع عن الغير ، فلا يستطيعون له احتراما ، كنت متوجساً خائفاً ، فلم أخف خوفي ولم أجعله عقدة بل كان في وجهي علامات ، وكان في أفعالي توتراً وكان في كلماتي غضباً وتهوراً . رهافة الوجدان عندي مشحوذة ، وما أراه من مقومات أفرحني ، وهانذا ملاحق بما لا أعرفه ، ولا ارتكبته ولا فكرت فيه !

ترى هل من شروط وطني عليّ أن أتعذب ؟ أنا أقبل ولكن بعد أن أعرف لماذا أتعذب ، ومن أجل أي شيء يكون عذابي ؟

فالعذاب دون أن تعرف أسبابه ، عذاب جديد !

— 19 —

كلما أوغلت في الاهتمام بما يجري حولي ، وكلما ازددت حرصا على وعي كل كلمة تصلني ، وكل رأي اسمعه ، كلما ابتعدت عن حقيقة ما يشغلني ، ويملأ علي نفسي منذ زمن طويل .

أعني تلك اللحظات الباهرة والتي اقتنصها بواسطة أداء فني لأقول بواسطتها معنى هامسا ، يرضيني ويملأ وجداني ، وانتظر أن أرى غيري وقد اتصل بما قدمت وأحس بوجدانه ما أحسست ، وشملته لحظة باهرة شبيهة بتلك اللحظة التي جعلتني أقدم ذلك المعنى ، أو تلك اللمسة ، أو ذلكم العالم الصغير ، بأشخاصه وحواره وحياته . انك تحسبها منتزعة من الحياة ، أو منقولة عنها ، فهي لا تأخذك بالغرابة والخيال ، ولكن تأخذك بالاقتراب

والواقع . . . الا أن فيها ما يجعلك تقف وتقول وقد اعترتك الدهشة بانك لم تر ذلك ، وتستغرب متسائلا : كيف لم تكتشفه بنفسك !

هل كنت في حاجة الى من يقدمه اليك بهذه الوسائط اللغوية ، ذات الايماء الخاص المترتب على علاقات الكلمات بعضها ببعض ، وذات الايحاء المشده المنبثق عن تناول معين للكلمات ، وإدراك ما لها من نغم خارجي ، وما يدل عليه هذا النغم الخارجي ، من ايقاع داخلي !

كل انسان عنده تلك اللحظة ، أو أنه يمتلك القدرة على أن يستحضرها ليعيشها ، ولكنه نادرا ما يفعل ، إذ هي لحظة تتطلب انفعالا وتوقدا ، مما يجعل من الانسان ذلك الهياب المتخوف المتناسى لها حتى ولو جاءته على حين غفلة .

إن الانفعال الذي يخلق تلك اللحظة قوي يهز النفس ، ويرهق البدن ، ويكد العقل ، إنه لا يجعل الانسان يحصل على لحظة الابهار ، ما لم يدفع الثمن ، فهي لحظة غالية ، وإن اعتقد الكثيرون بوفرتها وتحققها عندما يريدون . إنهم يقعون في الخلط بينها وبين لحظة الوهم الذي يصور الأمور قريبة وينشىء علامات جديدة بيين الأشياء بعضها البعض ، ويجعل منها عالما سارا مبهجا ، إلا أنه عالم فاقد الايماء والايحاء . هو عالم اضطربت فيه العلاقات بين الكلمات ولم يتخلق نتيجة لعلاقات جديدة للكلمات ، هي غلاقات بناء وتكوين وفعل وفعالية كما في اللحظة الباهرة .

اعتقد اناس كثيرون بأن في الامكان إيجاد مثل هذا العالم

المترتب على هذه اللحظة ، بأن توفر حوافز ودوافع وتأثيرات على الأجهزة العصبية والدماغية ، حتى يتحرك ما فيها من مخزون الذكريات ومكبوت الرغبات لتختلط ، فيتولد عنها ما يجعل الانسان سعيدا ، خاضعا لبهرة ، متحسبا انه امتلك قدرة ، أو تحققت له كل الأمور قاصيها ودانيها في لحظة . إنها لحظة الاشتعال والتحقق الكامل للوجود .

هو اعتقاد خاطىء . إنه تجاوز لامكانية البناء والربط والتناسق التي صنع بها الانسان نفسه ، وخرج بها من حالات العشوائية والرغبة وامتناعها ، الى تحقيق الوجود بواسطة القدرات المتنامية المتواصلة ، المرتبطة بالوعي .

إن اللحظة الباهرة التي يعيشها الكاتب ، أو هي عالمه عند الكتابة أو تقديم انتاج ، لا تتجاوز هذه الشروط الا بمقدار ما تكتشف من علاقات جديدة فيما بينها ، وما تفضى اليه هذه العلاقات من امكانيات دائمة التحقق ، دلالة على القدرة في الحركة والفعالية . . فهي اللحظة الباهرة التي هي جزء من حالات الابهار الدائمة ، هي لحظة من لحظات مترابطة ، وليست محاولة لاقتناص وهم أو توهم نتج عن اضطراب علاقات نتيجة فعل قصدي ، هو لحظة مرضية لا يكون نتيجتها غير ما يشبه الناتج عن رجة او صدمة أو خلخلة ، مما يتوجب أن يستعيد الانسان توازنه قبل أن يكون باستطاعته أن يعيش اللحظات الباهرة الصادقة .

حقيقة قد تجتمع الحالتان ، الحقيقية والمتوهمة في إنسان ، ويكون النتاج باهرا ، ذلك أن صدقه يرجع الى الحالة الصادقة ، أما

المتوهمة ، فلم تكن غير دلالة على عناء إزدادت حدته ، وعلاقات اجتماعية بلغ التوتر المترتب عليها في نفس صاحب اللحظة درجة دفعته الى أن يخفف من قوتها ، بايجاد توازن وهمي لفترات قد تقصر أو تطول .

إنها علاقات متشابكة يحتاج التفريق بينها الى يقظة تامة ، وإدراك لحركية الفعل وارتباطاته النفسية والاجتماعية ، وجذوره الشفافية وانتماءات الفرد الفكرية ، والمسافة التي تفصل بينه وبين المستوى الحضاري الذي يعيشه .

إدراكنا لا بد له من مناخ ، وإلا كان على المبدع ان يوجد مناخه حتى ولو كان هذا الوجود في أضيق الحدود .

وهذا ما كنت أحاول فعله ، فوجدت نفوسا ارتاحت لها نفسي ، وبدأت أنشيء صداقات تمثلت في جلسات على مقهى ، أو تحلقا حول ـ كاس شاهي ـ أو استماعا الى حكاية ، أو نادرة ، أو طرفة ، كنت ابحث عن النفوس وملامحها الداخلية ، فقد كانت النفوس مغلفة ، أو هي ملتفة ، أو هي كالشرنقة ، كل نفس في شرنقتها ، فلا تتوقع أن تراها تطير أو تبوح ، وكنت أريد أن أدخل الى النفوس بواسطة الكلمات اسمعها وارددها ، ففي ايقاع الكلمات ، اختلاجات ودلالات ، وكانوا وهم من بدأت أعرف يترك كل منهم جانبا من نفسه تراه لتأنس له ، لا يترك كل نفسه ، فعنده اعماق أو جوانب لا يجب أن تراها ، فما زلت وافدا غريبا .

رضيت بما قسموا لي ، وكانت حدود العلاقات لا تزيد عن

اللقاءات بعد عصر كل يوم ، يسودها المرح الظاهري ، وما أن يهبط الليل حتى احس بكابوس يجثم على صدري ترتفع معه نبضاتي ، وأعود أحمله الى مقري في الفندق لأرى الوجوه المعتادة ، ولأسمع الكلمات الرتيبة، ولأقول نفس الكلمات . لأرى وجه « محمد علي » وأسمع تمسية ـ محمد ـ ولألتقي بواحد ممن الفوا وجهي فيلقي تحية في كلمة ، يكون جوابها كلمة مثلها . ثم لأجد جريدة او كتابا ، أقرأ سطورا مملة .

تحدثنا يوما عن الأدب والقصة ، وطلب مني أن اكتب قصة لمجلة تصدر بين الحين والآخر ، فأخذني هدف ، وامتلأ وجداني ، وبدأت شحنات من الصور وايحاءاتها تأخذ بجوانب نفسي . لم أكن صاحب تجربة في هذا المجتمع .

كان ارتباطي به ارتباط مهاجر . . وكانت عائلتي ترتبط بالوطن ، ولكنها لم تكن ترتبط بمدينة بنغازي ، وللمدينة ولا شك جوها وللنفوس معالمها ، وللحياة ايقاعها ، وللعلاقات بين الناس تميزها ، مما يمكن معه أو بواسطته خلق نموذج ، وقصة متفردة تدل على الواقع ، وتشير به ، وتقول بأشيائه وعلاقاته معاني انسانية .

هذا ما كنت أريد ، فليس سهلا أن أغرف من ذكريات الطفولة هناك في صعيد مصر ، في بيت ليبي مغروس في الطين ، يحيط به جو وعلاقات مصرية ، تتميز بها مصر الوسطى ، وليس بسيطا أن آخذ ما أراه الآن في الشارع أو أسمعه في مقهى ، أو اسأل عنه شخصا . لأصنع منه قصة سردية ، ذات حوار فصيح ، ولأجعل لها عنوانا ، ثم أضع تحت العنوان كلمتين هما « قصة ليبية » لم اتعود أخذ الأمور

بهذه السهولة حتى ولو كان الأمر امر قصة صغيرة ، طلبت بقصد أو دون قصد . إنها تريد لحظة باهرة ، وما اشقها على نفسي من لحظة ، وأنا أعيش ظروف انتقال ، وافتقاد وشائج رهيفة ، والبحث عن وشائج جديدة في مدينة تحيط بالانسان فيها عوامل التوجس والتنافر وندرة الأحاسيس الاجتماعية ، وقلة في النواحي الاقتصادية ، وبحث عن الهوية الوطنية . إنها ظروف قاسية ، لا يستطيع الانسان ان يعايشها لا ان يعيشها فما بالك بمن يريد أن يأخذها داخل نفسه بتعاطف ، وينقب ويقلب ليجد نموذجا ، أو زاوية أو ظلا ، ليخلق بواسطته عالما وجوا وحدثا ، وليومىء الى معنى وطني ، يطمح لأن يكون له مداه الانساني ؟!

الم استطع أن أفتعل اللحظة الباهرة . ولم أحاول أن افتعلها ، ولكنني كنت أبحث عنها في الطرقات ، في النفوس ، في الكلمات . كنت جادا ، يدفعني الحماس ، متقدا ، وجدت هدفا ، وجدت بداية طريق .

لم اكن صغيرا ، محتاجا لمن يأخذ بيدي ولكن لم اكن راغبا في فرض نفسي ، اعتقادا مني أن المجتمع يملك من يكتب ويعبر عنه أصدق مني ، فهو أعرف بأبنائه ، وهم أعرف به مني ، هم من يعرفون الطريق الى نموه وتطويره وتوسيع افقه .

كنت اعتقد ذلك صارفا النظر عن انسانية الثقافة وشموليتها ، وإن التجربة الانسانية واحدة وان اختلفت ملامحها ، والفن فعلا وتفاعلا وأثراً وتأثيراً . هو انساني شمولي لا تزيده خصوصية التجربة الا رحابة واتساعا . ولكن بقدر ما يكون وعي المبدع بمحيطه وفهمه ،

وبقدر المامه بابعاد التجربة في حدودها ، وفي خصوصيتها ، بقدر ما يكون ابداعه محيطا ومؤثرا وفعالا على المستوى الانساني ، وهذا يتطلب ادراكا أو احاطة وارتباطا بالواقع .

هذه مسئولية الصدق ، أو مجرد محاولة أن تكون صادقا . . إنه العناء الذي يصل بك الى درجة الاحباط الكامل ، والعجز المطلق . . فرغم انني كنت قد كتبت قصصا ونشرتها على نطاق واسع في مصر ، الا انني وجدت نفسي كالمبتدىء من جديد .

وأتت اللحظة من أعماقي على غير توقع ، أو هي كانت هناك راقدة تنتظر . . كانت شوارع بنغازي تعيش آثار الحرب . كل ركن مهدم ، كل شارع فيه ما يدل على أثار القنابل والانفجارات ، المباني نصفها قائم ، والنصف الآخر خراب . . عمارات رمم بعضها وترك البعض الآخر . وأخذني ما أشاهد الى أن استكنه النفوس ، فهي حتما ما زالت تحمل بقايا الحرب واثارها في جوانبها . إنها تبدو متماسكة ظاهرة الحركة ، نشيطة ، ولكن الشظايا في العيون ، مثلما الحطام في الصدور ، والعناء في القلوب .

والصغار حملوا العبء من أجل لقمة الخبز ، فكان البحث عن العمل ، وكان النشاط في أي مكان وبأية واسطة وسيلة للحياة ، فمثلما كانت الحياة صعبة وقاسية اثناء الحرب ، فهي صعبة وقاسية بعد الحرب ، بل هي اشد قسوة وصعوبة ، إذ الجروح تلتئم ، والنفوس تتيقظ والرغبات تتصارع ، والمعاني تبنى من جديد ، والتقاليد تستعيد سيطرتها على النفوس . هذا الى جانب ما تبقى في الأعماق ويتطلب مجالدة ومجاهدة من الصغير والكبير . والصغير هو الدلالة على

استمرارية الحياة ، وعلى انها تولد في ظل الحطام والقنابل والحرائق ، ورغم العجز والقهر ، فانها تستمر ، فكان اتجاهي للصغار ، إذ كنت ارى في حركتهم في الطرقات ، وأمـام المقاهـي ، بداية للحـركة في وطني ، وأخذا للمسئولية باكرا ، كانت قصة « سلم راجلهـا » هي أول قصة ليبية كتبتها . فكانت بداية جديدة لعناء إنسان لا يمل ان يبدأ كل مرة من جديد . أن تكتـب ، معنـاه أن تبـدأ مع كل حرف من جديد ! .

— 20 —

وتدافعت الأفكار في ذهني ، وارتسمـت في خاطـري ملامـح النماذج . تحرك التاريخ ممتزجا بالواقع ، فأصبحت للكلمات دلالات وأجواء . بدت الرؤى أمامـي ، وأتسـع الأفـق ، أحسسـت بالحياة كنسيم الصباح نديا ، فتداخلت نفسي بما أشحت عنه قبـل ذلك ، ووجدت فيما انـكرت من السلـوك والـكلمات والحـركات والنظـرات قسمات لشخصيات تدب فيها الحياة في أعمال فنية . وتوزعني نشاطي النفسي ، بين أن اتجه الى التاريخ استوحيه أجعل من شخصياته التي تملأ جوانحي بالمشاعر الدقاقة شخصيات دالة حافزة ، إنها في جوهرها التاريخي . تستطيع أن تكون ذات جوانب أشد إيحاء ، وأكثر إيماء ، تمتلك من تنوع التراكمات ، والحركة والمقاومة والصمود ، ما لـم تكن تمتلكه في حقيقتها التاريخية . إنها هنا ليست الشـخصيات التـاريخية بقـدر ما هي شخصيات فنية ، فيهـا الملامـح الظاهـرية للشـخصية التاريخية وربما أخذت منها بعض الملامح النفسية والثقافية ، ولكنها لا

تبقى رهينة ذلك ، بل تتحرك بما يمليه عليها الموقف الفني وصدقه ودلالاته ، وإمكانياته الأدائية ، والمعنى الذي يسيطر والجو الذي يأسر ، والخلفية التي تكونت ، والمشاركة والمعايشة التي يساهم بها الواقع بواسطة الكاتب أو المنفذ ، أو القارىء أو المشاهد .

إنها عملية ابتعاث ، وليست عملية تنقيب ، إنها استيحاء وليست استيفاء . هي التاريخ متحولا الى حركة وصيرورة استقطبت فترة أو رجالا ، ليصبحوا في العمل الفني لحظة أو رجلا أو رجالا استقطبوا حركة وتداخلوا بصيرورتها ليخلقوا تكوينا يدخلون به التاريخ من جديد . هي ديمومة اللحظة الباهرة ، ووجودها في الفكر والوجدان ، وليس خارجها أو افتعالا لوجودها في الأحداث والأحداث . .

اخذني الاستطراد لما بعد ـ بين ـ ، فلم أزد عن الاختيار الأول ، أما الاختيار الثاني فكان الاتجاه الى الواقع . . . كان الواقع بسيطا . وكان الانتاج الفني ، والمحاولات القصصية لا تتعدى نماذج تصل الى حد الندرة ، فبعض الأقاصيص يقلد أصحابها كتابا من مصر ، وإن أخذوا من واقعهم شيئا من ملامحه الخارجية ، أو الأسماء الدالة على الشخصيات الليبية ، ليقولوا بواسطتها كلمات هي الى التصريحات والخطب أقرب منها الى الدلالات الفنية .

كانوا في كتاباتهم يمتلكون الحس الاجتماعي ، وكان وعيهم السياسي يتقدم وعيهم الفني ، إذ أنهم ولا شك لم يستطيعوا الإبتعاد عن سيطرة أجهزة الإذاعة وبعض الصحف تصدر من حولهم في وطن مجاور يشتركون معه في الحدود ، ويحاولون في الوقت نفسه أن يشاركوه

في الحركة السياسية وان يلتحقوا به أو يدخلوا معه في الفترة الصاخبة التي يعيشها . لم يستحوذ عليهم الانجذاب الابداعي ، بل امتلكهم الحماس الوطني الذي دفعهم الى الحومة القومية ، فرأوا في الإهتمام بالمجالات الإبداعية مضيعة للوقت ، وأن حاول أحدهم أن ينتج شيئاً فيها ، كان هدفه الاجتماعي واضحاً ، ومسحته الشعبية أشد وضوحاً ، إذ أن الواقعية كانت هي المذهب الفني السائد في المشرق وكل شيء في المشرق كان جذاباً وجاذباً ، لا يفكر الانسان فيه وفي أسبابه ومكوناته ، فكيف به يستطيع التفكير في الابتعاد عنه ، أو خلق شيء من واقعه ، يظهر فيه أثر العوامل التاريخية والظروف الجغرافية والسياسية ، مما يجعل للعمل الابداعي تفرده المشع وجوانبه المبتكرة ذات اللمسات المرهفة والأحاسيس الوهاجة ، والنماذج الجذابة . كان على من أراد منهم ان يقدم شيئاً ان ينحو منحى واقعياً ، أو عاطفياً ، ولكن دون ان يخالجه شك في أنه لا يبتعد عن نموذجه في المشرق .

رغم الحماس الذي امتلكهم ، والحومة القومية التي استوعبتهم ، لم يكن يجمعهم حزب أو تنظيم ، او يلم شتاتهم منتدى ، او يقرب بين مشاربهم رائد ، اذ كان يكفيهم انهم يعيشون في فترة زمنية واحدة ، يسيطر فيها حماس طاغ ، لا يترك لأية مشاعر فردية أن تظهر إلا في حدود ضيقة .

كانت نفوسهم تتسع لكل ما في المنطقة من تناقضات ، فلم يروا فيها دهاء الألاعيب السياسية والأصابع التي تحركها ، وإن رأوها ، أو استدلوا عليها ، لم يعيروها إهتماماً إذ أن الثقة بما عند المشرق من قدرة ، وما لديه من تعابير وتحاليل ومجاميع ، تجعل رجحان الكفة في

صالحه . . . ثقتهم كبيرة ، وأكبر منها طموحهم ونشاطهم ، وحركتهم الدائبة ، وتطلعهم الى التطور ، وتثقيف انفسهم ، لا ينكر الفرد منهم عصاميته التي مكنته من التحصيل ، ثم استطاعته ان يواصل مشاركته في العمل الاجتماعي في الوقت الذي يبني فيه فكره ويثري وجدانه بالقراءة والممارسة ، دون أن يجعل من محيطه الضيق سياجاً لفعله ، ثم منطلقاً له ، لكي يكون لوطنه محتواه .

كانت نواياهم طيبة ، يتحركون متدفقين دون إندفاع سيماهم تقول بحماسهم وفورتهم وعدم تقبلهم للرأي المخالف ، خاصة ذلك الرأي الهادىء الذي يرى في العمل المتمهل طريقاً للمستقبل ، مثلما لا يرى داعياً للاصطدام بالسلطة ، أو أن الوقت مبكر عن مثل هذا الفعل ، إذ هو قفز فوق ظروف ، ومحاولة تجاوز لا يستدعيها فهم مستوعب للواقع . لعل مثل هذا الرأي قد صدمهم ، وجعلهم ينظرون الى صاحبه نظرة ريبة ، فأخذت معاملتهم له طابع الشك . إلا أن الحياة في المدينة حياة محدودة غير ذات جوانب ، وليس فيها من التعدد والتطور والضجيج ما يدعو لأن تتخذ المواقف الحادة ، او يشتجر العراك الطاحن ، فسارت الأمور كما تسير كل يوم ، وزاد عليها كلمات طائرة ، وفقرات طائشة ، وهمزات وتعريفات أخذت من الإذاعات والقراءات ، ثم ليتبادلها الأفراد فيما بينهم ، ولتلتقطها آذان ، ولتسجل في تقارير ، وتحسب ذات يوم دلالة على شيء وما هي بدلالة ولا إشارة ، وإن دلت على شيء فانما تدل على التقليد ، والتكرار دون استيعاب لأبعاد الكلمات ومعانيها وشحناتها وقيمتها وارتباطها بواقعها وحركة الواقع . . .

كنت أبحث عمن يدلني على انسان عايش بطلاً ، أو عرف عنه أو فهم منه ، فلا أرى غير نظرات تقول لي : هل أنت جاد فيما تقول ؟ . أم أنت ساخر تحاول العبث بالوجدان والعقول ؟ . . وكنت جاداً ، بل كنت أتلظى الى أن أدرك وأحيط بتلك الشعيرات الدقيقة التي لا ترى ، ولا تذكرها الأسطر المكتوبة . إنها هي التي استطيع بواسطتها ان أحيط بجوانب الشخصية التاريخية ، فأجول بداخلها ، واكتشف الاعتمال والنمو ، فلا تبقى عندما تخرج هيكلاً فارغاً ، أو طنيناً أجوف ، بل إن كلماتها عندما تنطقها بعدما يكون الكاتب اقترب منها وتداخل معها ـ فعل ، وحركة يدل كل حرف فيها على شيء ، وتوحي كل كلماته بمعنى وإدراك ، وترسم كل جملة عالماً ، فاذا ما اشتبك الحوار بين الشخصيات ، كان الاحتدام ، الذي هو الحياة وقد استعيدت فوق الخشبة ، أو جرت أسطراً حية نابضة فوق الورق الأبيض . . .

أكان علي أن أشرح ذلك ، وادلهم علي أنني لست راغباً في أن أكون ذلك المتحرك الدائم الحركة ، الباحث عن مجال ظهور اجتماعي أو سياسي ، ولكنني ذلك الباحث في الأعماق ، المستكشف للنفس ، وإرتباط النفس بالعمل وتيقظ النفس ودلالة ذلك التيقظ على المعنى . فما قيمة حياتنا ما لم يكن لها معنى ؟ . . . وما هو المعنى الكبير الشامل ؟ ما لم يكن هو مجموعة معان صغيرة بسيطة هي نتاج العمل الهادىء ، والفعل الذي يجمعها ثم يجعل منها تلك القيمة الرائعة الدالة على موقف . فتحددت ملامحهم النفسية ، وبرزت مميزاتهم ، وقسماتهم ، فكانوا أبطالاً ، أي افعالاً متحققة ، متجسدة في

مواقف . وماذا كانت تلك المواقف هل هي مواقف فكرية ، معتمدة على مبادىء محددة ، ووعي واضح بقضية ؟ هل وصل رجال تاريخنا الى هكذا مجال ؟ فكان صراعهم مرتبطاً بوعيهم . لا يقدر انسان على مثل هذا القول ، وإن وجدوا مفهوماً بسيطاً ينبع من حب الأرض ، وحدود هذه الأرض . وإن حدودها لم تكن بالوضوح الذي نعرفه الآن ، بل كانت تمتد لتشمل أرض المسلمين جميعاً . إنها امتداد لمعارك تاريخهم الطويل ، استمر في هذه البقعة ، ذاك التاريخ الذي واجه به الاسلام تلك الدول ، فظل في ضميرهم ، أنهم امتداد للسلف الصالح ، يعملون مثلما عملوا ، ويصارعون مثلما صارعوا . . . وإنضاف الى إدراكهم لهذه الأمور التاريخية ، والتي تملأ وجدانهم - دعوات اصلاحية ، وتناول صوفي لجوانب الحياة الفكرية ، فكانت بالنسبة اليهم تجديدا ، أو إضافة ، جعلهم يعيشون واقعهم في ضوء عقيدة عملية ، لها مقومات الحياة والفعل .

أما الوطن فلم يبق تلك الأبعاد الشاسعة ، فهي لاتساعها لا تحد ، ولا تحدد ، ولم يصغر ويقزم حتى يصبح وطناً للقبيلة فحسب ، بل اتخذ في عقلهم وضميرهم شكلاً جديداً ، إذ أن نشاطهم النضالي ، وصراعهم فيما بينهم أولا ، ثم صراعهم ضد القوى الكبيرة التي أرادت ان تفرض سيطرتها على هذا الواقع ، قد أعطيا محتوى لمساحة محددة ارتبطت بعلاقات تاريخية ، ووشائج قبلية ، وحركة رعوية وزراعية ، ربما تداخل معها بعض ممن هم على جانبي هذه الحدود ، ولكن الملامح الأساسية للوطن قد برزت وبانت واتضحت ، فما إن استمرت العمليات الحربية وما ان استعملت

القوى المسيطرة القاهرة كل ما تملك من أدوات الحرب والاستعمار حتى كانت قد فرضت حدوداً للوطن ثبت لديها بواسطة الخرائط والاتفاقيات والدراسات ، مثلما استقر في أذهان أولئك الذين يصارعون هذه القوى .

لقد أصبح الوطن حقيقة تاريخية بحدوده وتاريخه وقبائله ، وثقافته ، وصراعه ، ومساحته وطبيعته ، ونفسية أبنائه . ساهم في إيجادها بنقيض فعله مستعمر قوي إقتسم العالم . فكانت ليبيا وطناً . فرحت وأنا أصل الى معرفة مقومات منها انطلق ، إذ بدونها لا أجد القدرة على فعل شيء ، أو خلق عمل فني ، أو كتابة قصة ، أو حتى مقال . . اذ كيف أعمل وأنا معلق في الهواء ؟! .

بقي على أن أرى ذلك في عيون من حولي ، أراه دافعاً لخطواتهم ، ودليلاً لفكرهم . لم أرد منهم أن يكونوا في حزب ، او ينشئوا تنظيماً . كل ما أردته هو أن يكون لهم ولواقعهم منطلق له مقوماته ، له شخصيته ، حتى يكون لما يفعلون بداية وغاية ، وإلا كانوا مثل أولئك الذين حملوا القصعة ، يسيرون بها مسرعين وهم لا يعرفون حوش العرس .

فهل تستطيع ان تقف ثابتاً بين الناس دون موقع قدم ؟ .

— 21 —

إستولت شخصية « عمر المختار » على وجداني ، وملأت جوانب الأفق حولي ، بصورته الهادئة ، ووجهه المملوء بالتجاعيد ، وبوقاره الثابت الدال على الايمان النابع من نفس قوية . كانت قوته

مستمدة من بساطته فلا تحس ادعاء ، أو محاولة ظهور ، أو جعجعة كلمات ، أو بهجة وتظاهرا ، ولكنك اذا ما أمعنت في الصورة راعك تماسك وهدوء واذا ما استرجعت ما أثرعنه من كلمات ، استولى عليك احترام فرضته عبارات قليلة واعية موحية لم يحاول بها أن يكون مؤثراً في الناس ، بل أراد بواسطتها ان يوصل معنى بسيطاً ، هو الذي دفعه للعمل والنضال ، فهو رجل كان دافعه في نفسه وضميره واضحاً . لم يكن طالباً لمنصب ، فهو يداور ويناور من أجلـه . ولـم يكن ذلك الخاضع لدعـوة قدرهـا ، وعـاش في ظلهـا ، فلـم يملك حياله الا الطاعة ، بل كان ذلك الفعال الذي يعرف لطاعته حدودها ، ولقلبه الصوفي منطقته ، فلم يسمح لهما أن يغلفا عقله ، ويحدا فكره ، مما أعطاه حرية في الرأي والحركة وتقدير الظروف ووعي مقدرات الوطن بعيداً عن الأغراض الشخصية ، والمحدودية الأسرية .

كنت أتأمل صورته ، وأود لو كان في استطاعتي ان أغوص في العينين الكليلتين ، لأنزل الى اعماق أحس صفاءهـا وبقاءهـا ، ممـا يجعلني في حالة كشف باهر اقترب خلالها من ذاته ، فأرتعش اذ أدرك انني على مشارف النفس ولـم أستطـع ان أدخلهـا ، فما زلـت ذلك العاجز ، رغم بهرة حالة الكشف التي اعترتني ، فأنا لم امتلك المفتاح بعد ، وبحثي عن مفتاح هذه الشخصية سيطول وشخصية بلا مفتاح هي شخصية مقفلة ، قد يستـطيع مثلي أن يفهمهـا بواسطـة حالات صوفية ، او تجليات اقترابية ، ولكن كيف لي ان أجعلهـا قريبـة من غيري ، بصدقها الفني ، وبـايحاءاتهـا ، وبكلماتهـا التـي تشـير الى الخلفية الثقافية ، وبروحها التي تجعل من الغير يقتنعون بأعمالهـا ،

ويقفون الى جانبها في صراعها ضد القوى التي تحاول أن تجعلها في حكم الأفراد العاديين ، مما يكسب الفعل عندها سيطرته وجبروته وخروجه عن المعتاد ، فهو رفض للرضوخ والاستواء الذي يعني الاقرار بأن الحياة (دبيب) ، هو الحركة في أدنى صورها . وكنت أسأل كل من عرفت من الصحاب والأصدقاء . فكانت كلماتهم تشير الى مظان بسيطة لا تتعدى بعض الصحف ، او المقالات التي تكتب في المناسبات ، او بعض الكتب التي جعل اصحابها من تمجيد شخص ديدنهم ، فهم يجعلون هذا الانسان المضيء تابعاً له أو لفرقته . فهو عندهم لا يساوي شيئاً لو لم يكن تابعاً لمثل ذلك السيد .

كنت أحتج في داخلي على مثل تلك المقالات أو الآراء التي تجعل من العمل والمواقف والكلمات - وهي مكونات الانسان وتاريخه ووجوده الحقيقي - يبديها ويصارع من أجل أن تسود معانيها التي يرتضيها ، فلا ينسب الفضل في ذلك اليه ، بل الى سيده ، وإن نسب هو اليها أو نسبت اليه ، فالجميع يرجعون بالاقرار والخضوع للسيد .

ودلني صديق على كلمات لعمر المختار ، جاء في ندائه الذي وجهه الى ابناء وطنه سكان ليبيا . .

« فليعلم كل مجاهد أن غرض الحكومة الايطالية انما هو بث الفتن والدسائس بيننا لتمزيق شملنا وتفكيك أواصر اتحادنا ، لتتم لها الغلبة علينا واغتصاب كل حق مشروع لنا كما حدث كثير من هذا خلال الهدنة ، ولكن بحمد الله لم توفق الى شيء من ذلك .

وليشهد العالم أجمع أن نوايانا نحو الحكومة الايطالية شريفة .

وما مقاصدنا الا المطالبة بالحرية . وإن مقاصد ايطاليا وأغراضها ترمي الى القضاء على كل حركة قومية تدعو الى نهوض الشعب الليبي وتقدمه ، ومع ذلك لا يمكننا ان نقول إن جميع الشعب الايطالي يحبذ فكرة الحرب . وخصوصا في الوقت الذي تتساهل فيه الأمم الأخرى مع الشعوب الشرقية ، بل فيه رجال سياسيون ميالون الى السلم يقدرون مصلحة بلادهم ويعرفون ما تجره الحرب من ويلات ودمار . كما أن فيه افرادا يريدون القضاء على الشعب الليبي بأي وجه كان وهيهات أن يصل الأخيرون الى غرضهم هذا ما دامت لنا قلوب تعرف أن في سبيل الحرية يجب بذل كل مرتخص وغال .

وها نحن الان ندافع عن كياننا ونبذل دماءنا الزكية فداء للوطن وفي سبيل الوصول الى غايتنا المنشودة . لهذا نحن غير مسئولين عن بقاء هذه الحالة الحاضرة على ما هي عليه حتى يثوب اولئك الأفراد النزاعون الى القضاء علينا الى رشدهم ، ويسلكوا السبيل القويم ، ويستعملوا معنا الصراحة بعد المداهنة والخداع » .

عمر المختار .

قائد القوات الوطنية

فوجئت بالأضواء تضيء جوانب الشخصية ، فبدت لي واضحة محددة الملامح ، واضحة النبرات ، ثابتة الكلمات ، هادفة واعية ، تحدث عن بصيرة ، وتعمل عن حس وادراك ، وبوازع وطني حقيقي . فكلمات البيان محددة تدل على وضوح الرؤية ، وتحدد الهدف ، والفهم الجاد للفروق التي تفصل بين الشعب الايطالي وساسته ، مثلما تفصل فروق بين الساسة الأحرار ، الذين لا يخضعون للطغمة الفاشية ، وبين أولئك الذين يريدون ابادة الشعب

الليبي الذي لا يريد الا السلام الحق . إنها كلمات واعية ، وأكاد اقول بأنها كلمات راقية مهذبة تخرج من فم رجل يعيش في الجبال ، والصحارى ، يلتف بجرد خشن ، ولم يعرف الحرير والمساند المذهبة ، ولم يسر فوق البسط ، ولم يجلس على غير حصير من الحلفاء ، أو نسيجة من صوف أو وبر .

هزتني الكلمات فكدت اسير في شوارع بنغازي مرددا لها هازجا ، فرحا ، متوقدا ، نشيطا منتشيا . إنها لحظة تعرف فيها أن أناسك وأبطالك . لم يكونوا صورة مزورة لحقيقة تافهة ، بل كانوا حقيقة رائعة قوية واعية ، زورت لهم صور تافهة . فهذا الانسان يقف بعد محادثات ومداهنات وخداع من الأعداء ، ومن بعض ممن كانوا معه ، فلا يهزه ما أبداه اولئك النفر ، ولا يخيفه تهديد الأعداء ولا يقع في لحظة رد الفعل الغاضبة ، فتبدر منه كلمات فيحسن العدو تأويلها ، وتشويه صورته بها أمام العالم ، وبدلا من ذلك تصدر منه كلمات تقول (وليشهد العالم أجمع أن نوايانا نحو الحكومة الايطالية شريفة ، وما مقاصدنا الا المطالبة بالحرية) .

قلت لنفسي ، هل رأيت كيف امسك هذا القائد بزمام الموقف فصعد ، وأصبح يشرف على عدوه من فوق . إنه لم يعد في موقف المواجه المكافح فقط بل انه ارتفع ليجعل عدوه تحت قدميه .

قليلة هي المواقف التي يكون فيها الفرد انسانا وبطلا ، معبرا بذلك عن وعي لم تكن تتوقعه منه في ضوء معطياته الحياتية . إن الانسانية ليست تصرفا فرديا ، بل وجهة نظر ، وسعة أفق ، وإحاطة بمعطيات الحياة العصرية ، وفهم لما يدور في المجتمع الايطالي بصفة

خاصة والمجتمع الأوروبي بصفة عامة من صراع بين الطبقات ، ومن تصادم بين آراء المفكرين والقادة والسياسيين حول الشعوب التي تصارع الاحتلال . إنها الوعي بالانسان اينما كان . لا تحس بالاستجداء أو التهافت في كلماته ، ولكنك تحس بالقائد وقد تحول الى سياسي مدرك ، يحسب لكل كلمة حسابا ، ويعرف ابعادها وقيمة هذه الأبعاد في مثل تلك الساعات بالنسبة لعدوه ولمن هم معه ، وبالنسبة لوطنه ورجاله في نفس الوقت .

إنها أوقات تلتقي فيها أمنيات ورغبات أثر محادثات ، كل فرد يود ان تنتهي بانتهائها الحرب ، فاذا ما فوجىء مثل هذا الفرد بمثل تلك النهاية . كان في حاجة لمن يقنعه . وكانت كلمات عمر المختار مقنعة ، اذ هي لم تقل غير الحقيقة ، قالتها في بساطة ودون ادعاء . وهي لم تقعقع ولم تجعجع ، ولم يدع صاحبها ، ولم يهدد بالويل والثبور ، بل قال (إن نوايانا نحو الحكومة الايطالية شريفة) أما كلماته الى وطنه . (فها نحن الآن ندافع عن كياننا ، ونبذل دماءنا الزكية فداء للوطن وفي سبيل الوصول الى غايتنا المنشودة) . .

الدفاع عن الكيان ، ما أروعها من كلمة ، قالها عمر المختار قائد القوات الوطنية ، في بيان منذ نصف قرن . الكيان هو الوجود الوطني متحققا بحدوده وناسه وحركتهم وانتاجهم وحياتهم وتفاعلهم مع الغير ، فليس هناك من وجود وطني ، دون أن يكون هناك كيان وطني ، والا لسأل عمر المختار نفسه :

عن أي شيء أدافع إن لم يكن دفاعنا عن كياننا ؟ ومن اجل من تبذل الدماء الزكية إن لم تبذل فداء للوطن ؟، وفي سبيل غاية منشودة

هي تحقق الوطن واستمراره ووعي ابنائه بوجودهم المستمد من وجوده على هذه الأرض ؟

ويقول عمر المختار خاتما بيانه « لهذا نحن غير مسئولين عن بقاء هذه الحالة الحاضرة على ما هي عليه حتى يثوب اولئك الأفراد النزاعون الى القضاء علينا الى رشدهم . ويسلكوا السبيل القويم ، ويستعملوا معنا الصراحة بعد المداهنة والخداع .)

إنه لا يريد غير الصراحة من ذلك العدو المغتصب . يريد موقفا حتى يواجهه بموقف ! ومتى عرف مغتصب ، قام بالاعتداء والاستيلاء على وطن غيره موقفا واضحا ؟ إنه لا يعرف غير المخاتلة ، وإقتناص الفرصة ، ألم يكن عمر المختار يعرف ذلك ؟!

لا شك انه كان يعرف ويدرك ويعي . ولكنه كان يخاطب العالم بمخاطبته لهذا العدو ! رددت سابحا بفكري : وجدت مفتاحا لهذه الشخصية ، وبقيت مفاتيح .

— 22 —

كان صلبا ، بدت صلابته في قمم التناقض ، عندما يكون عند الآخرين دواع للتراجع او اللين ، أو الميل مع حدة الطرف الآخر ، أما عنده فلا تراجع ولا لين ولا ميل .

رغم سيطرة صورته على وجداني ، فلم تكفني وقد هزتني حتى الأعماق ، إذ كنت ابحث عن مزيد من الكلمات ، فلم يشبع نهمي ما سمعت ، فهي لا ترتفع الى درجة توضيح الفكر ومجاله عند بطلنا ، لنقبل منه المواقف المترتبة على الفهم والاستيعاب ، فلا يكون

غريبا بعدها أن يومض اشعاع دال على الوعي والاحاطة .

كنت قلقا بعدما قرأت بيانه . وأخذت منه وبنيت عليه ، إذ الشك كان يعتريني في أنه كاتبه أو ممليه . كان المأثور عن البطل قليلا ، وأقل منه ما كتب عنه ، ومثلي يبحث عما ينير جوانب الشخصية . في الوقت الذي أحاول فيه مسح المرحلة التاريخية التي عاش فيها .

وكم كانت كثيرة تلك اللحظات التي احسست فيها بالعجز والجدب ، فندرة المعلومات هي سمة الفترة التي أعايشها ، وأحاول فيها أن أجعل البطل صاحب الكلمات المواقف من جديد ، فليس هناك من يسترسل في الرواية عنه ، أو يصفه في حركاته وجولاته ، وجلوسه وقيامه ، وغضبه ورضاه ، أن يجعل منه انسانا تحسبه قريبا تتردد انفاسه امام وجهك . لعلهم كانوا يرون في ذلك ثرثرة تحسب من عيوب الحديث وصاحبه . مثلما تعتبر مضرة بمن يتحدث عنه ، فكثرة الكلام في عرفهم هذر لا يجدي . أما قلة الكلام وحدته فدلالة على الرجولة .

هل كانت تلك الجمل القليلة المكررة المحفوظة تشفي غليلي للمعرفة والاحاطة ، وامتلاء الوجدان ، وتحريك الانفعال ، واستعادة اللحظات لكي تكون حياة من جديد ؟ . .

هو ايهام ، أنا أعرف ، ومحاولة لكي نقترب من لحظة صدق ، وبعث تجربة دالة ، ورغم ادراكي لذلك ، فان هذا لا يمنعني من تحري الصدق التاريخي ، قدر الاستطاعة ، فالناس حوالي كالصناديق المغلقة ، أو أنهم عاشوا تلك اللحظة حقيقة ، ولا يريدون أن

يستعيدوها ، فهي لمرارتها لا تطلب لتستعاد ، وليس في جوانبهـا ما يكتشف من جديد ، ترى هل عجـزوا عن رؤية قيم أو اسـتشراف معان ، أو اقتراب من وهج ، أو أن في قلوبهم ما يجعلهم يحتفظون بذلك ويموتون وهم على احتفاظهم به في صدورهم غير آسفين .

والكتب لا وجود لها ، وإن وجدت نسخ مما تتحدث عن هذه المرحلة وعن هذا البطل ، فهي باللغة الايطالية ، وعند أفراد يشكون فيك آلاف المرات قبل أن يساعدوك في قراءة شيء منها ، أو أن يدلوك على شيء خاف عليك . وكان أن تخبطت فيما أريد، وكدت أرجع عن بغيتي ، إلى أن وقعت يوما على كتـاب يضـم خليطـا من المعلومـات التاريخية والجغرافية والرسائل والأقوال دون منهج أو ترتيب ، ودون الاشارة الى مصدر ما فيه من الآراء والاقتباسات ففرحت اذ وجدت فيه تسجيلا لموقف حقيقي لبطلنا ، شككت في صحته أول الأمر ، ولكني بعد ذلك اقتنعت بصدقه داخليا ، وأنا استعيد شيئا من هذا الموقف اعتمادا على مصدر جديد ، تذكرت به حالتي الفرحة يومها ، وأنا أقرأ وأعيد ثم أرجع للموقف وأتمثله واجعله أمامي ، وأعيد . ففيه مواجهة والتقاء أطراف وقمة حدث لا يستطيع كاتب أن يرتفع لمثلهـا . كان الكتاب الذي وجدته في تلك الفترة وقرأت فيه هذا الموقف ، هو كتاب « برقة العربية بين الأمس واليوم » أما الكتاب الذي استعيد فيه القراءة فهو « برقة الهادئة » للجنرال جراسياني ترجمة ابراهيم بن عامر .

كان الحوار يستـولي علي كلمـة كلمـة ، ثم فقـرة فقـرة ، ثم يجذبني لكي أظل مبهوتا مشدودا ساكنا أنظر . أعود من جديد أقرأ ، وقد بدأ الحوار بسؤال جراسياني لعمر المختار .

س ـ لماذا حاربت بشدة متواصلة الحكومة الفاشيستية ؟
ج ـ من أجل وطني وديني .
س ـ هل كنت تأمل في يوم من الأيام أن تطردنا من برقة بامكانياتك الضئيلة وعددك القليل ؟
ج ـ لا . . كان هذا مستحيلا .
س ـ إذاً . . ما الذي كان في اعتقادك الوصول اليه ؟
ج ـ لا شيء الا طردكم من بلادي ، لأنكم مغتصبون ، أما الحرب فهي فرض علينا ، وما النصر الا من عند الله .
س ـ لكن كتابك يقول «ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة »، بمعنى لا تجلبوا الضرر لأنفسكم ولا لغيركم ، القرآن يقول هذا ؟ . .
ج ـ نعم .
س ـ اذا . . . لماذا تحارب ؟
ج ـ كما قلت لكم من أجل وطني وديني .
ويعقب الجنرال ، قاصدا إثارة البطل : أنت تحارب من اجل تلك المنظمة أو الطريقة التي كانت السبب في تدمير الشعب والبلاد على السواء ، مثلما كانت تستغل اموال الناس بدون حق . هذا هو الحافز الذي جعلك تحاربنا لا الدين والوطن كما قلت .
وينظر عمر المختار نظرة حادة كالوحش « هكذا يلاحظ جراسياني » ثم يقول . . .
ج ـ لست على حق فيما تقول ولك أن تظن ما شئت ، ولكن الحقيقة الساطعة أنني أحاربكم من أجل ديني ووطني ، لا كما قلت . .

س ـ لماذا قطعت الهدنة السارية وأمرت بالهجوم على « قصر بن قدين » ؟

ج ـ لأنه منذ شهر أرسلت رسالة الى المارشال « بادوليو » ولم يجبني عنها وبقيت بدون رد حتى الان .

ويعقب الجنرال ، وكان غاضبا على مايبدومن كلماته :

ـ لا . . أنت أردت قطع الهدنة لحاجة في نفسك ، وهاك الدليل .

ويقرأ الجنرال البيان الذي نشره عمر المختار بتوقيعه ، لم يرد في بادىء الأمر ، وحنى رأسه مفكرا ثم قال :

ـ نعم . . نشرت البيان بتوقيعي ولكن هذا هو الدليل وإنما هو عدم تجاوبكم معنا في تنفيذ شروط الهدنة .

ولم يزد عمر المختار ، فقد بدا عليه الاعياء .

س ـ هل امرت بالفعل بقتل الطيارين هوبر وبياتي ؟

ج ـ نعم ! كل الأخطاء والتهم في الواقع هي مسئولية الرئيس والحرب هي الحرب .

وعلق الجنرال قائلا : هذا صحيح لو كانت حربا حقيقية ، لا قتل ولا سلب مثل حروبك ، فيعقب عمر المختار على كلام الجنرال قائلا :

ـ هذا رأي فيه إعادة نظر ، وأنت الذي تقول هذا الكلام ، أما أنا فما زلت أكرر لك الحرب هي الحرب .

واكتفي الان بهذا القدر من الحوار ، لأنظر داخل الشخصية فأراها وقد تماسكت تماما ، فلم يعد فيها شرخ ، ولم تحس بأن الأقدار تحاربها ، أو أن العناية الالهية تخلت عنها . أو أن العدو

سيرحمها . إنها تواجه الحقيقة المروعة في صمود ، وتنتظر لحظة النهاية انتظارا واضحاً ، رغم الاعياء ورغم الاجهاد الذي يبدو على وجهه . إلا أنه عرف الطريق . وعرف أصول الحرب ، فالحرب هي الحرب يتحمل مسئولية الأعمال التي تقع فيها . الانتصار فيها قد يكون هزيمة ، والهزيمة قد تكون انتصارا . وهو يدرك أنه منتصر إذ أنه يحارب من اجل وطنه ودينه ، ويرفض في قوة وغضب أن ينسب عمله الى غيره ، أو أن دافعه شيء آخر غير وطنه ودينه .

اذكر يومها عندما قرأت هذا الحوار أنني لم أقرأ هذه الكلمات ، فقد غاب عني شيء من جوانب هذه الشخصية ، شيء هام يتصل بفكره ووعيه ، وكان صاحب كتاب برقة العربية بين الأمس واليوم . . لا يجرؤ على وضع حوار ينفي فيه عمر المختار بأن حافزه للنضال هو تلك الفرقة او الدعوة أو الطريقة ، وأن ليس غير الوطن والدين حافزا وداعيا لمقاومة اولئك المغتصبين ورغم ذلك فقد أحسست بكلام لم أقرأه ، ولم يقله أحد لي . إذ أن الجوانب الأخرى التي تظهر من الشخصية ، أو يوجد ما يدل عليها تشير الى الجانب الخفي ، أو الذي أخفى ما يدل عليه ، فعند مثل هذه الشخصية تتواصل المواقف ، ويفضي بعضها الى البعض الآخر . هو فوران الحياة الواعي ، وتحولها الدائم ، وتغيرها بالوعي الداخلي ، وعي الحركة ، فتجد أن حيوية الموقف تعفيك من استقصاء البحث وتعطيك دائما مفاتيح كثيرة ، قد تبدو صغيرة صغيرة وقد لا يراها كل فرد ملقاة بين ركام الأوراق ، أو تخرج من بين الشفاه دون اهتمام ، ولكن الذي يريد أن يستعيد تلك اللحظات الباهرة ليقدمها في صدقها الفني يرى

فما زلت استعيد في ذهني ذلك التلظي الذي جعلني لا استطيب نوما ، فالقلق قاس ، وأقسى منه أن يكون نتيجة تكليفك لنفسك أمرا يتصل بغيرك ، ويتصل بتاريخ وطنك ويتصل بضميرك ووجدانك . . فأنت لم يكلفك احد ، فحملت ما حملت ، وجعلت تأخذ من نأمات الاشارات وتطلب من الناس أن يكونوا مثلك . . وأن يعيشوا في تنور من الهموم الذهنية .

إن جوانب النقص في الشخصية مدعاة للراحة عند الكاتب ، حتى ولو لم يشر اليها أحد ، هذا اذا وجدها ، أما إذا لم يجد جوانب نقص ، ولم يقل له احد عن شيء منها ، ولم يكتشف من خلال أعمال وأقوال الشخصية ما ينبىء عنها ، فهنا تكون طامة الصعود الى القمة ، والبقاء هناك وحيدا في بطولة دائمة خالدة مستحيلة لا يستطيع الكاتب أن يعبر منها أو يذكرها أو حتى يشير إليها .

إنه يقول بأن صاحب هذه العلامات وصاحب هذه الشروط قد ارتفع فوق مصاف البشر ، ولا يضيف . ولا يوجد بطل فوق مصاف البشر ، إذ لا بد من الضعف ، الضعف هو النقيض وهو الذي نرى بواسطته معنى الصمود ونحسه وندرك معناه .

كنت أبحث عن هذا الجانب دون قصد ، ولكن إدراكا مني لقيمة بطولة عمر المختار وارتفاعها في المواقف والوضوح والأبعاد والرؤية ، الى درجة تجعل الكاتب يقف قائلا :

ـ هذا لا يستعاد ، إذ يكفينا أن نوقن بأنه حدث .

كنت أبحث عن جوانب الضعف في الشخصية ، فالكمال

الانساني يجعل الكاتب في زاوية ضيقة ، لا تمكنه من الحركة ، ولا تعطيه المجال ليقول شيئا ، أو لتقول الشخصية من خلاله كلمات باقيات . .

ماذا يقول البطل اذا استوت نفسه ، وارتفعت فلم تعد تعاني نقصا ، وتكاملت الجوانب فأصبح كل جانب يرفد الآخر ، ولا يجعل به عوجا أو اهتزازا .

ترى الخطوات كأنها محسوبة بميزان ، وتسمع الكلمات كأنها ايقاعات قدرت فلا زيادة ولا نقصان . لا إنفعال يخرج بصاحبه عن الحد ، ويجعله يتدارك ليتراجع ، ولا شطط يوغل به مسافات في التقدير ، ثم هو يريد أن يتفادى النتائج .

هي قالب جمعت فيه خصائص ، ثم دفعت لتتحرك بين الناس ، فكيف ننتظر من البشر أن يروا فيه شيئا من نفوسهم ، أو محاولة للسمو ، وصراعا ضد ضعف أو عجز ، وسقوطا بعد ذلك ، ليشملنا الأسى حزنا على مصيره ، والذي يحس السامع أو المشاهد أنه يشترك معه في جانب من هذا المصير ، أو في المصير كله . . إن البطل يرفع النفس الانسانية معه الى فوق ، ولكنه يجعلها في حالة توقع دائم ، فاذا ما سقط كان سقوطه مأساة لتلك النفس التي ارتفعت معه ، ولا ينقذها من مأساتها إلا حالة التطهير التي ارتفعت معه ، ولا ينقذها رغم الدموع التي قد يذرفها الوجدان . . .

لم أكن أريد كتابة خطب ، أو عبارات طنانة ، تمدح الوطن والموت في سبيله ، وتعظم البطولة والفداء ، وتدعو الناس الى

فعلهما ، وتذم الخيانة والتردد والخنوع وتحرض المجتمع عليها وعلى من يرتكبها ، ولكنني حاولت كتابة عمل مسرحي فيه الحد الأدنى من الشروط التي يجب توفرها ، رغم أن الجو المحيط لم يكن يشجع على كتابة حتى مقالة ، أو أهزوجة مديح تحتوي على قدر من الفن . . . إن الناس من حولي يرددون كلمات التثبيط التي تقل العزيمة ، ولا تعدم شخصا يقترب منك لينصحك بأن ما تريد فعله قد لا يرضي أقاربه وهم أحياء ، كما أن من يشير عليك وينصحك في عبارات طائرة تراه كل يوم ، وربما وجدت منه هشاشة يوما ، وغالبا ما تراه عابسا فهو على دراية بأنك لا تود كتابة ما يرغبون فيه ، وهو يريد السلامة ولا شك ، والسلامة والراحة أمران مرغوبان فلماذا يصدف عنهما أمثالي ؟ . .

أعترف بأنني لم أجد الحافا ، ولا ملاحقة ، ولا متابعة ، فما كان يتناثر لا يتعدى الرأي الذي لا يقصد به الايحاء ، إن ترغيبا أو ترهيبا ، هو الحديث قد يأخذ صاحبه في عفوية المواصلة ليقول رأيه بصراحة في المجتمع ، وفي الأشخاص ، وفي الفكرة ، وفي صاحبها . .

ولكنني كنت أتحسس موقع القلم ، كنت ابتغي عملا ، ولا أسعى الى منصب ، أو أتقرب الى أحد ، فما أبتغيه كنت أقصد به وجه الوطن ، فاذا ما أثر في ضميري بطل ، وكان موقفه ومواصلته وصموده وكبرياؤه حافزا لي ، ودافعا لي والى العمل والتمسك بكلماته ، والاعتزاز بتلك النفس ، وجعلها مدار عمل يوحي ويستمر ايحاؤه ، ويحض ويحرض على أن يكون هذا الوطن تواصلا لا هوادة

فيه ، فليس معنى ذلك أنني أريد أن أقعقع بالألفاظ فأتحاشى جوانب الضعف والنقص ، خوفا من أن يؤذي ذلك مشاعر احد إن ادعاء أو صدقا . . إلا أنني رغم احساسي بذلك ، ووعيي بما يحيط بي وقعت في محذور الشخصية الكاملة ، اذ تملكتني جوانب الكمال في عمر المختار ، ولم تسعفني جوانب الضعف بشيء أعبر به عنها غير تلك الحالة من الكآبة التي سيطرت على البطل في أُخريات أيامه وإحساسه بأن الحصار يشتد حوله وأن حلقة العيون والترصد تضيق ، وأن المدد يقل ، وأن من يتابعونه ويعينونه خلف الحدود قد اعتراهم الملل ، فاكتفوا بالعبارات والمساعدات الرمزية . . . فكان إدراك البطل لحقيقة ما يدور حوله ، وتوقع النهاية في كل لحظة ، وعبارات الاغراء ، ودعوات الهجرة وترك الميدان ، كلها امور تنزل الحزن في قلب المناضل صاحب العزيمة ، والتصميم على التحرير ، ولو استمرت المقاومة عشرات السنين . . . .

التقطت هذه الروح التي اضفيتها على البطل ، وجعلتها جانبا ضعيفا ، من أفواه الناس ، والكلمات القليلة التي تخرج عفوا دون قصد ، ذلك أن التوضيح لم يكن يرغب فيه احد ، فبقايا الجروح في النفوس ، وتداخل المجتمع وارتباطه ، تجعل الفرد في حذر دائم . .

لقد رضيت بما حصلت عليه ، وكان باستطاعتي أن أخلق صراعا داخل البطل وخارجه وأن توجد الشخصيات التي تصارعه ، فلا شك أن شخصية «الرضا» كانت كفيلة بتحريك الجمود، والتطور بالصراع ، ولكن هاجسي الداخلي ، والهواجس من حولي جعلني ابتعد عما يمس هذه العائلة التي هو منها ، في الوقت الذي جعلني

احوم حول البطل ولا أكاد ادخل اعماقه . . .

ولأرجع مرة ثانية الى هذا الحوار الدال ، الذي لو عثرت عليه في تلك الأيام من سنة ١٩٥٨م لأمكنه أن يحرك القلم ، ولتحركت المسرحية ، واشتد الصراع ، ولربما كان باستطاعتي أن أفعل شيئا وأقدم عملا له مميزاته وملامحه ونبضه الدائم . .

ـ الجنرال : بموقفك في موقعة ـ قصر بني قدين ـ ضيعت كل امل وكل حق في الحصول على رحمة وعفو الحكومة الايطالية الفاشية . .

ـ عمر المختار : مكتوب . . وعلى كل حال عندما وقع جوادي وألقي القبض علي كانت معي ست طلقات وكان في استطاعتي أن أدافع عن نفسي وأقتل كل من يقترب مني ، حتى الذي قبض علي وهو احد الجنود من فرقة الصواري المتطوعين معكم ، وكان في امكان كذلك أن أقتل نفسي . . .

ـ الجنرال : ولماذا لم تفعل !. .

ـ عمر المختار : لأنه كان مقدرا أن يكون . .

يعلق الجنرال قائلا بأنه تحقق فيما بعد القاء القبض عليه أن بندقيته كانت فوق ظهره ، وبسقوطه فوق الأرض لم يستطع نزعها ، فلم يتمكن من استعمالها بسرعة ، وكذلك من أثر الجروح والكسر الذي بيده اليمنى ، وهذا في الحقيقة جدير بالاعتبار والتقدير .

ـ عمر المختار : (مستطردا) كما ترى أنا طاعن في السن ، إتركني على الأقل أجلس . . .

يقول الجنرال بأنه أشار له فجلس على كرسي أمام مكتبه ، وفي

هذه الاثناء ظهر له وجهه بوضوح وقد زالت رهبة الموقف ، وأخذ عمر المختار يتحرر منها شيئا فشيئا وتأمله من جانب فرأى في وجهه بعض الاحمرار ، هذا هو الرئيس الموهوب ، وبدأ يفكر كيف كان يحكم ويقود المعارك . وبينما عمر المختار كان يتكلم كانت نظرته ثابتة الى الامام وصوته نابع من أعماقه ، ويخرج من بين شفتيه بكلمات ثابتة ، هادئة . . وفكر الجنرال ثانيةهذا هو القديس، إن كلامه عن الدين والجهاد يدل بكل تأكيد على أنه مؤمن صادق يتكلم عن الدين بكل حماس وتأثر ـ . .

ـ الجنرال: (فجأة) بما لك من نفوذ وجاه، كم يوما يمكنك خلالها أن تأمر العصاة ـ يعني الثوار ـ أن يخضعوا لحكمنا ويسلموا اسلحتهم ، وينهوا الحزب !. .

ـ عمر المختار : ـ أبدا كأسير ـ لا يمكنني عمل أي شيء . . (ثم مستطردا) نحن الثوار سبق أن أقسمنا أن نموت كلناالواحد بعد الآخر ، ولا نسلم ولا نلقي السلاح ، وأنا هنا لم يسبق لي أن استسلمت وهذا على ما أظن حقيقي وثابت عندكم . . .

ـ الجنرال: (ممسكا نفسه) كان ذلك ممكنا لو تعارفنا في وقت سابق ، وإن الخبرة الطويلة التي اخذتها عنكم كفيلة بأن توصلنا الى أحسن حال في سبيل تهدئة البلاد وازدهارها . .

ـ عمر المختار: (رافعا حاجيه وبصوت عميق جهوري ثابت) إذاً لم يكن هذا اليوم هو ذلك اليوم الذي تقول منه . . . !

ـ الجنرال: فات الأوان . .

ويعلق الجنرال قائلا : عند هذا الحد رأيت أن أوقف المحادثة

فيما بيننا . . ربما فكر عمر المختار في تلك اللحظة ان الحكومة الايطالية ستبعثه الى الجبل من أجل أن يسلم اتباعه السلاح ويخضعوا لسلطاننا ، ولكن لا . . لقد قالها منذ لحظات بأنهم جميعا يموتون ولن يستسلموا ، وعليه لقد فات الأوان ، وقلتها بنفسك أن لا فائدة من المحاولة .

إن الأمل الذي لاح منذ قليل قد انهار ولم يعد . . .

ـ الجنرال : (يعرض على عمر المختار نظارته ذات الاطار الفضي) هل تعرف هذه ؟ . . .

ـ عمر المختار: نعم إنها لي ، وقد وقعت مني اثناء إحدى المعارك وهي معركة ـ وادي السانية . .

ـ الجنرال : منذ ذلك اليوم اقتنعت بأنك ستقع أسيرا بين يدي . .

ـ عمر المختار: مكتوب! هل ترجعها لي؟ . . . لأني لم أعد أبصر جيدا بدونها . . (ثم مستطردا) : ولكن ما الفائدة منها الآن ؟ . . هي وصاحبها بين يديك . . .

ـ الجنرال: مرةاخرى انت تعتبر نفسك محميا من الله وتحارب من أجل قضية مقدسة وعادلة ؟

ـ عمر المختار : نعم ، وليس هناك أي شيء في ذلك ، قال الله تعالى :

ـ قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ـ صدق الله العظيم .

ـ الجنرال: إذاً . . استمع الى ما أقوله لك أمام قواتي من نالوت الى الجبل الأخضر في برقة . . كل مشايخ ورؤساء العصاة ـ يعني

الثوار ـ منهم من هرب ومنهم من قتل في ميدان القتال ، ولـم يقـع منهم أي واحـد حيا في يدي . . أليس عجيبا أن يقع أسيرا بين يدي حيا من كان يعتبر أسطورة الزمن ، والذي لم يغلب أبدا ، بل المحمي من الله دون سواه ؟؟ . .

ـ عمر المختار : (بصوت يدل على القوة والعزم) تلك مشيئة الله . . .

ـ الجنرال : الحياةوتجاربها تجعلني اعتقد وأؤمن بأنك كنت دائما قويا ، ولهذا فاني اتمنى أن تكون كذلك مهما يحدث لك ومهما تكن الظروف . .

ـ عمر المختار : إن شاء الله . . . .

ويعلق الجنرال قائـلا : عندمـا وقف ليتهيأ للانصراف ، كان جبينه وضاء كأن هالـة من نور تحيط به ، فارتعش قلبـي من جلالـة الموقف وأنا الذي خاض معارك الحروب العـالمية ، والصحـراوية ، ولقبت بأسد الصحراء ، ورغم هذا فقد كانت شفتاي ترتعشان ولم استطع أن أنبس بحرف واحد ، فانتهت المقابلة وأمرت بإرجاعه الى السجن لتقديمه الى المحاكمة في المساء ، وعند وقوفه حاول أن يمد يده لمصافحتي ، ولكنه لم يتمكن لأن يديه قد كبلتا بالحديد . .

لقد خرج من مكتبي كما دخل علي وأنا أنظر اليه بكل اعجاب وتقدير . .

الآن انتهت المأساة . . .

هكذا أحس جراسياني بأن من شاهده كان بطلا اجتمعت فيه

شروط البطولة المأساوية ، أي تلك التي ترتفع بصاحبها الى القمة ، هناك عند ذروة جبل الأولمب ، ولكنها هناك أيضا عند السفح ، أو في القمة يجد البطل مصيره المترتب على الخطأ أو القصور البشري ، أو ما وضع في الطريق من عقبات ، فلا سمو دائما ، ولا قدرة على اجتراح المستحيل ، بل هي حدود لا يستطيع البطل أن يتجاوزها . . إنه يكسب سموه بنضاله من أجل الوضاءة والاستحالة والمشاعر النبيلة والخير الدائم لأبناء وطنه وللانسان ، كما يكتسب التقدير من شجاعته في مواجهة مصيره في الوقت الذي نحس فيه بالأسى عندما ينحدر مع السفح ، أو يواجه عدوه فتكون في تلك المواجهة نهايته .

كان في سمو « عمر المختار » نهايته ، تلك النهاية العجيبة ، والتي تعجب لها جراسياني ، وقد رآه بين يديه يستجوبه ويواجهه . . . ترى هل كان يتمنى أن يراه ميتا ، ولا يراه حيا ليواجهه ؟. ترى هل كان يطمع أن يرى هذه الأسطورة وقد تحطمت أمامه ، فلا تحترق نفسه بالمأساة ، إذ يواجهه البطل وهو يواجه مصيره ، فلا يتحطم بل تنتهي حياته ، لتتحول الأسطورة الحية المتحركة ، الى أسطورة خالدة في الضمير ، مستمرة . . .

ترى هل خاف على الرجل المقدس الجالس أمامه أو الواقف ، أن يجزع من الموت فطلب منه أن يكون قويا مهما يحدث ومهما تكن الظروف ؟ . . يبدو أن الموقف قد سيطر على جراسياني ، ومسته تلك اللمسة ، فجعلته يتمنى لعدوه صفات ترفعه بعيدا عن الضعف البشري . . لقد خاف ذلك السَّفاح ، وصاحب المحاكم الطائرة ، أن يذهب الوهج والسنى عن وجه هذا الانسان الذي أمامه والذي

طفق يتأمله ، ويحاوره محاورة صحفي مستفسر لا قائد متحكم . . لقد اختلط عنده الاعجاب بالاستغراب بالدهشة ، فأصبح يتبدل نفسيا من حال الى حال في لحظات قصار ، لكنها العمر . . هي الحياة مستقطبة . . . لا يحسها من تشتعل فيه ، فهو يؤدي الرسالة كأنما مسته عناية أو شعاع أو كلف بصوت داخلي لا يستطيع عنه رجوعا . أما من يقف أمامه ، فيأخذه الاضطراب والاعجاب والتنقل بين البعد والاقتراب ، فلا يدري من أمر نفسه إلا أنه يؤدي عن غيره . .

وهكذا فعل جراسياني فنقل لنا هذه المقابلة ، وحفظها لنا ، فجعلني أحس أنني انتقلت بها الى مدينة بنغازي في صبيحة يوم ١٥ سبتمبر ١٩٣١ ، وهزني هزا كاد يجعلني أصيح من ثقل ما حمل وجداني ، وهو يقول واصفا دخول عمر المختار عليه :

(وعندما حضر فرأيته أمام مدخل غرفتي ، خيل لي أنني أرى فيه شخصيات آلاف المرابطين الذين التقيت بهم أثناء قيامي بالحروب الصحراوية . . يداه مكبلتان بالسلاسل ، رغم الكسور والجروح التي أصيب بها أثناء المعركة . . كان وجهه مضغوطا اذ كان يغطي رأسه بالجرد . . ويجر نفسه بصعوبة نظرا لتعبه اثناء السفر بالبحر) .

لم يقدر جراسياني أن ينقل لنا حالة ضعف صغيرة . . فكلما أراد أن يشير الى ذلك ، جاء الضعف حتى ولو كان خارجيا لا يدل على الضعف الداخلي ، كضعف الشيخ وهو يتحمل حديده ، ويعاني كسوره وجروحه ، وما أبقاه السفر بحرا في جسده من أعياء ، جاءت العلامات لتجعلنا نرى في الشيخ قوة خارقة يتحمل بلا قول كلمة

واحدة تدل على الاعياء أو الكلال . . .

وجاء طلبه الجلوس ليجعلنا أمـام قدرة تهـز ولا تهتـز ، فهـو يطلب الجلوس بصفة سنه وما بلغه من الكبر ، لا بصفته يعاني من أثر الجروح والكسور والحديد وسفر البحر . .

وضرب قلوبنا مثلما ضرب جراسياني ، وهو يريد أن يمد يده ليسلم عليه فيمنعه الحديد . .

وجاء طلبه لنظارته بعدما رآهـا ، إذ لم يعـد يبصر جيدا بعـد فقدها ، ثم رجوعه عن طلبه اذ ما الفائدة منها فهي وصاحبها بين يدي هذا الجنـرال المنتصر المهـزوم ، جاء طلبـه نغمـة حزينـة ، ولكنهـا مضغوطة في الأعماق . .

حوار هزني اليوم وأنا أقرؤه وقليل منه قرأته منذ واحد وعشرين عاما . . . وسيهزني كلما قرأته . . فهو قطعة من الجلال . . يستحق أن يستعـاد بكل أداء ، لا ينقص منـه الا أنـه كان يدور عن طريق مترجم ، فاذا ما نقل أدائيا ، وتجاوزنا المترجم ، كنا نتجاوز حادثـا معروفا عايشه أحياء بيننا ، ينكرون على الاداء الأدبي أو الفني أن يقفز فوق التاريخ .

وهــذا ما جعلنـــي ابتعـــد عن المواجهـــة بـــين الايطـــاليين والمجاهدين . . كانت ستكون أضحوكة لو جعلت شخصية ايطـالية متغطرسة تتكلم العربية . .

وبالمثل كان الأمر سيكون غريبا وغير مقبـول وليس هنـاك من المأثور أو المعروف أو المسموع ما يدل عليه ، إنه ضعف أو تخاذل أو

تردد أو اهتز . . .

وجاءت شهادة جراسياني ، لتجعله وحيدا متفردا . .

وهكذا تصورته . . .

كل ما استطعت أن أضفيه عليه من أحاسيس الضعف ، هو تلك اللحظات الكئيبة التي تعتري البطل صامدا وحيدا . . .

— 23 —

وتجمعت الكلمات ، وامتلأت جوانحي بالانفعالات ، وتطايرت من عيني ايماضات ، تظهر ثم تختفي ، وكأنما وضعت فوق مقلاة ، انتفض ، ثم تعتريني قشعريرة ، لا البث بعدها أن أحس اللهب . إنني اجمع حتى أصير كقبضة اليد ، ثم أفرد حتى أصبح كامتداد الطريق . تتضح أمام عيني الأبعاد ، وقليلا قليلا تختفي الأشياء فلا أرى شيئا غير الظلام . حالة الكتابة بعد التقصي ومحاولة المعرفة حالة رهيبة . فالكلمات اذا ما اجتمعت تحسبها أول الأمر تفي بكل ما تريد ، وتفصح عن المعاني التي تضج بين جوانحك ، ثم تكتشف أن الكلمات لا تفي بشيء ، وأن تجمعها جاء ليزيد في الابتعاد عن التجربة ، وربما ليجهض الفكرة ، وليغيب المعنى في ثناياها ، فلا تدل بعد ذلك على شيء .

لا أستطيع أن أبقى في مكاني فأقوم اخرج من بيتي ، ولأذرع الشوارع ، فنفسي تتآكل ، فالضرام الذي فيها أقوى مني ، وحصيلته لا أقدر عليه ، فلست عليه مسيطرا ، وهو علي مسيطر ، يدكني

دكا . ويجعلني أود لو رجعت عما انتويت وارتاح ، فالراحة هي مبتغاي ، وأنا على ما فعلت من النادمين ، وتوبة نصوحة أن أعود مرة أخرى الى محاولتي هذه من جديد . ولكن هيهات أن تتركني الارهاصات المتجمعة ، وتسمح الي بالعودة ، فقد سرت خطوات ، وربما قطعت شوطا تكون العودة منه مثل السير فيه الى منتهاه . كلا الفعلين عناء . فلم يعد باليد حيلة ، ولم يعد أمامي غير الامتثال لما يصدر الى يدي من ذهني من أوامر . وكنت انتظر . كنت متشوقا الى تلك الحالة التي تنقذني ، ففيها يولد شيء ، ومعه أحس كأنني أولد من جديد . هو يسير في دمي ، ويحركني ويحرق ما يتولد في الدم من طاقات ، وما فيه من توهجات ، هي اذا ما تجمعت أحسبها ذلك الشيء الذي لم يتجمع مثله عند غيري . فاذا ما استطاعت الكلمات اخراجه ، فلا بد أن يكون له فعله الذي يشده الغير ، ويجعلهم ينظرون اليه ثم الى صاحبه باعجاب ، ويقولون في أنفسهم كلمات ولكن العمل يظل تلك العبارات تردد ، يكتشف ما فيها من جوانب وايحاءات وقدرات ، وحوافز ، وأفعال كامنة ، وأضواء كالشلالات . اكتشافات وكشف ، واقتراب وحركة ، وخمود ينتظر بعده التفجر ، والترديد والتنغيم والايقاع ، والجو المتحكم الذي يجعل كل الناس مشدودي الأعين ، فليس هناك من واحد يقدر على الابتعاد ، فهذه حالة الابداع تجمعت في الكلمات ، فهي من جديد تمارس ابداعها داخل النفوس فتجعلها كالمبدعة ، أو هي تبدع ولا تشعر . حالة الخلق ، وتكون العوالم الصغيرة المترابطة ، يفضي كل منها الى غيره ، كالخلايا تلك الصغيرة لا تراها ، ولكن الأجسام

الكبيرة تراها ، وفي داخل كل خلية عالم لا تراه ، ولكن اذا اجتمعت الخلايا وتشابكت وتفاعلت وأفضت بعضها الى بعض تكون العالم الذي تراه .

إنها التكوين وقد اتضحت معالمه فهو في النفس ينوي الخروج ، وكان علي أن أجد طريق الخروج وليس غير الكلمات من طريق . هي الوسيلة ، هي الاداة ، وليس الحجر أداتي ، وليس اللون اداتي ، وليس النغم اداتي ، وعلى الكلمات أن تكون أكثر من الحجر قوة وعليها أن تكون ذات بهجة اكثر من الألوان فتجعل العيون ترى مالا تراه في كل وقت ، وعليها أن تكون منغمة موقعة تنزل على طبلة الأذن فتدخل الى القلب سربا ، عبر الشعيرات والدماء والشرايين .

أدركت أنني لم أفعل شيئا ، وأن كل ما عانيته لم يكن غير أوهام . فالكلمات ما زالت في نفسي أصواتا ميتة ، والصور لم ترتسم الا لتخفف عن صدري ما أحس من احتباس . والشخصية حتى وان ارتسمت ، فهي عسيرة على مثلي .

ولم يعد أمامي غير العودة . ففي ذلك الاطمئنان والسلامة . يكفيني أن أكون لغيري معجبا بمن استطاعوا وقدروا فخلقوا وقدموا هذه الأعمال التي تعجبنا وتجعلنا من أعجابنا كأننا نحن الذين خلقناها .

يكفيني أن أنال شرف المحاولة . . فقد حاولت وقد فشلت ، وماذا أصنع اكثر من ذلك ؟ . تلك هي مقدرتي ، ولا يكلف الله نفسا

الا وسعها ، وكل ميسر لما خلق به . وقد خلقني الله على غير قدرة على العناء الكبير .

ولكن هذا الذي أحسست ، وهذا الذي سمعت ، وهذا الذي رأيت . . ما هو او ما هي ؟. أكان وهما ، أكان خدعــة ، أكان الشيطان يوسوس لي ليجعلني اتخذ طريقا كاذبا . فيجعل مني امثولة لكي يأخذني الغرور ، فأظن في نفسي الاقتدار على كتابة شيء له قيمة أريد من ورائه ابراز بطل ، ثم لكي أجعل الناس يدركون من وراء أعماله وشخصيته أبعادا ، ويرون آفاقا ، ويرددون كلمات تتضح فيها ذواتهم فيعجبون به ، ثم ليرون في أنفسهم القدرة على فعل كل عمل نبيل والمحافظة على المعاني الطيبة السامية وتنميتها .

فالكلمة الطيبة كالشجرة . . فهـل عجـزت عن ايجـاد كلمات طيبات ؟ ألا يوحـي هذا البطـل بكلمات طيبـات ، بل أن ما قرأتـه عنه ، وما نسب اليه كان كلاما طيبا . نبت في هذه الأرض .

كنت أدور في الغرفة ، وكان المكتـب داكنـا ، وكانـت نفسي تشف عما بداخلي ، فلا أرى شيئا .

فجأة اتجهت الى المكتب وجلست أمامه ، ووضعت الورق ، وسمعت كلمة (الجبل الأخضر) أرددها ، وكنت قد قرأتها فيما قرأت من أشياء ، ورأيت أمام عيني بطومة ، وفيها طـير أخضر ، وفوقهـا عصفور يطير ، وسمعت صوت رجل يحدث صاحبا له في الطريق ، ونظرت عبر النافذة ، لتنفذ نظراتي من تلك العيون الدقيقة لشبكة من الأسلاك . وأضع الورق أمامـي ، وأعـدل من وضـع الورقـة عدة

مرات . أقلبها ثم أعدلها ، أجعلها في وضع عرضي ، ثم وضع طولي . أضع القلم فوقها ، ثم أجعل سنه على الورقة وأريد أن أحركه ، بأي شيء أحركه ؟ وماذا عندي ليحركه . أعود أضع القلم ، وأرجع بجسدي الى الخلف ، وأسند ظهري على مسند الكرسي ، وأتأمل حائط الغرفة فأرى ادراجا ورفوفا وملفات مكدسة ، وأفكر في الملفات وما حوت من كلمات ، كلام كثير ثم ارجع الى القلم وأمسكه وأضع رأسه على الورق، وأريدأن أحركه ويخرق اذني مزمار سيارة مسرعة في شارع خال . كل دقائق قد تمر سيارة ، وقد يمضي من الوقت نصف ساعة حتى تمر سيارة اخرى .

أقف ، وأنظر من النافذة ، فلا أرى أحدا . فهذا وقت الدوام والناس جميعهم في مكاتبهم . لعلني اخترت وقتا غير ملائم للكتابة . إذ لا بد للكتابة من وقت يوحي بها . هكذا قرأت وأنا لم أجرب ذلك رغم أنني سمعته من كثيرين ، ومنهم من يربط بين لون الورق والكتابة ، ومنهم من يجعل العلاقة قائمة بين القلم وشكله والكتابة ، وكثيرون هم الذين يقولون بشروط كثيرة لا بد من توفرها ليكتبوا ، فالوحي عندهم عصى ، ويحتاج الى امور لا بد من توفرها . لم أتعود ذلك ولم اعتد عليه ، فما كتبته لم يكن له وقت ، ولم اختر نوعا من الورق ، ولا قلما له أوصاف ، إذ يكفي أن أجد هذه الأدوات بأي شكل من الأشكال حتى أبدأ الكتابة اذا الحت علي ، وكان عندي ما أقول .

هاه ، المهم أن يكون عندي ما أقول . هل درست نفسي ، وعرفت أن فيها ما يجب أن يقال ؟ أم ليس هناك غير الانفعال ، جاءني

من حالة حب جارف لوطني ، إذ وجدت نفسي تضمها ابعاده فتحس باطمئنان بعد غربة ، وبعد أن كان الجناح مهيضا ، فلا انتفاضة سعادة ، أجد نفسي الآن وفي مقدوري أن أحلق فارتفع .

هذا فعلا هو ما دفعني لأن اكتب ، هو انفعال طاغ ، لا ينفع الانفعال حتى في الأعمال الفنية . يمكنك أن تجعل من الانفعال تلك الشرارة التي يتولد عنها الوهج بالاتقاد ، ولكنك لا تستطيع أن تجعل من عملك كله انفعالا . فاذا ما صنعت ذلك كنت كمن كتب نواحا أو ضحكا على ورق . . أو وضع بقعة على غير نسق .

الناس ينتظرون البناء والتماسك والتناسق ، انهم لا يحبون وينفعلون الا بقدر ، ثم يرجعون يبحثون عما يعد الجيشان ، فاذا لم يجدوا شيئا سخروا ، وكان حالي كحالهم ، إذ اكتشفت انني لا احتوي داخليا على شيء . فسخرت من نفسي ، ولمتها وكدت احطم القلم ، ثم أمزق الورق الأبيض .

ولكن مهلا . كيف ذلك ، ألا تدل الشخصية التاريخية على شيء ؟ ألم يكن عناء هذه الشخصية وتضحيتها ، ونضالها الطويل دلالة على شيء ؟ هل لا بد من فكرة فلسفية او ابتكار درامي حتى يكون العمل المسرحي ؟ أمن الضروري أن أكون ذلك العبقري الذي خلق وبنى وصور وقدم فكرة جديدة هزت الناس ؟ ألا يكفيني أن أقدم شيئا على قدر جهدي ، وعلى قدر معرفتي ويكفي أن يدل على حبي ، وتقديري لوطني . يكفيني أني احسست بهذه الأبعاد وطنا مثلما احس بها « عمر المختار » . يكفيني اني ارتعشت لتضحياته وصلابته ، ومواجهته للأعداء . فكان ارتعاش بداية لمحاولة عمل

فني . يكفيني ان اهتززت للكلمات تخرج صادقة من شفتين لا يعتقد صاحبهما تميزا عن غيره .

يكفيني انني لم أحاول أن اتخذ من الكتابة طريقا ملتويا ، بل اتخذت منها طريقا الى وطني ، الى اعماقه الى تاريخه الى مكوناته ، الى تلك الذرات الصغيرة التي تجعل من الشتات تجمعا ، وتجعل من النسيان ذاكرة ، وتجعل من الجفاف نضرة .

فلتكن بدايتي هي العاطفة ، جيشانها ، وتدفقها ، وتجمعها ، واندفاعها . ولتكن فكرتي بسيطة ، والمعنى الذي يحويه العمل أشد بساطة . يكفي أن تكون الذرات الصغيرة مجموعة في مكان دلالة على انسان .

وأمسكت بالقلم ، وتحرك ، وكدت أطير ، وسار القلم ، ولم أرده ان يتوقف ، لم أعد انظر كثيرا عبر النافذة . لم يتوقف القلم ، ورجعت الى البيت ، ثم عدت الى المكتب ، وكان يصاحبني بشير احد معاوني في المكتب . كان النهار في آخره ، وبدا « يرقن » ما اكتب . كنت اذا ما كتبت صفحة اعطيتها له . تجمعت الصفحات ، ولم اترك المكتب . حتى انتهيت من كتابة « مسرحية عمر المختار » .

وقلت في نفسي ، لتكن ما تكون ، فهذا جهدي في حالة انفعالي هذه ، وفيه شيء كان كامنا في أعماقي . وتركت بشير يضربها على الآلة الكاتبة ، وواجهت الطريق . كان الجهد قد تلاشى في داخلي ، وبقي جسمي متماسكا تتحرك فيه اليدان والقدمان . أما العينان فكان فيهما ايماض وحيرة .

هي كلمات ، أما الجدوى فالأيام تأتي بها !

— 24 —

لا وجود للمسرح ، ولا يفكر احد فيه . المدينة صغيرة وما زالت تبحث عن مجالات الحياة الاقتصادية ، ولم تستقر فيها عادات اجتماعية واحدة ، ارتكزت على حياة البداوة ، وارتبطت بحياة الحضارة . . فكيف يمكن أن توجد عادات ثقافية في محيط ضيق ، وأفق محدود ، وموقع يكاد يجعلها في حكم المعزولة . سألت عن بناء للمسرح ، فأجابوني بالنفي . قالوا : بان هناك مسرحا في المدرسة الثانوية ، وهو يحتوي على خشبة صغيرة تصلح منصة للخطابة أكثر مما تصلح للتمثيل . كان الناس ينظرون الى مثلي بلا دهشة ، اذ يبدو أنهم تعودوا على سلوك أمثالي من الحالمين الذين يرون بعيون جوانية . ويبدو أنهم لم يسأموا من أسئلتهم ، ومشاريعهم الثقافية ، ولعلهم وطنوا نفوسهم على استقبال كلماتهم باهتمام والنظر اليها على أنها ممكنة التحقيق دائما .

كنت لا أدرك أنني ذلك الخيالي صاحب الكلمات التي لا تمس الواقع ، او لعلها كانت كلمات من الوجدان ، كانت أمنيات ، وليست كلمات عمل . والا فما الذي جعلني اتجه للحديث عن المسرح ، وكتابة المسرحية في بنغازي سنة 1958 م .

كنت أتحدث عن المسرح كما لو أنني في مدينة تضج بالحركة المسرحية ، وتعتمد على تراث مسرحي عريق ، تعلقت نفوس أهلها بهذا الفن ، ثم جاءت ظروف الحرب فقطعت هذه العلاقة وضربت

ذلك الواقع ، فكان أمرا هينا ان أعمل مع غيري على عودة المناخ الثقافي المسرحي ، وان نلم النواحي المبعثرة في هذا المجال ، فالركائز ولا شك موجودة في الواقع وفي النفوس .

والحقيقة ، كان الامر عكس ذلك تماما . فلم يكن هناك غيرما يضطرم في نفسي من انفعال وما يتحول من الانفعال الى كلمات ، فألقيها فتجد من يسمعها ، ولا يسخر منها . والا فأين الممثلون ، وأين الكتابات المسرحية ، وأين انتاج السابقين ؟ اسئلة لا توجه ، ولا يصح أن تخطر على البال ، فليس هناك ما يدل عليها ، ولا داعي لان تكون موضع تفكير ، الا من باب الاثارة أو الاستهزاء ، وهما أمران ما أبعدهما عن نفسي . كنت جادا ، ومن سمعني أدرك أنني لا أهزل ، وعرف انني احاول ، فلم يسخر هو بدوره من محاولاتي ، ولم يثره ما فيها من طموح الشباب واصراره على تجاوز الواقع .

سألت عن الاذاعة ، فأخذوني اليها . كانت غرفة حديثة البناء في « سيدي حسين » ، تبدأ ارسالها مع المغرب ، أما في النهار فان الغرفة تعمل في تسجيل بعض الاحاديث والمقابلات . وكان أن حولت المسرحية إلى عمل اذاعي جعلت الحوار هو الاساس ، وأردت من الجمل أن تكون ذات تأثير وجداني وايقاع مرتفع . فالناس لم يكونوا ليسمعوا هذه الاذاعة المختفية . . فالمؤشرات موضوعة على لندن أو صوت العرب ، وكانت قبل ذلك على الشرق الادنى .

وحرضت الاخوة العاملين في هذه « الغرفة الإرسالية » على مشاركتي في عملي ، كنت أمثل أمامهم ، وأدفعهم الى التقليد ، وأقلد أنا نفسي ، واغير من طبقات صوتي ، وأتحدث عن الابطال ،

وعن ضرورة تسجيل مواقفهم ، وعن الروح التي تفرض علينا أن نعمل اي شيء بمناسبة ذكراهم وكانوا هم يستغربون ، ويندهشون ، ثم يطيعون مسلمين أمرهم الى الله ، والى هذا الآتي من الشرق ، فهو من مشرق « شرقهم » وكان قبل ذلك أهله من « غربهم » ، فصلته بالشرق ، وبواقعهم واضحة ، واهتمامه بهذه الامور يجعله قريبا من نفوسهم .

لم يقنعني ذلك التناول الاذاعي لشخصية « عمر المختار » ويبدو ان تحقيق ذرة من الامنية ، يجعلها تلح على النفس في عنف ، كأنها تحققت جميعا ، او كأنها اصبحت واقعا فتريد ان تنمو بهذا الواقع وتتطور من جديد . هذا فعل الامنية في النفس ، ما ان يصبح شيء منها واقعا ، حتى يشتد الحاحها على النفس ، وهذا ما فعلته فكرة « مسرحية عمر المختار » في نفسي .

قلت في نفسي وقتها سأحاول كتابة العمل على أنه مسرحية ، ثم أحوله الى عمل اذاعي ، وأحققه اذاعيا ، وأجعل منه حافزا وتحريكا للواقع والتاريخ فلعل هناك من يريد العمل ، ولم يقتنع بأن هناك شروطا موضوعية تساعد على العمل ، الفني بصفة عامة ، والعمل المسرحي بصفة خاصة ، وتوثقت علاقتي بالاخوة العاملين في المجال الاذاعي . . كانوا ثلاثة رجال وسيدة ، ومهندس الماني يتكلم الانجليزية وبعض الفنيين المتدربين . . . وسائق ، ومباشر وعساس . كان علي أن اعمل حساب العدد والمقدرة ، وامكانية قراءة نص مكتوب بالفصحى ، كان أمرا صعبا أن أعثر على من يقرأ الفصحى ، ويرفع صوته بها ، ثم يغير من طبقات صوته القاء ،

وزيادة على ذلك عليه ان ينفعل ويتأثر . . عليه أن ينقل شحنة نفسية ، وفكرة بواسطة الكلمات ويعطيها ايقاعا في الاداء يجعلها تغور في النفوس بعدما تنجذب اليها الاذن في واقع بنغازي سنة1958 .

هل كنت مكلفا بهذا الامر ؟ ومن يا ترى الذي كلفني به وجعل معيشتي مرتبطة به ؟

من يراني في ذلك الوقت يعتقد ذلك ، والا فما هذا الحماس ، وهذا الاستغراق ، وهذا الاهتمام ، وهذا الجد ، وهذا القلق . . كل ذلك كان يعتريني بل كان يمضني ويجعلني كالممسوس .

هل كنت مدفوعا من جهة ترى في هذا العمل بداية لمخطط ، لترتب عليه امورا اجتماعية او ثقافية ، ومن ثم ترتب تحركات سياسية ؟ !

من كان يعيش في بنغازي في تلك الفترة يسخر من مجرد مثل هذه الخاطرة ، ذلك اذا كان هو سليم الطوية كما كنت . أما من كانت لهم طوية انطوت على أمور وعلاقات واتصالات فقد كانت لهم وجهة نظر أخرى !

وجاءني يوما أحد الاخوة العاملين في الغرفة الاذاعية ، وقال مبتسما : ابشر فسنستلم « براكة » الاذاعة البريطانية ، وبها غرفة للتسجيل لا يضايقنا فيها الوقت ، ولا تربطنا أوقات تسجيل الاحاديث والمقابلات ، سنعمل فيها على راحتنا فخذ من الوقت ما تريد تمثيلا واخراجا ، وتوليفا .

وكان أن رأيت « البراكة » ، ورضيت بواقعها ، وتصورت

انني أنشىء مسرحا في الهـواء ، أو هو مسرح على الهـواء . . أجعـل الناس يتصورون أنهم في مسرح ، ويسمعون اصوات الممثلين وكأنهم يرونهم .

فللصوت تأثير سحري في النفس ، اذا أحسـن القـاؤه ، واذا كان الاداء متقنا ، ورافق ذلك موسيقى ، ومؤثرات صوتية .

فما الذي يمنع من أن أجعل للمسرح مفهوما جديدا . . المسرح فكرة وفن ، ووراء ذلك جهد ، وعناء ، وارتباط بالواقع والتاريخ ، والمجتمع .

المسرح كان في ذهني وقتها افكارا مرتبطة بالواقع ، وتعمل على تغيير الواقـع ، واعطائـه أبعـاده الـذهنية والوجـدانية ، والارتفـاع بالذوق ، والروح ، ودفع العقـل الى الحـركة . . . المسرح كان في ذهني كلمة هادفة ، كلمة غير بعيدة عن الواقع ، وغير مسطحـة في نفس الوقت . هي الكلمة المعتادة وقد تحركت فيها القدرة الانسانية بالفعل . أي أن الكلمة تصبح فعلا عنـد السماع . هي تتحـرك في الوجدان ، متخذة من التجاوب وأثره في النفس دائرة الفعل ، فتبقى في حركة دائمة . فهي الكلمة الشاعرة ، وشاعريتها ليست في ايقاعها الظاهـري ، او تموجاتهـا الـداخلية ذات الايقـاع ايضـا . . ولـكن بالاضافة الى ذلك بل وذلك نتيجة لكونها هي الكلمة الفعل .

ان الحركة في الموقف ، أو تتابع الحركات في الموقف ، ثم تتابع المواقف ، ثم الارتفاع بالحدث المترتب على هذه المواقف ، ثم الموقف الرؤية ، صعودا ، وقد يتوقف عند حد هو ما يمكن ان اعتمد عليه في

تقديم مسرح على الهواء .

أمنية على أمنية ، وبناء فوق بناء ، وكله في الوجدان والذهن ، ولم يجعلني ذلك أتوقف أو أتراجع ، بل جعلني أكتب المسرحية .

والتقيت بالاستاذ خليفة التليسي ، وكان يمدخطواته في شارع الاستقلال ، ومثله والى جانبه بدأت امد خطواتي وأحدثه عن المسرحية التي اكملتها وهو يستمع الي هادئا ساكتا خلف نظارته السميكة ، وكأنه وقتها كان يقول في نفسه : هذا على ما يبدو ما زال حالما غافلا عما حوله . . وأنا رغم انني كنت ألمح في نظراته مثل هذا المعنى الا انني كنت أتحدث كولد ذهب الى مدينة الملاهي ثم رجع منفعلا يحكي لوالده عما رأى . ويبدو انني رأيت اثناء كتابة المسرحية عالما يشبه عالم الملاهي ، يشبهه في الاثر الذي يعقبه في النفس ، وفي حالة الاكتشاف الدائمة التي تجعل النفس غارقة فيه ، فهي ترى الاضواء ، وترى الابعاد ، وتستشرف معنى الحياة عميقا ساميا . انها النفس تدرك أن المأساة في الا نحاول ادراك المأساة ، وأن نعمل على تلافي الخطأ الذي سببها .

إن المحاولة والخطأ ، هما ما يجعلان منا اصحاب ارادة هما الحركة منظورا اليها في حدود خبرتها البشرية ، ايمانا بتأثير العمل الفني في أن يجعل الانسان قادرا على تجاوز واقعه المحدود بشروط موضوعية قاسية .

كان المسرح امنية ولم يزل . واذا جاء اليوم واصبح المسرح واقعا ثقافيا ، فمعنى ذلك اننا نستطيع أن نبني داخل النفس مثلما نفعل خارجها .

وطاشت المسرحية مع الريح فليس من تعليق واحد ، لم تدخل كلمة منها اذنا ، ولم يردد اي انسان تعليقا يتصل بها . كنت انتظر ان يجيئني من يخبرني بأنه سمع مقطعا ، او انفعل بموقف ، أو انه رفض أن يسمعها . . أي شيء كان يجعل للعمل جدوى ، وان الجهد لم يذهب هباء ، بل بقي في النفوس ما ينفعها . . وانتظرت كثيرا من الوقت ، وكان انتظاري كمنتظر النسمة الباردة اللطيفة أمام تنور يتلظى .

كنا نذهب في الصباح والمساء ، أجمع الموسيقى ، قطعا من بتهوفن ، السيمفونية الخامسة وأظنها التاسعة ، فهي للبطولة لا أذكر الان . وأحاول تركيب الأصوات مع الكلمات . كانت الاجهزة قديمة متآكلة ، فتداخلت الكلمات واختلطت بوجيج الآلات ، فصارت كأنها ريح دائمة تلفح الاذن ، حاولنا كثيرا أن نتغلب على العطب ، ولكن لا ينفع في البائد ترقيع .

حزنت ، ونزل على صدري هم ثقيل ـ وبمرور الايام قبلت ذلك ، فمنذ أن جئت الى وطني ، اعتدت الجهود المحبطة وعدم الاهتمام ، وتساوي الأمور ، فلا شيء يستحق الأسى ، او لعل تعود المأساة جعل منها عادة لا تستحق الانفعال . فللانفعال أوقات أخرى ليس منها ضياع الجهد ، وذهاب النتيجة ، ووقوع الخطأ عن سبب في تركيب الاحداث ، ومساهمة الانسان فيها .

لم أعد انتظر كلمة ، وقلت في نفسي هذا أمر حسن ، وقاني به الله عناء المناقشة والتعليق ، والتجاوب ، والشرح والبسط ، وتوضيح

التجربة ، وفك مغاليق الموقف ، والاشارة الى الامكانات المتوفرة ، والحديث عن التجربة الاولى ، والقصد منها ، وهو اثارة جو فكري ، واحياء تاريخنا الحديث ، وعدم التخوف من تناول شخصيات يعايشها الناس مسرحيا ، أو فنيا ، ووقوعي في المغالاة والخطابية والغرض من التبسيط الذي ذهب ببريق الايماء وأهميته ، وتطور الحدث ، ووضوح الشخصيات ، ثم التجريد الذي جعل من الحوار جملا تكاد تكون معروفة مرددة .

كثير كثير مما كان يمكن أن يثار تعليقا وترديدا في مجال المسرح والتاريخ ، وحول الشخصية والتناول الفني ، والمقدرة المتوفرة ، والظروف المتاحة ، ولكن لم يدر في ذهني أن يدور في أذهان الآخرين أي شيء يتصل بمجال غير مجالات الادب والفن والتاريخ ، ذلك أنني حرصت على ذلك ، بل كدت أجعل من الحوار ماء حتى لا أخدش أحدا ، وكدت أجعل الشخصية المصارعة القوية انسانا متسامحا الى حد السذاجة ، وكدت أجعل من الاشياء والمواقف أمورا تحدث بعيدا عن ليبيا ، تحدث تجريدا وليس هناك ما يتصل بها في الواقع .

لم أكن أضمن ان هناك في بعض النفوس ما فيها ، وأن صراعا مفتعلا يبحث له عن اسباب ، ويبدو أن اذاعة المسرحية في الهواء لم تحقق هذا السبب أو هذا المتكأ ، اذ هي كلمات ذهبت مع الريح ، ومن سمعها اختلطت المؤثرات الصوتية والأبواق النحاسية والآلات الوترية في القطع الموسيقية ، هذا الى ما يؤلم من المحاولات الجاهدة من أجل التعبير ، والانفعال ، والنتيجة أن لا انفعال ولا تعبير .

كل ما كان هناك هو الجهد الصادق في لحظات ، يأتي بعدها

الواقع وما فيه ، وابتعاده عما احاول فعله ، وسكون الناس الى امور ، ليس فيها ما اعانيه فنيا . وقد حاول معي عدد من الصحاب ان يقدموا شيئا ولكن لعلهم سخروا فيما بعد مما قدموا . وكان أن جعلوا مما عانوا شيئا كأنه خطأ ارتكب في الخفاء ، فليس فيه ما يستحق الحديث أو الاعلان عنه ، او الافتخار به .

ويبدو أنني كنت من الغفلة أن سرت في الطريق المرسوم ، فبدأت أعمل على تثبيت الكلمات . . أنها كلمات ـ في ظني ـ تستحق ان تبقى لتشير وتمضي وتفعل في مستقبل الايام . لن أتركها تذهب مع الريح . لن أجعل عدم الاهتمام ، او الاعتياد أو روح الخطأ والاحساس بكل عمل كأنه ورطة يجب التخلص منها ومن نتائجها . . لن أترك مثل هذه المشاعر تسيطر علي وسأجعل من الصحاب الذين شاركوني تمثيلاً وغناء ، يفتخرون بصدق مشاركتهم ، حتى ولو شابهم ما يسيطر على العمل في المجتمع من عدم الاهتمام والاعتياد القاتل ، والتخلص من بهرة اللحظة الفنية . . اذ الاحساس بها ـ كما كان يبدو ـ خطيئة .

لم أحس بأن طريقا رسم لي وحتى لو أحسست فلم يكن أمامي غير هذا الطريق للسير فيه . اذ هو الطريق المستقيم السوي ، يفتخر من يسير فيه ، ولا يحس التواء ، أو سقما ، أو لؤما ، او يريد أن يصنع حفرا ، او كمينا ، أو يكون فيه ذلك المترصد المتحفز ، المنتظر ، ليقفز فوق كتفي انسان ، او يقترب من انسان مخاتلا أو مخادعا .

كان طريقا واسعا واضحا ، يملؤه الضوء والشمس نهارا ،

وتملؤه البصيرة والوضوح ليلا ونهارا ، يمشي فيه كل انسان على مهل ، ويحكي ، ويقابل ، ويضحك ، ويبتسم ، ويقول ، وينادي ويعرف ، ويلمح ، كل ما يدل على ذاته وكينونته ويرتبط ، بتاريخه وأخلاقه ، يستطيع أن يعبر عنه بصوت مرتفع .

كيف لي بتثبيت الكلمات ، وحصيلتي مليمات ؟ وأين من ينشر ويهتم بهذه الورقات . . هي لا تساوي في عرف التجارة والحساب شيئا . كنت التهب رغبة في رؤية كلماتي مطبوعة ثم مقروءة . . ولم يكن ليهتم أحد غيري بذلك ، الى أن وجدت أحد الصحاب وكان على سفر للمشرق ، وحكيت عن امنيتي المتمثلة في طبع المسرحية فكان ان تطوع للقيام بهذا العمل ، وكان معي ثلاثون جنيها ، هي حيلتي ، بل لعلها كانت راتبي الذي احتلت على نفسي حتى لا انفقه في وجوهه . . وانتظرت اياما وربما شهرا أو شهورا ، على غير توقع مني ان ينجز الصاحب ما وعد . ففي داخلي يختلط الامل والرجاء باليأس والقنوط ، والرضى بما يأتي ، فما الداعي لان أجعل من أمور بسيطة ، واشياء تحدث كل يوم ، كوعد قطعه انسان ولم يوف به ، أو ككلمة يقولها شخص وتذهب كما يذهب الصوت ، أو انتظار ولا يتحقق شيء مما انتظر ، كلها تحدث ، وكلها يماثل بعضها بعضا . فليس هناك ما يدعو للقلق والتوتر ، والتحفز والانفجار .

ولكن هل كان باستطاعتي التحكم في مزاجي وتركيبي ، وافرازات الغدد ، وارتباط الفعل ورد الفعل ، وسيطرة بعض الحصائل الوراثية على الاستجابات الشرطية . . هل كان في مقدوري ان أكون غير ما في مقدوري ان افعل ؟ لعلني كنت أستطيع فعله ، لو

انني تدربت ، وعوِّدت منذ الصغر على التحكم في جوانب النفس كلها ، فهي لا تستعصي على من أراد ، انها هي نفسها وليدة الارادة ، مثلما هي وليدة الخلايا والانسجة والدماء والغدد .

ترى من كان سيدربني على التمكن من وضع الذات امام نفسها ، فيتم النظر اليها كأنها موضوع ؟ وهل لو تدربت وتمكنت من هذا العمل ، وقمت به ، هل سأصل الى نتيجة مرضية ، تتكون بواسطتها شخصيتي ، أم أنني كنت سأكون غير نفسي ، غير ما انا الآن ، بلا عناء وبلا معايشة ، وبلا مشاركة ؟ !

ذلك ما لا يعلمه أحد غير الله . . الذي اعلمه أنني في لحظات كثيرة تمنيت ذلك ، وعملت من اجله ، ولكن عملي جاء متأخرا بعدما تأصل في نفسي ما شكلها وكونها ، وجعل لها ملامحها وشروط حياتها ، وربطها بصيرورتها ومصيرها ، ولا يستطيع أحد ان يعلمه ، ومهما اجتهدت على ان أكون ذلك الهادىء المتأمل في سكون ، غير المنفعل ، غير المتحمس ، غير المحب للناس ، غير الآمل ، غير المهتم ، الذي لا تهمه غير مصلحته ـ فلن أفلح .

وهل كانت محاولتي نشر المسرحية ، ابتغاء وجه الله ، ومنفعة غيري أم لي فيه منفعة ؟

اذا سألت نفسي الان ، وبعد مرور عشرين عاما على نشرها أول مرة ، اجدني اتردد في الحكم ، ولا أسارع بالظهور بمظهر الزاهد في الشهرة الذي كنته ، فمثل هذا المظهر سيقابل بروح من الشك ، ويحسبني كل انسان مدعيا ، يريد أن يبدو متعاليا ، لا يتحكم فيه ،

ولا يوجهه ما يتحكم في الناس وما يوجههم . وهذا يجعلني أقول بأنني كنت راغبا في اثبات تفردي ، وامكانياتي ، وفي الظهور ، وأخذ مكاني ، وفي أن يكون عندي عمل فني ، وأن لا يذهب هذا العمل هباء ، بل يبقى .

انه اثبات للوجود ، وان الجهد لا يضيع حتى في الرمال ، وان اتسعت وامتدت لتكون مساحات لا يحدها البصر .

كنت قلقا انتظر للمسرحية ان تطبع . وكنت متمردا على الانتظار . ولم يكن القائم بأمر طبعها مكلفا ، بل كان متطوعا دفعته روح الصداقة والمعرفة على القيام بهذا العمل الشاق .

وجاء يوم ، وناداني قائلا هذي هي المسرحية مطبوعة . كدت اطير فرحا .

كانت مطبوعة بحروف مجموعة متآكلة ، على ورق رخيص ، وغلاف ارخص ، أصفر . وكان ما طبعه لا يزيد على الالف نسخة .

بارك الله فيك ، رددتها . كان عملا طيبا . وكانت روحا عالية تلك التي رأيتها فيه .

وحكى لي كيف شارك احد أقربائه في طنطا يمتلك مطبعة صغيرة في تصحيح مسودات الطبع ، وكيف عكف الرجل طيلة الوقت على انجازها ، فمثل تلك المطبعة غير متمكنة الا لتطبع البطاقات ، واستطاع مع قريبه أن يطبعا فيها كتابا .

وكان فعلا « كتابا بطاقة » قدمت بها نفسي الى وطني ، فكيف كان استقبال أبناء الوطن لمن قدم لهم نفسه ، فلم يخف منها شيئا ؟ !

عـدد النـاشر : 104 ـ 8 ـ 84

الدار العربية للكتاب : المقر الرئيسي : عمارة « وفاء » شارع غومة المحمودي - طرابلس - ص. ب : 3185 الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية . الهاتف : 47287 - الفرع الرئيسي : المنار 2 - نهج 7101 عدد 4 - تونس - الجمهورية التونسية - الهاتف : 236025 - 236600 .

ص . ب : 1104 - الثمن : 1,500 د.ل ـ 3,300 د.ت